

سلسلة
في
تاريخ العرب والإسلام

صلاح الدين والصليبيون

تاريخ الدولة الأيوبية

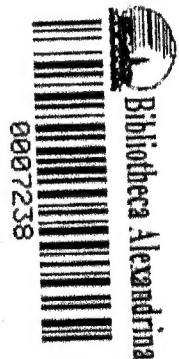
تأليف
الدكتور أحمد الشامي

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
كلية الاداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الاولى

١٩٩١

يطلب من
مكتبة النهضة العربية
٣٢ شارع عبدالخالق ثروت - القاهرة



المكتبة العامة لمكتبة الاسكندرية

٩٥٩-٥٩٧/١٩٩٢٠٢

٢٠٠٢

رقم التسجيل: ٥٧٠

20 32

سلسلة

في

تاريخ العرب والإسلام

صَلَّاحُ الدِّينِ وَالصَّالِحُونَ

تاريخ الدولة الأيوبية

تأليف الدكتور أحمد الشامي

تأليف

الدكتور أحمد الشامي

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
كلية الاداب - جامعة الزقازيق



General Organization Of the Alexandria
Library (GOAL)

General Organization Of the Alexandria Library

الطبعة الاولى

١٩٩١

يطلب من

مكتبة النهضة العربية

٣٢ شارع عبدالخالق ثروت - القاهرة

كل نسخة غير موقعة من المؤلف تعتبر مسروقة

الأهراء

الى شعوب الامة الاسلامية على اختلاف اسمائها ،
وتعدد دولها ، اهدى هذا الكتاب ليذكرهم بامجاد دينهم ،
ويعطيهم صورة عن عظمة اجدادهم ، فيعودوا كما كانوا ،
وكما اراد الله لهم امة واحدة (وهذه امتكم امة واحدة وانا بكم
فاعبدون) ...

المؤلف

2-11-1911

The first of the series of experiments was made on the 11th of November, 1911, and was a test of the effect of the addition of a small amount of water to a solution of a certain substance. The result was that the addition of water caused a decrease in the rate of reaction.

U.S.P.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ
أما بعد :

فإن التاريخ معلم الشعوب ، وهو المرآة الناصعة التى تنعكس عليها
صور القادة وأفكارهم وأعمالهم حتى يكونوا نبراسا وقدوة لشعوبهم فى
حياتهم وبعد موتهم .

وموضوع هذا الكتاب صورة صادقة وحيية ومضيئة لفترة من أهم فترات
تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى الاسلامية ، وهى فترة الصراع بين
الصليبيين الاوربيين والمسلمين فى المشرق الاسلامى ، ذلك الصراع الذى اتخذ
من مصر والشام مسرحا لاحدائه التاريخية ، رايت أن أقدمه للمشتغلين بعلم
التاريخ ودارسيه فى الوطن العربى ليذكرهم بأن الأمة الاسلامية الواحدة ،
التى يجمع بينها وحدة الدين واللغة والعادات والتقاليد والتاريخ (وهذه
أمتكم أمة واحدة) قد نجحت فى عصورها الاولى ، كما نجحت فى عصورها
الوسطى نتيجة لوحدها وتوحيدها وينبغى أن تنجح هذه الأمة فى عصورها
المعاصرة كما نجحت من قبل ، ولن يتأتى لها ذلك الا اذا درست وفهمت
واستقر فى وجدان شعوبها جميعا أن عزتها وقوتها ومجدها متوقف على
وحدتها التى جاءت على صورتها يوم أراد الله لها أن تبسط عدلها ، وتنشر
رايتها على العالم آنذاك .

ومن حسن الطالع أن يظهر هذا الكتاب فى هذه الأيام على وجه
الخصوص حيث يعيش العالم أجمع الحالة التى استيقظت فيها شعوب شرق
أوربا من نومها العميق ، وأفاق من كبوتها واستعادت حياتها وانتفضت
شعوبها بكل قوتها تحطم النظريات السياسية التى انتشرت بعد الحرب
العالمية الثانية ، تلك النظريات التى ضللت هذه الشعوب ، وسيطرت على

أفكار المثقفين فيها ، ثم احتوت وضمت زعماءها وقياداتها عن طريق شعارات ومبادئ ووعود خادعة زائفة ، فاستمرت على هذه الأحوال المظلمة السيئة ما يزيد عن أربعين سنة حتى اذا انكشف التضليل ، وانفضح المستور ، انقلبت هذه الشعوب وثارت على زعمائها ، لتدفع عنها ما أصابها من ضرر ، وتنزع عنها أحزان هذه المبادئ الهدامة ، وتشفى نفسها من سمومها وأمراضها ، فهبت هبة رجل واحد تعمل بكل ما في استطاعتها وقدرتها لتعود الى وحدتها مع أمهات أوطانها التي انتزعت من بين أحضانها ، وأقصد بها عالم الوحدة والحرية والديموقراطية في الغرب الأوربي .

فاذا كان هذا ما حدث في بعض شعوب أوربا بعد أقل من نصف قرن أو ليس من الأجدد والأعظم بمن ينتسبون الى دين العزة والكرامة ، دين الوحدة والمساواة والعدالة والسماحة ، الدين الذي يدعو الى خير البشرية جميعا ، ولا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين أبيض وأسود (كلكم لأدم وأدم من تراب) (لا فرق بين عربى وأعجمى ولا بين أبيض وأسود الا بالقوى) . أو ليس من الأجدد والأعظم أن يبادر زعماء الأمة الاسلامية على اختلاف دولها وتعدد أسمائها الى العمل على وحدة هذه الأمة كما كانت يوم نشأتها ، ويوم أعادها صلاح الدين الأيوبي الى ما كانت عليه كما أراد الاسلام لها أن تكون .

واذا لم يكن للدين من وازع في قلوب البعض ، فهل انعدم العقل ، وتبلد الاحساس ، ومات الشعور ، وأصبح هذا البعض لا يتعظ بما سطره التاريخ في عصوره السابقة ، ولا بما يحدث لقادة الشعوب التي انتفضت في أيامنا هذه ، ولا بماذا عاقبت هذه الشعوب زعماءها ورؤساءها الذين أضلّوهم السبيل ، وأذلّوهم طوال أعوام تمسكوا فيها بنظريات كاذبة خادعة ، ليغيثوا هم فوق مستوى الأباطرة ويتركون شعوبهم يطحنها الفقر والذل والمرض . ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره ، ومن شاء أعرض ، وما يوم الحساب ببعيد .

والحقيقة أن صلاح الدين الأيوبي لم يأت من فراغ ، كما أنه لم ينشأ في أمة ميتة فاحياها ، لأن التاريخ كان لا يزال ، وسوف يظل ، يحتفظ للأمة الإسلامية بجانب من أعظم انجازاتها الحضارية والانسانية والعسكرية ، فالدور الذي قام به صلاح الدين الأيوبي كان امتدادا واستمرارا لدور القائد المسلم الفذ الذي غرس نواة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة ، لمجابهة العدو الصليبي ، ونعنى به عماد الدين زنكى بن اقسنقر ، ثم دور ابنه نور الدين محمود الذى سقى هذه البذرة فنبئت واخضر عودها واستقام فى عهده ، حتى اذا تولى صلاح الدين الأيوبي القيادة ازهرت وأعطت ثمارها بفضل عبقريته السياسية والعسكرية وشخصيته الفذة وعقليته المدبرة . لأن مما لاشك فيه أن صلاح الدين الأيوبي أوقف حياته ، وكرس مواهبه وعبقريته العسكرية والسياسية لخدمة أهداف الأمة الإسلامية التى كانت تتطلع اليها ، وتنتظر الظرف الطيبة التى تقدم لهذه الأمة هذا القائد الفذ والزعيم الملمم ، الذى كانت صفاته وسجاياه الشخصية رائعة بدرجة جعلت منه زعيما مثاليا للأمة الإسلامية .

ذلك لأن صلاح الدين الأيوبي كان تجسيدا لأمانى المسلمين وآمالهم ، كما كان رمزا حيا للأخلاق الإسلامية ، ونبراسا يحتذى به أمراء المسلمين وحكامهم فى قوة عزمته وصلابة عزمه على الجهاد ، واستخلاص بلاد المسلمين من أيدي الفرنجة . وقد ساعده على ذلك تحسره من الوهم ، واحساس داخلى بأنه يمتلك القدرة دائما على استمراره فى الجهاد ، وتحمله كل المصاعب والمشاق حتى يعيد للأمة الإسلامية ما فقدته من مجد وكرامة بعدما سلبت منها بعض أراضيها وخاصة بيت المقدس .

ففى سبيل تحقيق الوحدة السياسية والمعنوية برهن صلاح الدين على ان التصميم الاخلاقى ، ووحدة الهدف ووضوح رؤيته يكونان القوة التى يمكن بها التغلب على جميع الصعوبات ، وتخطى كل العقبات (١) . بالاضافة

(١) سير هاميلتون جب : صلاح الدين ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ١١٨ (بتصرف) .

الى ذلك تكييفه للمواد الموجودة تحت يده وحسن استخدامها بطريقة ممتازة
تزيد من قدرته للتغلب على الصعوبات التى أوجدتها الظروف السياسية
لعصره (١) ، وبذلك أوجدت هذه الظروف وحدة معنوية قوية بين شعوب
الأمة الاسلامية ، فساعدته على الوقوف فى وجه التحدى أيا كان مصدره .

والى جانب ذلك فقد امتلك صلاح الدين الايوبى عناصر (صفات)
أخرى غدت دائما هذين العنصرين ، فمن أهم هذه العناصر استقامته مع
التقنيات الشرعية كما ينبغى أن تكون عليه سلوكيات الفرد المؤمن الذى
يتحلى بالايمان والشجاعة وحسن السياسة والصبر والحلم والعفة والمروءة .
مما جعل أعماله تجيء على مستوى أخلاقى أرفع وأميز من أعمال سابقيه
ومن جاءوا بعده .

ومن ناحية أخرى فقد كان دور صلاح الدين الايوبى استجابة للرأى
العام فى المجتمع الاسلامى ، حيث كان يبحث عن زعيم يتوفر فيه صفات
البطولة وعزم القيادة ، وتنسجم شخصيته وأعماله مع الظروف والمنهج المتبع
فى العصور الوسطى (عصور الايمان) ليتولى قيادة الأمة الاسلامية فى حركة
الجهاد ضد الصليبيين ، لاسيما بعد أن اكتشف المسلمون مدى فداحة الخطر
الصليبي ، وتواجد هؤلاء الصليبيين بينهم وفى بلادهم ، والذين كان همهم
الاول ، وهدفهم الاسمى هو القضاء على الأمة الاسلامية ، وبالتالي على دين
الاسلام .

وقد اشتملت هذه الدراسة على عشرة فصول ، عنى كل فصل منها
بجانب أو أكثر من جوانب الموضوع . حيث تعرضت فى الفصل الاول

(١) يحضرنى فى هذا المقام ما قامت به القيادة المصرية فى حرب
رمضان/اكتوبر ١٩٧٣ واستخدام ما عندها من عتاد وأسلحة أحسن استخدام ،
وكان هذا العتاد قليل جدا بالنسبة لما عند العدو الصهيونى ، وقد أدى ذلك
الى انتصار مصر فى هذه الحرب ، انتصارا مكلها من الدخول فى المفاوضات
وهى على جانب من القوة لمواجهة الصلف والكبرياء الاسرائيلى .

الى أحوال الشرق الأدنى السياسية قبل مجيء الحملات الصليبية اليه ، فقد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية في هذه المنطقة ثلاث قوى رئيسية متصارعة ومتناحرة هي الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في مصر ، وفي محيط هاتين القوتين ثم ظهور دويلات اسلامية كان لها أثرها المباشر في اضعافهما ، ومن أهمها ظهور الأتراك السلاجقة ، والأكراد التي قيلت عن أصولهم ، والدور الذي قاموا به في تقوية الخلافة العباسية حتى بدت وكأنها دولة قوية من جديد ، خصوصا بعد القضاء على البويهيين ، وقد ترتب على ذلك اعلان السلاجقة لموقفهم العدائي بصراحة ضد الخلافة الفاطمية ، مما دفع الخليفة العباسي على تشجيعهم وأقرارهم على ما فتحوه من بلدان ومدن ، ثم اعترف بدولتهم السلجوقية تحت راية الخلافة العباسية . هذا بالإضافة الى وجود طائفة الاسماعيلية الباطنية (الحشاشين) التي كانت معول هدم في كيان الخلافتين الاسلاميتين حيث استخدم الصليبيون هذه الطائفة أسوأ استخدام ضد القوى الاسلامية بصفة عامة ، وضد صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك بصفة خاصة .

والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة في تلك الفترة على مسرح الأحداث التاريخية في منطقة الشرق الأدنى كان من حسن حظ العالم الاسلامي ، لأنها كانت أسبق في الظهور من القوى الصليبية القادمة من الغرب الأوربي ، مما يجعل الصدام الحربي بين الجانبين أمرا محتما ، كما كان الصدام بينهم (السلاجقة) وبين الامبراطورية البيزنطية قائما يشهد بذلك ما أنزلوه من هزيمة منكرة بالبيزنطيين عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة ١٠٧١ م ، وما ترتب على هذه الموقعة من نتائج .

وعندما ضعفت دولة الأتراك السلاجقة قامت على أكتافها دولة الأتابكة وقد أشرت الى أهم الأتابكيات التي كان لها دور بارز في سياسة وتاريخ هذه المنطقة في فترة العصور الوسطى ، مثل أتابكية الموصل ودمشق وغيرها .

ثم تعرضت بالدراسة الى الحالة التي كانت عليها الخلافة الفاطمية في مصر ، وما انتهى اليه أمرها نتيجة للانقسامات المذهبية بينها وبين الخلافة العباسية في بغداد .

وفي هذا الفصل كذلك تناولت الدراسة الامبراطورية البيزنطية باعتبارها القوى المسيحية في الشرق ، والدور الذي لعبته في تاريخ منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، وخصوصا العلاقات بينها وبين المسلمين من جانب ، ثم بينها وبين المسيحيين الأوربيين (الصليبيين) من جانب آخر ، مع ذكر الأسباب والعوامل التي أحاطت بعلاقات كل مجموعة من هذه القوى الثلاث .

اما في القسم الثالث من هذا الفصل (الأول) فقد عالجت الدراسة موضوع الحملات الصليبية وأسبابها والدوافع اليها بايجاز ، نظرا لما يتناوله الكتاب من الحملات الصليبية المتعلقة بموضوع الدراسة بين فصوله .

وفي الفصل الثاني انتقلت الدراسة الى مصر والصراع عليها بين نور الدين محمود والصليبيين ، وبينت في هذا الفصل جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين استمرارا لخطة والده عماد الدين زنكي ، والحملات النورية الثلاث التي أرسلها بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وكان الهدف من حملات نور الدين على مصر ضمها الى جبهة الموصل وحلب ودمشق حتى يكتمل له استكمال تكوين الجبهة الاسلامية التي غرس بذرتها والده ، والتي رعاها بنفسه حتى انضمت واستقام عودها ، ليتمكن من مواصلة جهاده ضد الصليبيين وطردهم من الاراضي الاسلامية واستخلاص القدس الشريف من أيديهم .

وفي الفصل الثالث انصبت الدراسة على بطل هذه الحقبة التاريخية وهو صلاح الدين الأيوبي من حيث نشأته ، ثم الظروف السياسية في مصر والتي دفعت به الى أن يكون وزيرا في الخلافة الفاطمية ، ونهاية هذه

الخلافة ، ونشأة الدولة الأيوبية ، وما تلا ذلك من غزو بلاد النوبة وفتح بلاد اليمن والأسباب التي دعت الى عملية هذه الفتوحات ، ثم العقبات التي واجهت صلاح الدين في مصر وأسبابها ، وتغلبه عليها . وما كاد صلاح الدين الأيوبي يقضى على هذه العقبات حتى نشأ بينه وبين نور الدين محمود خلاف عرف في المصادر التاريخية باسم (الوحشة) ولولا أن القدر عجل بموت نور الدين محمود في هذه الفترة الحرجة فربما تغير مجرى الأحداث التاريخية في مصر بالنسبة للقائد البطل صلاح الدين .

أما الفصل الرابع فقد اشتمل على موقف صلاح الدين من استكمال تكوين الجبهة الاسلامية ، والضرورات التي جاءت الى الاستيلاء على ممتلكات البيت النوري ، فضم اليه دمشق وحماه وحارم وذلك بعد أن قام بعدد من الإصلاحات الداخلية في مصر ، حتى تكون الجبهة الداخلية التي يستند عليها قوية صلبة ، فأنشأ مؤسسات عسكرية ، ومدارس سنية ، ومستشفيات استعدادا للمواجهة الكبرى ضد الصليبيين .

وفي الفصل الخامس تعرضت الدراسة الى جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ، وكان لزاما التعرض للحالة التي كانت عليها الامارات الصليبية بعد أن تمكن صلاح الدين من تسوية مشكلة الحكم مع خلفاء نور الدين محمود وورثته . وكانت النتيجة الطبيعية لشعور صلاح الدين بقوته بعد استكمال استعداداته أن جرّ الصليبيين للدخول في موقعة حطين ، وتم له فتح طبرية وانزال أسوأ وأقسى هزيمة بالصليبيين ثم استولى بعد ذلك على مدن الساحل واسترد بيت المقدس ، وتم له النصر بعقد الصلح مع الصليبيين وشروط تسليم القدس الشريف .

أما الفصل السادس فقد تناول دراسة رد الفعل في الغرب الأوربي ، ومجىء الحملة الصليبية الثالثة وما نتج عنها حيث سقطت عكا في أيدي الصليبيين (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) وعقد الصلح بين الفريقين ، وقد أشارت الدراسة في هذا الفصل الى الموقف المؤسف الذي وقفه خليفة المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب حيث رفض أن يمد يد العون والمساعدة للقائد صلاح الدين

الأيوبى عندما استنجد به ، مما ألجأ صلاح الدين الى تدبير استحكامات المدن الساحلية حتى لا تقع فى أيدي الصليبيين . وقد وقفت الدراسة فى هذا الفصل عند صلح الرملة (سبتمبر ١١٩٢) والشروط التى تمت بمقتضاه .

وكان الفصل السابع خاصا بالحالة التى أصبح الأيوبيون عليها بعد وفاة صلاح الدين ، والصراع الذى استشرى فى البيت الأيوبي بين العادل وأبناء صلاح الدين واستمرار هذا الصراع الى أن يتمكن العادل من توحيد البيت الأيوبي ويستولى على السلطة فى مصر والشام . ولم تغفل الدراسة فى هذا الفصل جهاد الملك العادل ضد الصليبيين .

ذلك الجهاد الذى تميز بالسلبية والضعف أيام كثرة الاغارات الصليبية ، لأن الصليبيين كانوا قد انتهزوا فرصة الهدنة التى أمدها العزيز عثمان ، واعدوا ترتيب صفوفهم ، وتدفع الصليبيون من الغرب الأوروبى الى المدن الصليبية على الساحل ، وكان من حسن حظ الملك العادل أن الحملة الصليبية الرابعة قد توجهت الى القسطنطينية وكونت دولة لاتينية بها بعد أن سقطت عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وقد نتج عن سقوط الدولة البيزنطية أن دورها فى حراسة أوربا من البوابة الشرقية قد انتهى ، كما اجتذبت الدولة اللاتينية كثيرا من العناصر الصليبية فى الشام فرحلوا اليها وإلى بلاد اليونان ، مما دفع ملك بيت المقدس الصليبي الى طلب تجديد الهدنة من الملك العادل ١٢١٠م .

ومع سياسة الملاينة التى لجأ العادل اليها ، فقد دأب الصليبيون على مواصلة غاراتهم على بعض المدن الاسلامية مما اضطره فى نهاية الامر الى الخروج بعساكره حيث هاجم حصن الأكراد وأنزل هزيمة شديدة بالاستتارية ، كما هاجم طرابلس وأصاب من بها من الصليبيين بأضرار شديدة ، وأجبرهم على الصلح ، وقد شغلت هذه الدراسة الفصل الثامن كله .

أما الفصل التاسع فقد تناول الحملة الصليبية الخامسة ، والاسباب التى أدت الى مجيئها الى مصر ، وما أنزلته هذه الحملة من ضربات موجعة

بالمسلمين حتى استسلمت دمياط بعد صمود بطولى من أهلها ، وبعد حصار دام حوالى ١٧ شهرا . ومع ذلك فقد تمكن المصريون من استعادة المدينة من أيدي الصليبيين بعد أن أصيبوا بهزائم متلاحقة فى البر والبحر ، واضطروا أن يطلبوا الصلح وتم عقد الهدنة بين الجانبين لمدة ثمانى سنوات .

كان رد الفعل فى المجتمعات الصليبية فى المشرق الاسلامى والغرب الأوروبى كبيرا نتيجة لهذه الهزيمة المرة التى أصابت الحملة الخامسة ، ففكروا فى مجيء حملة جديدة ، منتهزين فرصة الخلاف الذى استجد بين أمراء البيت الأيوبرى بعد الانتهاء من الحملة الخامسة . وانتهاز فردريك الثانى هذه الظروف وأراد أن يسترضى البابوية عليه ، فقرر الخروج بحملة الى الأراضى المقدسة فى الشام ، واستغل فردريك ما بينه وبين الملك الكامل محمد من صداقة ، وأخذت الرسل والمكاتبات تصل بين الرجلين الى أن نجح فردريك فى اقناع الملك الكامل بالتنازل له عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية ، وعقد هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنين وستة شهور ، مما أثار المسلمين على الملك الكامل .

وعلى الرغم من سياسة اللين والمسالمة التى اتبعها الملك الكامل مع فردريك إلا أنه نجح فى رآب الصدع الذى أصاب الدولة الأيوبية فاستولى على دمشق وتوفى بها بعد ذلك .

وفى الفصل العاشر والأخير تناولت الدراسة ما أصاب الدولة الأيوبية من ضعف وتعرضت له أسبابه ، وللدوافع التى دفعت الملك الناصر داود الى الاستيلاء على بيت المقدس واسترداده من أيدي الصليبيين سنة ١٢٤٠م ، واستيلاء الصالح أيوب على الحكم فى مصر ، وأهم أعماله بها ، والنزاع الذى دب بينه وبين الملك الصالح اسماعيل - صاحب دمشق - الذى طلب المساعدة من الصليبيين ضده وضد الملك الناصر داود فى الأردن ، وأعطاهم وعدا باعطائهم بيت المقدس وإعادة المملكة الصليبية الى ما كانت عليه ، وكان رد الصالح أيوب على هذه الخيانة أن هاجم الصليبيين ومن تحالف

معهم من أمراء البيت الأيوبي وهزمهم عند غزة هزيمة مرة ، مما أعانه
بعد ذلك الى توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى .

كانت هزيمة الصليبيين عند غزة السبب المباشر لمجىء الحملة السابعة
الى مصر بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وتمكنت من احتلال دمياط
والبقاء فيها حوالى ستة شهور ، دار خلالها معارك ضارية بين الصليبيين
والمسلمين عند المنصورة أصيب المسلمون فيها بخسائر جسيمة ، ولكن مع
ذلك أمكن لهم انزال هزيمة أشد وأنكى بالصليبيين ، وأسروا لويس التاسع
نفسه ومعه كبار قواده ورجال حاشيته ، مما أجبرهم على طلب الصلح
وقبولهم دفع فدية مالية كبيرة لاطلاق سراح الملك لويس التاسع ، وقد انتهت
الدراسة بمقتل توران شاه بن الصالح أيوب ، وتولى شجر الدر سلطة مصر
وفشل الحملة الصليبية السابعة التى ظل الغرب الأوروبى يعد لها ثلاث سنوات
على أمل اخضاع مصر وانزال الهزيمة بها حتى يتمكنوا من استعادة بيت
المقدس ، ولكن لم ينجح تخطيطهم ، وانتهى بالفشل الذريع هدفهم ،
وخاب قصدهم . وهكذا تظل مصر على مر العصور مقبرة للغزاة .

وفى ختام هذه المقدمة أرجو أن يكون هذا الكتاب بصيصا من ضوء
ينير الطريق للوصول الى أمل منشود وهو وحدة الأمة الاسلامية أو توحيدها
فى مواجهة التطورات السياسية الجبارة والسريعة فى عصرنا هذا ، كما أرجو
أن يكون الله قد وفقنى فيما هدفت اليه فهو ولينا فى الدنيا والاخرة وهو
حسبنا ونعم الوكيل ،،،

مدينة المهندسين/العجوزة

٢٥ ديسمبر ١٩٨٩

المؤلف

دكتور / احمد الشامى

الفصل الأول

أحوال الشرق الأدنى السياسية قبل الحملات الصليبية

تعرضت منطقة الشرق الأدنى خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) الى عدة ظواهر سياسية كان لها اثر كبير فى تاريخها ، فقد تحكمت فى تاريخ هذه المنطقة وأثرت فى العلاقات بين بلدانها ثلاث قوى رئيسية هى :

أولا - القوى الاسلامية :

وتتمثل فى الخلافة العباسية فى بغداد ، وظهور دويلات اسلامية قوية فى المشرق مثل الدولة السامانية ، والدولة الغزنوية ، والدولة البويهية ، وظهور الأتراك السلاجقة الذين لعبوا دورا بارزا فى تاريخ هذه المنطقة وتاريخ العلاقات بين دولها وبين الامبراطورية البيزنطية من جانب ، وبين الغرب المسيحى من جانب آخر . وفى أعقاب الأتراك السلاجقة تظهر دولة الأتابكة على مسرح الأحداث التاريخية والسياسية فى هذه المنطقة ، ومن خلال دولة الأتابكة يظهر صلاح الدين الأيوبي على المسرح التاريخى ، حيث تصل العلاقات بين المسلمين والصليبيين الى نقطة حاسمة هى استرجاع المسلمين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين ، فتكون بداية النهاية لهذه العلاقات التى ستنتهى تماما فى أواخر عصر دولة المماليك فى مصر .

بالاضافة الى ذلك كانت هناك خلافة فاطمية شيعية فى مصر ، يمتد ملكها الى أجزاء من مدن الشام ، وقد أدى اختلاف المذاهب الدينية بين الخلافتين العباسية والفاطمية الى وجود بعض الجماعات المتطرفة ، مثل طائفة الاسماعيلية الباطنية ، التى لعبت دورا يكاد يكون مستترا وخطيرا فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة ، وبالتالي أدى الى

انحدار في العلاقات بين الدول الاسلامية ، وكان عاملا من عوامل الضعف والاضمحلال الذي أصابها .

ثانيا - القوى المسيحية في الشرق :

ونعنى بها الامبراطورية البيزنطية والصراع المستمر بينها وبين القوى الاسلامية للحفاظ على نفوذها ، وتوكيد سلطانها على المناطق التي كانت بأيدي المسلمين ، والتي كانت تحيط بحدود الامبراطورية أو بممتلكاتها ، سواء من جانب الخلافة العباسية في أعلى ما بين النهرين (الجزيرة) ، أو من جانب الخلافة الفاطمية في مصر وممتلكاتها في الشام .

ثالثا - القوى المسيحية في الغرب الأوربي :

وهذه قد اندفعت الى الشرق الاسلامي بحملاتها الصليبية لأسباب ودوافع متعددة ، ونجحت في الاستقرار في هذه المنطقة ، وكونت لنفسها أربع إمارات هي الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس . وقد أدى وجود القوى الصليبية هذه الى ازدياد حدة الصراع ، وتذبذب العلاقات وتشابكها من جوانب متعددة ، مما كان له أثره البارز في تاريخ العلاقات بين المسلمين وبين المسيحيين شرقيين وغربيين .

فاذا ما تناولنا الظاهرة الأولى وهي القوى الاسلامية بالدراسة نجد أن الخلافة العباسية كانت في مرحلة من الضعف ظاهرة ، وأصبح الخلفاء العباسيون العوي في أيدي الأمراء من البويهيين ومن الأتراك السلاجقة ، وكثرت الثورات وتعددت في مناطق مختلفة في الدولة ، وانتشرت حركات مذهبية متباينة في اتجاهاتها الدينية بسبب جذورها الفارسية أو للاختلاف السياسي فيما بينها ، مما سبب القلق والاضطراب ، وأصبح من أهم أسباب ضعف الدولة الاسلامية ، ونتج عن ذلك ظهور وحدات سياسية مستقلة على حثنا بوحدة الدولة وتماسكها ، ففي المشرق ظهرت الدولة الطاهرية في

خراسان (١) ، ثم الدولة الصفارية (٢) ، والدولة السامانية (٣) ، والدولة الغزنوية (٤) ، وفي المغرب ظهرت دولة الأدارسة ، ثم دولة الأغالبة في تونس (٥) ، كما استقلت مصر عن الخلافة العباسية في عهد الطولونيين (٦) ، ووقع الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك الذين كان لهم النفوذ الفعلى في الدولة بفعل هيمنتهم على قيادة الجيش ، وإدارة الدولة ، وإحاطتهم بالخلفاء .

وزاد أمور الدولة سوءاً أن تدخلت بعض النساء التركيات في تصريف شئونها ، مثل أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م) التي سميت بالسيدة لسطوتها وسيطرتها على شئون الحكم ، لدرجة أن عينت نهرمانتها - وصيفتها - (ثومال) صاحبة المظالم ، فكانت تجلس في الرصافة ، وتتنظر في رقاع الناس كل جمعة ، وتحضر الأعيان والقضاة في مجلسها ، وتوقع هي على المظالم ، فاستهتر العامة من الشعب بالخلافة ، وانظروا الى تلك الأحكام نظرة احتقار وازدراء ، وقد سجل لنا ابن طباطبا (٧) ذلك في قوله : « وأعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط ، كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه ، فكانت دولته تدور أمورها على

-
- (١) نسبة الى مؤسسها طاهر بن الحسين ، وكانت بدايتها سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م وبقيت الى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م .
 (٢) أسسها يعقوب بن الليث الصفار ، وخلفت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م وظلت حتى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٢ م .
 (٣) نسبة الى سامان ، وهو نبيل فارسي انحدر من بهرام جوبين ، وبقيت من سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م الى ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م .
 (٤) أسسها محمود الغزنوي ، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م الى سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م .
 (٥) ينسبون الى الأغلب بن سالم بن عقال ، راجع دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٧٩٣ .
 (٦) نسبة الى أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) .
 (٧) الفخرى ، ص ٢٤٠ .
 (م ٢ - صلاح الدين)

تغير النساء ، فخربت الدنيا أيامه ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، ثم أعيد ، ثم قتل » .

وكان لظهور البويهيين أثره في إضعاف الخلافة العباسية ، فقد استأثروا بالتفوذ والسلطة دون الخليفة العباسي ، منذ أن تولى عماد الدولة على بن بويه الحكم في بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م (١) ، وظلوا يسيطرون على مقدرات الدولة ، ويتصرفون في شئونها ، فأمر الأمراء في العصر البويعي كان يتحمل كل المسؤولية ، والخليفة لم يكن مسؤولاً قط عن الخزنة ، ولا عن الإدارة المالية ، ولا عن الجند ، ولا عن السياسة ، وإنما هو الذي يعطى كل تصرفات البويهيين صفتها الشرعية ، حتى ظهروا وكأنهم أوصياء على الخلفاء العباسيين ، وأضحى الخليفة رمزا لا يتولى من حقيقة السلطان شيئا قابلا لأن ينازعه أحد عليه .

ومن الدلائل على عجز الخليفة العباسي ، وعدم قدرته على الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية أن أهل البصرة ثاروا ، وأخرجوا منها نواب بهاء الدولة البويعي ، وكان للآتراك دور كبير في تحريك هذه الفتنة وأشعال الثورة ، وتمكن الآتراك بزعامة قائدهم يشكرستان أن يستقلوا بالبصرة ، وأن يقتلوا من أهلها الكثير ، وأن يسلبوهم كثيرا من أموالهم . وعلى الرغم من محاولة بهاء الدولة البويعي إخماد هذه الفتنة ، إلا أن الدلائل تشير إلى ضعف الدولة العباسية ، وقصور قوتها العسكرية عن حفظ وحدتها ، وعجزها عن استتباب الأمن فيها (٢) .

كذلك ثار أهل الموصل وتمكن المقلد العقيلي (٣) من استمالة البويهيين (الديلم) ، وكاتب بهاء الدولة على أن يضمن له البلد بألفي دينار ، ورضم

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٣٩٥-٣٩٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٣) كان فاطميا شيعيا ، أظهر الدولة العلوية بالكوفة والموصل

والأنبار ، راجع ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٣ ص ٤٤٢ .

ذلك فان رجال المقلد العقيلي أغاروا على بغداد ، وطلب بهاء الدولة الصلح مع المقلد العقيلي بشرط أن يدفع له عشرة آلاف دينار ، وقبل العقيلي ذلك في مقابل أن 'يقطع الموصل والكوفة ، وأن 'يخلع عليه ، ويلقب بحسام الدولة ، وبعد أن تم الصلح لم يف بشيء من ذلك .

كما شهدت بغداد عاصمة الخلافة الواثنا من الفتن بين أهل السنة والشيعة الذين قويت شوكتهم وناصروا الفاطميين ، ففي عام (٣٩١هـ/١٠٠٠م) ثار الأتراك على أبى نصر سابور نائب السلطان فهرب منهم ، ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ ، فساعد السنيون اخوانهم الأتراك على أهل الكرخ فقتلوا منهم خلقا كثيرا (١) . ثم تجددت هذه الفتن سنة (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) في عهد القائم بأمر الله ، وانتهت بقتل جموع من أهل الكرخ ، وخربت أسواق العروس والصفارين والنميط والدقاقين وأحرقت (٢) .

ولم تكن هذه الفتن وهذه الثورات تحدث فيما بين السنة والشيعة فقط ، بل حدثت كذلك فيما بين الشيعة وأنفسهم ، وعانت بغداد الكثير من جراء هذه الصراعات ، فبعد موت بهاء الدولة السويهي خلفه سلطان الدولة شجاع فاسند ولاية البصرة الى أخيه جلال الدولة أبى طاهر ، ويبدو أن بنى بويه لم يستريحوا الى شخصية سلطان الدولة ، فأوقعوا بين الاخوة ، وزادت حدة الصراع عندما دخل الأخ الثالث قوام الدولة أبو الفوارس في دائرة هذا الصراع (٣) . وكان من نتيجته أن ضعفت دولة بنى بويه ، وتمزقت أوصال الجيش الاسلامي ، وانشغل الجنود بالحروب الداخلية التي هدت كيان الدولة ، ونخرت عظام الجيش ، وأصابت الجنود بالياس والضعف ، لدرجة أن اطفال بنى بويه تولوا عرش السلطنة في بغداد .

وبلغت درجة الضعف التي وصل اليها الخلفاء العباسيون في هذه الفترة

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ١٦٨ .
 - (٢) ابن الأثير : نفسه ، ص ٤١٨-٤١٩ .
 - (٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٤٤٣ .

ان الخليفة القادر بالله حلف لوزيريه بهاء الدولة البويهى على الوفاء الاخلاص ، واشهد على نفسه أنه قلده ما وراء بابه (١) ، أى فوضه فى الحكم . كل ذلك مقابل أن بهاء الدولة حلف للخليفة الذى ولاه الوزارة على الطاعة ، والقيام بشروط البيعة ، وهذا أمر يتحتم على كل وزير أو أمير فى الدولة أن يعمل بهما ، كما تنص على ذلك التشريعات الفقهية ، والنظم الاسلامية ، ومن ثم ازداد نفوذ بهاء الدولة ، فاستبد بالسلطة ، واستشعر الناس نفوذه وسطوته ، لأنه هو الذى أجلس الخليفة فى دست الخلافة ، ولذلك حلف الخليفة له على الولاء والاخلاص .

ولم يكتف سلاطين بنى بويه بمثل هذه السيطرة واتساع نفوذهم الى هذا الحد ، بل تمادوا فى اساءتهم للخلفاء ، فقد كانوا يحددون للخليفة راتباً يسلم له يومياً يسمى (مياومة) كما لو كان عاملاً أو أجيراً ، ومع كل ذلك فلم يسلم الخليفة فى بعض الأحيان من مصادرة ممتلكاته ، وكانت تسلب داره ، ويؤخذ ما فيها من نفائس (٢) . وهذا يفسر لنا الى أى حد وصل ضعف الخلفاء العباسيين ، وإلى أى مدى وصلت سيطرة بنى بويه عليهم وتحكمهم فى أمورهم وأمور الدولة معاً ، ويعبر ابن خلدون (٣) عن استبداد بنى بويه بالسلطة والنفوذ فى عهد العباسيين فيقول : « ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضايق شيئاً فشيئاً وأهل الدولة يستبدون واحداً بعد واحد الى أن أحاطوا ببغداد ، وصاروا ولاية متعددين ، وكان من أقرب المستبدين الى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس والموصل والجزيرة ، ولم يبق للخلفاء الا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات » .

والحقيقة أن آراء المؤرخين تختلف فى تبين العلاقة ما بين بنى بويه ، وبين الخلفاء العباسيين ، فأكثر المؤرخين يميلون الى القول بأن البويهيين

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٨١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٦١ .

(٣) تاريخ ، ج ٣ ص ٤١٩ وما بعدها .

أذلوا الخلفاء بسبب اختلاف المذهب الدينى ، فالعباسيون سنيون ، بينما البويهيون شيعة علويون . وأنهم سلبوهم سلطانهم وجعلوا منهم العوبة فى أيديهم ، يجلسونهم على عرش الخلافة متى شاءوا ، ويعزلونهم متى أرادوا . ففى عام ٣٨١هـ / ٩٩١م قبض بهاء الدولة البويهى على الخليفة العباسى الطائع لله وخلعه من الخلافة ، وبايع للقادر بالله ، وسلمه الخليفة المعزول (الطائع) ، فأنزله القادر بالله حجرة خاصة ، ووكل به بعض خدمه ممن يثق فيهم ليقوموا على خدمته ، وأحسن ضيافته (١) . وهكذا لم يترك بنو بويه للخلفاء العباسيين سوى ذكر أسمائهم فى الخطبة ، ونقش أسمائهم على السكة كرمز للخلافة .

ويحاول نفر من المؤرخين تبرئة البويهيين والتماس الأعذار لهم ، باعتبار أنهم ورثوا ذلك الوضع الذى كانت عليه الخلافة العباسية ممن سبقوهم ، ولم يكن لهم يد فيما وصلت اليه أمور الخلافة فى بغداد (٢) ، وكل الذى زاد عليهم هو لقب شاهنشاه أو (ملك) الذى أضفوه على أنفسهم ، ويبدو أن جلال الدولة البويهى أراد أن يحصل على فتوى تجيز للبويهيين أن يتلقبوا بهذا اللقب (شاهنشاه = ملك الملوك) وطلب ذلك من الفقيه الشافعى الساوردى - صاحب كتاب الأحكام السلطانية - فرفض اصدار مثل هذه الفتوى ، وأفتى ضد هذا اللقب ، ولكن جلال الدولة حصل على الفتوى من فقهاء آخرين (٣) .

ويستند أصحاب هذا رأى الى أن الخليفة العباسى الراضى قد ألجأته الضرورة الى انشاء منصب أمير الأمراء عندما ارتبكت أحوال الخلافة فى عهده ، وكتب الى أبى محمد بن رائق وهو بواسط بموافقته على ما تقدم

(١) ابن الأثير . الكامل ، ج ٩ ص ٩٢ ، ٩٤ .
(٢) حسن محمود : العالم الاسلامى ، ص ٥١٨-٥٢١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٤٥٩ .

به اليه من دفع النفقات وأرزاق الجند ببغداد (١) ، ومن الطبيعي كانت فرصة لابن رائق أن يسيطر على أمور الدولة ، فتوجه الى الخليفة الراضى فى احتفال كبير ، ورحب الخليفة به ، وقلده امارة الجيش ، وجعله امير الامراء ، فأخذ ابن رائق يصرف شئون الدولة كلها هو وكاتبه ، وتوقف عمل الوزارة ، وبطلت الدواوين ، وصارت الاموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة ما يرون ، وبطلت بيوت المال .

والحقيقة التى نراها أن البويهيين أمسكوا بالعصا من منتصفها - كما يقول المثل - فهم انتزعوا كل سلطات الخليفة ، وتسلطوا على شئون الدولة ، ولكنهم تظاهروا باحترامه أمام عامة المسلمين وقد مكنتهم سياستهم هذه من أن يعلنوا مذهبهم الشيعى الزيدى الذى يعتنقونه ، بينما هم يعيشون فى ظلال دولة سنية المذهب ، وتم لهم ذلك على يد بهاء الدولة البويهى سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٨م) (٢) .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن البويهيين هم الطائفة الشيعية الوحيدة التى وامت نفسها لتعيش مع أهل السنة فى سلام ، وبدون نزاع مذهبى ، ويستدلون على ذلك برسائل صاحب ابن عباد (٣) ، وبمعايشة المذهب الشيعى الزيدى ، مع المذهب السنى أصبح الخليفة العباسى خليفة لأهل السنة وأصحاب المذهب الشيعى على حد سواء .

ولكن ينبغى ألا ننسى أن البويهيين كثيرا ما كانوا يحدثون الشغب ، ويحركون الفتن ، بدليل ما تذكره المصادر التاريخية « ... فشغب الجند فى هذا الوقت ، وتجددت الفتن ، وغلت الأسعار ببغداد ، وتعرض القضاة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ص ١١٢ .

(٢) Arnold; The Caliphate, p. 68.

(٣) راجع الرسالة الخامسة من الباب السادس ص ٩١ ، الرسالة

السادسة ص ٩٢-٩٤ .

ورجال الدولة للسجن والاهانة والتعريض بهم ، وزالت هيبة السلطنة ، واحترقت المحال ، واستمر الفساد «(١) ، ومن الراجح أن البويهيين شغبوا نظرا لاشتداد سطوة الأتراك وزيادة نفوذهم وتسلطهم في بغداد لدرجة أنهم ثاروا على جلال الدولة البويهى وعزلوه سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) ، وأسقطوا اسمه من الخطبة ، واستدعوا أبا كالمار ليتولى السلطنة في بغداد ، ولكنه رفض ، فأعادوا جلال الدولة البويهى الى منصبه (٢) ، وكان من الطبيعى أن يعمل جلال الدولة على المحافظة على مركزه في السلطنة ، فلجأ الى عزل الوزراء البويهيين بعد فترات قصيرة كما حدث مع أبى القاسم بن مأكولا ، واعتزال أبى سعيد بن عبد الرحيم وغيرهما . وتلك دلائل صريحة على تخطيط سياسة البويهيين ، وعجز الخليفة العباسى عن اتخاذ موقف حازم ينهى به العنف والفوضى اللذين أشاعهما البويهيون في بغداد .

واستعمل البويهيون البساسيري (٣) على بغداد ، ليقضى على الفوضى التى انتشرت في المدينة ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل ازدادت الفوضى وخرج الجنود سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) يعيثون فسادا في القرى المجاورة للمدينة ، ينهبون ويحرقون ويسلبون كل ما وجدوه في طريقهم من مال ومتاع (٤) . ولم يكتف هؤلاء الجنود بذلك ، بل ساعدوا العيارين حتى استفحل أمرهم ، وأخذوا يستولون على الأموال ليلا ونهارا ، ووقفوا ضد السلطان البويهى ونوابه ، وعجز السلطان عن التصدى لهم ، كما انتشر

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٩١ .

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٤٤٨ .

(٣) هو الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ، مقدم الأتراك في بغداد ، راجع القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٧ ، وكذلك ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ص ٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٤٤٠ ، ابن خلدون : نفسه ص

الاجراب في البلاد فنهبوا النواحي ، وقطعوا الطرق ، وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وسلبوا النساء ملابسهن في المقابر (١) .

واصل البويهيون مسيرتهم في شئون الدولة على هذا النمط الى أن ضعف البيت البويهي لعدم احتفاظهم بتضامنهم الذي كانوا عليه ، فنزع الى الاستقلال كل فرد منهم ممن آل اليه جزء من هذا الملك ، واعتبر أن ما بيده ملكا خاصا موروثا ، فتهدمت أركان المصلحة العامة للدولة ، وتفسخت أعمدة التضامن التي قام عليها حكم أسرة بني بويه . فبعد وفاة جلال الدولة البويهى سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٤م) أخذ النفوذ الديلمي في الانحسار ، فقد تولى ابنه الملك العزيز بعده ، ولكنه عجز عن دفع رواتب الجند ومال البيعة ، فسحب الجنود تأييدهم له ، واستدعوا أبا كاليجار الذى ولى سلطنة بغداد سنة (٤٣٦هـ/١٠٤٥م) ، ولكن حكمه لم يدم طويلا ، فخلفه ابنه أبو نصر ابراهيم الملقب بالملك الرحيم (٢) ، فكان آخر سلاطين البويهيين ، حيث دخل السلاجقة بغداد في عهده سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) .

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ح ٣ ص ٤٦٤ .
(٢) يذكره البعض أبو نصر خسرو ، وفيروز - راجع عاشور : الحركة الصليبية ح ١ ص ٨٠-٨١ .

ظهور الأتراك السلاجقة

ينتسب السلاجقة الى قبيلة (قنق) وهى احدى القبائل الأربعة والعشرون التى تمثل قبائل التركمان المعروفة باسم (الغز) (١) . وينكر الدوادارى (٢) عليهم هذا النسب ، ويقول انهم من السامانية ، وترجع أصولهم الى الفرس ملوك العجم ، ونحن نرجح القول الأول . كانوا يسكنون السهوب الممتدة من شواطئ بحر الخزر الى الصين . وقد اكتسب السلاجقة اسمهم عندما ظهر سلجوق (٣) بن دقاق (٤) فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وعمل على توحيد هذا الفرع من الغز ، ونجح فى ذلك فانتسبوا اليه (٥) ، وسموا أنفسهم السلاجقة . ثم رحلوا من موطنهم الأصلى الى بلاد ما وراء النهر فى بداية الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى (حوالى ٩٨٥ م) (٦) .

وفى بلاد ما وراء النهر (على حدود نهر سيحون) اعتنق السلاجقة الاسلام (٧) على مذهب أبى حنيفة النعمان ، ويبدو أنهم تأثروا فى ذلك بجيرانهم السامانيين . وكان سلجوق شديد الغيرة على الاسلام ، فاندفع يحمى المسلمين من القبائل التركية غير المسلمة فى المناطق المجاورة له ، فذاع صيته ، وكثر أتباعه ، وازدادت قوته بشكل ظاهر ، مما لفت نظر

-
- (١) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٣-٢ .
(٢) ابن أبيك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٠-٢١ .
(٣) سلجوق : ومعناها قائد الجيش ، وهو لقب سياسى ، توفى ببند وعمره ١٠٧ سنة .
(٤) دقاق ، تقاق : ومعناه القوس الجديد ، وأبناء سلجوق ثلاثة هم : ارسلان وميكائيل وموسى ، وأبناء ميكائيل ثلاثة هم : بيجو ، طغرل محمد ، وجفرى داود .
(٥) دائرة المعارف (مادة سلجوق) ،
Lewis; The Arabs in History, p. 147.
(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ وما بعدها .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٤٧٤ .

السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ، فخشى على نفسه وعلى نفوذه ، فبدأ يعد العدة للتخلص من هذه القوة المنافسة له ، ولكنه توفي ، وترك لابنه السلطان مسعود القيام بهذه المهمة ، ويبدو أن السلاجقة شعروا بما تدبره لهم الدولة الغزنوية فرحلوا الى اقليم بخارى ، وظلوا تابعين للغزنويين (١) ، ولكنها كانت تبعية غامضة ، الى أن ثاروا عليهم بقيادة زعيمهم طغرل بك محمد ، الذي أنزل بجيش مسعود الغزنوي هزيمة منكرة ، ولم يلبث السلاجقة أن استولوا على نيسابور ومرو وسرخس بعد معركة (دندانقان) سنة ٤٣١هـ / ١٠٣٩م (٢) ، وتقلص نفوذ الغزنويين وأصبح قاصرا على أفغانستان . وقد ساعد السلاجقة على هذه الانتصارات انشغال الغزنويين بفتوحاتهم الجديدة في الهند (٢) ، الى جانب شدتهم في الحرب .

واصل السلاجقة - بعدما قضوا على الغزنويين - توسعهم ، وتوغلوا في ايران للقضاء على نفوذ بني بويه (الديلم) فيها ، ونجحوا في الاستيلاء على عدة مدن من ضمنها أصبهان ، التي اتخذها طغرل بك عاصمة له سنة (٤٤٣هـ / ١٠٥١م) (٤) ، وفي خلال أربع سنوات تمكن السلاجقة من بسط نفوذهم على بلاد القرس ، وأصبحوا على أهبة الاستعداد لدخول العراق (٥) .

تفاقم الموقف بين آخر ملوك البويهيين في بغداد ، وهو الملقب بالملك الرحيم ، وبين السلاجقة سنة (٤٤٧هـ / ١٠٨٤م) ، ولم يجد السلاجقة إلا أن يقضوا على ما بقى من الوجود البويهى في بغداد ، ونجحوا في ذلك بعد حكم استمر خمسا وعشرين ومائة سنة للبويهيين . وبدخول السلاجقة بغداد

-
- (١) ابن الأثير : نفسه ، ج ٩ ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ، عاشور : العلاقات ص ٣٥ .
(٢) البيهقي : تاريخ ، ص ٦٨٩ - ٦٩٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٤٨٥ .
(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ص ١٥١ ، الذهبي : دول الاسلام ، ج ١ ص ٢٦١ .
(٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ .

بعد أن قضوا على قوة البويهيين التي كان لها وزنها وتأثيرها في توجيه دفعة الحكم والسياسة ، ليس في العراق فحسب ، بل في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة من العصور الوسطى ، تغير ميزان القوى تغييرا جذريا ، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العالم الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ الدولة العباسية بصفة خاصة ، حيث يصبح السلاجقة قوة تستند اليها الخلافة العباسية ، لانهم يعتنقون المذهب السني ، نفس مذهب العباسيين ، وسوف يكون لهذه القوة الجديدة تأثيرها وأثرها في مجرى الأحداث التاريخية والسياسية في المحيط الدولي .

واصل طغرلبيك سيره لاختضاع ما تبقى من معاقل تابعة للبويهيين ، فاجتتم البساسيري هذه الفرصة ودبر مؤامرة مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، واستولى على بغداد سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ورفع الأعلام الفاطمية بها ، وخطب للمستنصر في مساجد بغداد ، فاستنجد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالسلاجقة ضد البساسيري ، فعادوا الى بغداد ودخلوها سنة (٤٥١هـ/١٠٥٩م) (١) ، وقضوا على هذه الفتنة ، وقتل البساسيري حيث ضربت عنقه بعدما أعيد الخليفة العباسي الى بغداد (٢) بعد عام من حكم البساسيري لها .

بعد أن استقرت الأمور في بغداد عاود طغرلبيك قتال بقايا البويهيين ففرض عليهم وعلى دولتهم ، وأعلن السلاجقة طاعتهم وولاءهم الكامل للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وعبروا بصراحة عن موقفهم العدائي من الخلافة الفاطمية في مصر ، فتوثقت صلاتهم بالخليفة ، وأخذ يعمل على تأييدهم ، ويقرهم على كل ما فتحوه من بلدان ، واعترف بدولتهم لأنهم كانوا سنيين مثله ، وتبادل الجانبان الصلات الودية والهدايا ، وأمر الخليفة بذكر اسم طغرلبيك بعد اسمه في خطبة الجمعة على منابر بغداد ، ونقش اسمه على

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٨ ص ١٦٤ .

(٢) الفارقي : تاريخ ، ص ١٥٦-١٥٧ .

السكة (١) . وبذلك حل السلاجقة محل البويهيين وأصبحوا كما لو كانوا أوصياء على الخلافة العباسية ، فدفعهم هذا الى أن يضموا اليهم بلاد الفرس ، والجزيرة ، وآسيا الصغرى ، ومناطق كثيرة في الشام التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية في مصر . ومن ثم بدت الدولة العباسية في عهد السلاجقة وكأنها دولة قوية موحدة الأملاك من جديد ، وسوف يكون لذلك أثره في التغييرات السياسية والعلاقات الدولية التي حدثت نتيجة لظهور السلاجقة ودخولهم بغداد .

الدولة البيزنطية والأتراك السلاجقة

والحقيقة ان ظهور الأتراك السلاجقة - في تلك الفترة - على مسرح الأحداث التاريخية كان فاتحة عصر جديد ، ليس في التاريخ الاسلامى فحسب ، بل في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام (٢) ، أو بتعبير أدق تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى ، ومن الواضح ان ظهور الأتراك السلاجقة في تلك الفترة كان من حسن حظ العالم الاسلامى ، لأنهم كانوا أسبق في الظهور من قوة أخرى ، سوف تظهر وتسيطر هى الأخرى على أجزاء كثيرة من بلدان هذه المنطقة ، وسوف يتصدى الأتراك السلاجقة لهذه القوى ، ونعنى بها قوى الصليبيين الذين اتجهوا بحملاتهم صوب الشرق الأدنى ، ومن الراجح أنه لو قدر للصليبيين أن يتقدموا في الظهور على السلاجقة لتغير وجه التاريخ .

واصل السلاجقة توسعاتهم خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فضموا اليهم ما تبقى من أراضى فارس ، وتوغلوا الى بلاد ما بين النهرين (٣) حتى وصلوا الى حدود الأفغان شرقا ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٦٤٠ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٩ .

(٣) Cam. Med. — Hist. Vol. IV, p. 299.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٤٥٢-٤٥٣ .

وحدود الامبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية غربا ، وقد برز من سلاطين السلاجقة الأول ثلاثة عظام هم : طغرل بك محمد ، والى أرسلان ، وملكشاه ، وهؤلاء اتبعوا فى سياستهم الخارجية أسلوب القوة القائم على الحرب ، وخاصة مع الامبراطورية البيزنطية ، التى أحرزوا عليها كثيرا من الانتصارات الحربية ، ومن أهمها النصر الذى أحرزه اللى أرسلان على الامبراطور البيزنطى رومانوس دايوجينيس الرابع فى الموقعة الفاصلة عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة (٤٦٤هـ / أغسطس ١٠٧١م) (١) .

وترجع أسبابها الى أن الامبراطور رومانوس الرابع كان قد خرج سنة (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) الى بلاد الشام فى عسكر كثيف ، ونزل على منبج ونهبها ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وتصدت له جموع العرب فى الشام فهزمهم ، وضرب على المدينة الحصار ، فطالت مدته ، وقلت الأقوات عند البيزنطيين ، فرجع الى القسطنطينية ، وحشد جنوده حتى بلغت مائتى ألف جندى من الزنج والروم والروس والبجناك والكرخ والفرنج ، وغيرهم ، وخرج فى احتفال مهيب الى خلاط ، ومنها وصل الى ملاذكرد (مانزيكرت) . وكان السلطان اللى أرسلان بمدينة خوى من أذربيجان بعد عودته من حلب ، فارسل أهل بيته مع وزيره نظام الملك الى همذان ، وسار على عجل فى جيش لم يزد تعداده عن خمسة عشر ألف جندى (٢) ، والتقت مقدمة جيشه عند خلاط بجزء من جيش رومانوس ، وكانوا عشرة آلاف جندى من الروس ، فأصيبوا بالهزيمة ، ووقع أميرهم أسيرا ، فأمر اللى أرسلان بحبسهم .

وصل اللى أرسلان بجيشه الى مانزيكرت يدفعه حرارة وحماس النصر الذى أحرزه عند خلاط ، ولكنه عندما رأى الأعداد الرهيبة فى جيش رومانوس

(١) Cam, Med. — Hist. Vol. IV, pp. 306-7. وتقع مانزيكرت الى الشمال من بحيرة فان Van ، وهى مدينة من أعمال خلاط .
(٢) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٤٧٠-٤٧١ .

لجأ الى طلب الصلح ، فأبى الامبراطور البيزنطى وأصر على القتال ،
فثارت حمية ألـب أرسلان ، وبث فى جنوده روح الاستماتة فى القتال وشجعهم
على الصمود ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين شديدة صارمة ، وسقطت
الآلوف من الروم قتلى حتى امتلأت الأرض بجثثهم (١) ، كما استشهد عدد
كبير من المسلمين ، ووقع الامبراطور رومانس الرابع نفسه أسيرا ، فوجه
ألـب أرسلان اليه التأييب والتوبيخ ، ولكنه قبل الفدية الكبيرة التى اقتدى
الامبراطور رومانوس نفسه من الأسر بها ، بعد أن اشترط عليه اطلاق جميع
أسرى المسلمين الموجودين فى بلاد الروم (٢) .

النتائج التى ترتبت على موقعة مانزىكرت :

تعتبر موقعة مانزىكرت نقطة تحول خطيرة فى التاريخ البيزنطى ،
حيث ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية . وعدم
قدرتها على الصمود أمام التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى . ويرجع
السبب فى ذلك الى أن جيش الامبراطورية البيزنطية كان فى معظمه من
الجنود المرتزقة ، الذين يحاربون لمغانمهم ولمصلحتهم الشخصية بغض النظر
عن مصلحة الدولة البيزنطية . وليس أدل على ذلك من أن كتيبة الجنود
الأتراك فى الجيش البيزنطى حينما رأوا أن القتال مع صالح الأتراك
السلاجقة انحازوا اليهم بدافع عصبية الدم (٣) ، وتركوا مواقعهم فى الجيش
البيزنطى مما سبب الارتباك ، وكان من عوامل الهزيمة .

وتعتبر موقعة مانزىكرت سنة ١٠٧١م دليلا على نهاية الدور الذى كانت
تقوم به الدولة البيزنطية لحماية المسيحية من ضغط المسلمين ، وحراسة
المدخل الشرقى لأوروبا من غزوات الآسيويين ، وبذلك أصبح الغرب الأوروبى

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٦٥-٦٦ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٨٨ ، توفيق : الدولة
البيزنطية ، ص ٧٤ .

(٣) عاشور : العلاقات ، ص ٤٤ ،

Vasiliev; A History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 356.

ملزما بأن يقوم بدوره في هذا المضمار ، بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الامبراطورية البيزنطية (١) ، وهكذا نجد أن السلاجقة نفخوا في العالم الاسلامى بمنطقة الشرق الأدنى روحا جديدة مكنت الخلافة العباسية من الصمود في وجه الروم ، بل مهاجمتهم في عقر دارهم ، وقد عبر ابن الاثير (٢) عن ذلك بقوله : « فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس ، لاسيما في وزارة نظام الملك (٣) ، فانه أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها » ومن نتائجها كذلك تقلص ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في جنوب ايطاليا ، فقد وجد النورمان الذين استقروا في المدن البيزنطية بجنوب ايطاليا منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى الفرصة متاحة لهم للاستيلاء على هذه المدن ، فتحالفوا مع البابوية ، وتمكنوا بقيادة (روبرت جيسكارد) من وضع أيديهم على ممتلكات الدولة البيزنطية في ايطاليا ، ولم تنجح محاولات جورج ماتياكس الحاكم البيزنطى في ايطاليا في وقف هذا التقدم النورمانى ، وكانت مدينة بارى الواقعة في أقصى جنوب شبه الجزيرة الايطالية آخر المدن ، التى استولى النورمان عليها ، وتم لهم ذلك في نفس الوقت الذى أصيبت فيه جيوش بيزنطة بالهزيمة المرة في ملاذكرد سنة ١٠٧١ م .

وبعد موت ألب أرسلان سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) (٤) ، تولى أخوه ملكشاه الحكم (٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) فاستغل فرصة الارتباك والفوضى اللتان غرقت فيهما الدولة البيزنطية نتيجة لهزيمتها في موقعة

(١) عاشور : نفسه ص ٤٥ .

(٢) الباهر ، ص ٥١ .

(٣) هو أبو الحسن بن اسحق الطوسى ، كان سنيا متشددا ، يميل الى العدل والنصفة والاحسان الى أهل الدين ، والفقهاء ، وحفظه القرآن ، والعلماء ، مما أغضب الشيعة فقتلوه في خريف عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، راجع ابن القلانيس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ ، وكذلك ابن العبرى : مختصر ، ص ١٩٢ .

(٤) قتل ألب أرسلان أثناء هروبه من بلاد ما وراء النهر (جيحون) .

مانزيكرت واللتان استمرتتا حتى اعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية
سنة ١٠٨١م (١) ، وأخذ ملكشاه يتوسع في آسيا الصغرى دون أن يجد
مقاومة تذكر .

ومن الطبيعي أن تغرى حالة الفوضى التي كانت عليها الدولة البيزنطية
الجنود السلاجقة الى أن يعيثوا فسادا في المدن البيزنطية ، فعبثوا بها ،
ونهبوها وأحرقوا بعضها ، ودمروا البعض الآخر ، وقد بلغ من قوة الأتراك
السلاجقة ونفوذهم أن استعان بهم نقفور الثالث حاكم اقليم نيقية ضد
الامبراطور ميخائيل السابع ، وتمكن السلاجقة من الاستيلاء على كثير من
المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور ، وبذلك غدا السلاجقة
هم السادة الحقيقيون في آسيا الصغرى حيث امتد ملكهم من الفرات شرقا الى
بحر مرمره غربا .

ولكن بعد موت السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) دب النزاع بين
أولاده يركياروق (٢) ومحمود وسنجر ومحمد على السلطة وبدأت دولة
السلاجقة في حالة من الفوضى والاضطراب السياسى والانقسام الأخرى ،
وشرعت تتفتت الى وحدات سياسية صغيرة ، بسبب الصراع الذى دب بين
أبنائه على السلطة ، وتكفى الإشارة الى أن الحروب التى نشبت بين
يوكياروق وأخيه محمد استمرت حتى سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) .

ومن ناحية أخرى فقد طمع عمه تتش فى أن يكون له حكم الشام كلها ،
ولم يقبل أن يكون أقسنقر البرسقى حاجب ملكشاه أميرا على حلب ويقاسمه
حكم الشام ، وكان السلطان ملكشاه قد منحه تلك الامارة قبل وفاته ، ولذلك
أسرع تتش بالاستيلاء على بعض مدن الشام ، وانضم اليه أقسنقر نفسه
ودخل فى طاعته وسلمه حلب ، وكتب الى ياغى سيان أمير أنطاكية ، والى

(١) توفيق : الدولة البيزنطية ، ص ١٧٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢١٤-٢١٦ .

بوزان صاحب الرها وحران ورغبهما في الدخول في طاعة تاج الدولة تتش ، لأن الصراع كان لايزال مستمرا بين أبناء ملكشاه ، ولكن تتش لم يلبث أن قتل في الحرب التي دارت بينه وبين بركياروق (١) . وبعد أن توفي بركياروق استقرت أمور السلطنة لأخيه محمد بن ملكشاه (٢) . ولكن الضعف أخذ يدب في أوصال الدولة السلجوقية ، فانقسمت بعسد وفاته الى خمس دويلات صغيرة هي : سلطنة فارس (أصبهان) وكانت لبركياروق أكبر أبناء ملكشاه ، وسلطنة خراسان وما وراء النهر ، وكانت لأبى الحارث سنجر ، ومملكة حلب ، وكانت لرضوان بن تتش ، وسلطنة دمشق ، وكانت لشمس الملوك دقاق أخى رضوان ، وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وكانت لتاج أرسلان بن سليمان بن تتش (٣) ، والحقيقة أن ضعف دولة السلاجقة واضمحلالها ، كان ضعفا للدولة العباسية وبداية لنهايتها ، وبالتالي كان من الاسباب التي مهدت لنجاح الصليبيين في حملتهم الاولى .

(١) ابن النديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ص ١١٩ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ .
(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٦٠ .
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١١٤ ، الشيخ : الجهاد ، ص ٣٦ .
(م ٣ - صلاح الدين)

ظهور دولة الأتابكة

كلمة (أتابك) تركية الأصل ، وهى مركبة من لفظين ، (اتا) بمعن مربي (وبك) بمعنى أمير ، ومعناها معا مربي الأمير ، أو الأمير الوالد (١) . وكان لقباً يطلق على الأمراء والقواد العسكريين الذين يعهد اليه بتربية أبناء سلاطين السلاجقة ، وتعليمهم وتدريبهم على شئون الحكم وفنون الحرب ، وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير نظام الملك (٢) ، عنده فوض اليه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان تدبير المملكة سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) .

ويرجع السبب في ظهور الأتابكيات الى وجود بعض الأمراء صغاً السن من السلاجقة الذين أسندت اليهم امارة الدويلات السلجوقية في أواخر عصرها ، وكان من الطبيعي أن يكون مع كل أمير من هؤلاء أتابكا يرعى شئونه ، لأنهم كانوا بمثابة الأوصياء أو المشرفين على مصالح هؤلاء الأمراء وانتهز هؤلاء الأتابكة فرصة ضعف الدولة السلجوقية وتفككها ، واستبدوا بحكم هذه الدويلات وكونوا لأنفسهم جيوشاً لحماية أتابكياتهم ، واستعانوا بالقبائل ، فلما أخذت هذه الأتابكيات صفة الدوام ، استقلوا بها ، فتكونت أتابكيات كثيرة بداية من أواخر القرن الخامس وخلال القرن السادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) ، وقد ترتب على ظهور الأتابكيات أنه أصبح عاملاً من العوامل التى أدت الى نهاية الدولة السلجوقية (٣) .

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (أتابك) ، وشس الدين سامى : قاموس الاعلام (تركى) ج ١ ص ٤٧٤-٤٧٥ ، وكذلك :

Persian English Dictionaries p. 18.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١ ص ٨٠ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ص ١٦٧ ، ج ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٠-١٦١ .

من أهم هذه الأتابكيات أتابكية دمشق (١) ، وتنسب الى ظهور الدين طغتكين ، الذى كان أحد قواد الجيش السلجوقى ، ومملوك السلطان تتش ، وبعد مقتل تتش أصبح طغتكين أتابكا لولده شمس الملوك دقاق بن تتش ، وبعد وفاة دقاق سنة (٤٩٧هـ/١١٠٣-١١٠٤م) عهد الى طغتكين بأتابكية دمشق والوصاية على ابن دقاق ويسمى تتش (الصغير) ، وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) عندما استولى عليها نور الدين محمود زنكى من صاحبها مجير الدين محمد بن بورى ابن طغتكين .

وأتابكية الموصل : وتنسب الى عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وقد اسندت اليه فى رمضان سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) (٢) كما ضمت اليه الجزيرة (العراق) ونصيبين ، وما لبث عماد الدين أن وسع ملكه فضم اليه سنجار والخابور وحران ، وكانت الرها وسروج ومدن أخرى من ديار الجزيرة فى ايدى الصليبيين الذين ساموا أهل هذه المدن الكثير من العذاب ، فلما سمعوا بمقدم عماد الدين زنكى ، قويت نفوسهم ، وراسلوه بالطاعة ، واستحثوه على سرعة الوصول اليهم ، فجد عماد الدين فى السير ونزل بساحتهم . وقد بقيت هذه الأتابكية الى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وسوف يلعب كل من عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود دورا كبيرا وخطيرا على مسرح الأحداث التاريخية للمشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى منطقة الشرق الأدنى فى تلك الفترة التى شهدت مقدم الفرنجة وحملاتهم الصليبية على الشام .

ومن الأتابكيات المهمة كذلك أتابكية فارس (٣) ، وأتابكية خوارزم (٤) ،

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ ، حلمى : السلاجقة ، ص ١٨٤ .
(٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٢٤ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ص ٥ .

(٣) تنسب أتابكية فارس الى سلفر قائد احدى قبائل التركمان التى هاجرت الى خراسان ، وانضمت الى طغرلبيك ، فعين سلفر فى بلاطه ، ثم

وأتابكية أرمينية (١) ، وقد كثرت هذه الأتابكيات وانتشرت بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م (٢) نتيجة لانقسام السلاجقة على أنفسهم ، وتصعد الدولة السلجوقية ، فاستقل كل أمير بمقاطعته (أتابكته) وعمل كل واحد منهم على توسيع منطقة نفوذه على حساب القوى المجاورة وضماها الى بلاده حتى أصبحت مظهرا من مظاهر الحكم السلجوقي ، وعنصرا هاما من نظمهم السياسية والاجتماعية (٣) .

=
استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على اقليم فارس سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، فوسع بلاده ، ومد نفوذه الى كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة له ، وقد خضعت هذه الأتابكية لجنكيزخان ثم لهولاكو عندما اجتاح المغول الأراضي الاسلامية . راجع حمدي : الشرق الاسلامي ، ص ١٠٩-١١٠ ، وكذلك الجميلي : دولة الأتابكة ص ٣٠ هـ ٣ .

(٤) تنسب أتابكية خوارزم الى محمد خوارزم شاه بن أنوشتكين وكان أنوشتكين ساقيا في بلاط السلطان ملك شاه ، ثم تدرج في مناصب الدولة . وكان ابنه محمد (علاء الدين) اكتسب شهرة واسعة في الآداب والعلوم ، فعينه السلطان بركياروق بن ملك شاه حاكما على اقليم خوارزم ، ومنحه لقب شاه (ملك) ، وقد اتسعت هذه الأتابكية وشملت العراق الفارسي بعد هزيمة طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وزاد اتساعها في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م) فشملت بلاد ما وراء النهر ، وسيطرت على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي ، ثم على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد الاستيلاء على غزنة سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، وقد سقطت هذه الأتابكية في أيدي المغول بعد أن قتل جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م ببجبال كردستان . راجع الذهبي : تاريخ ، ج ٢ ص ١٠١ ، وحسين أمين : العراق ، ص ٢٦٨-٢٦٩ ، الجميلي : دولة الأتابكة ٢٩ هـ ٢ ، وابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(١) أسسها سقمان القطبي مملوك قطب الدين اسماعيل الحساكم السلجوقي في مدينة مرثد إحدى مدن أذربيجان ، ثم استولى سقمان على خلاط في سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م راجع ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ حوادث ٤٩٢ هـ .
(٢) كان آقسنقر الحاجب جد نور الدين محمود زنكي أتابكا للسلطان ملكشاه ، تربى معه ، وترقى في خدمته حتى أصبح من اكابر أمرائه ، واعتمد عليه في أموره كلها حتى لقبه قسيم الدولة . راجع ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ١١ .

(٣) حسين أمين : العراق ، ص ٣٠٩ ، حمدي : الشرق الاسلامي ص ٩٤ .

الخلافة الفاطمية

لم تكن الخلافة الفاطمية في مصر أحسن حالا من الخلافة العباسية في بغداد ، فقد بلغت هي الأخرى درجة كبيرة من الضعف ، فانسلخت عنها اقاليم كثيرة في الشام ، ففي عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) عصى أهل صور وأمرؤا عليهم رجلا ملاحا ، وعصى كذلك المفرج بن دغفل بن الجراح ونزل الرملة وعاث في البلاد فسادا ، كما أصيبت البلاد بالكوراث والنكبات الاقتصادية وسوء الحكم واضطراب الأمور بسبب صراع الوزراء على الحكم (١) ، وتعدد عناصر الجيش الفاطمي ، وكثرة الحروب بين هذه الفرق المتصارعة ، وكانت بداية هذا الضعف في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) حيث صادفت الدولة الفاطمية أخطر العقبات في تاريخها ، وهي الأزمة الاقتصادية العارمة التي وصفها المؤرخون بسنوات الشدة ، وأطلقوا عليها سنوات الغمة (٢) ، لدرجة أن الخليفة المستنصر بالله باع محتويات قصره من ذخائر واثاث وسلاح ، وجلس على الحصير ، وتعطلت الدواوين في عهده ، ولجا الخليفة الى أمير الجيوش بدر الجمالي لينقذ الدولة مما تردت فيه ، وبدأ بدر الجمالي وزارته بمواجهة ساخنة وحاسمة لمشكلات مصر الاقتصادية والسياسية . ويعبر المقرئزي (٣) على تلك الحالة السيئة بقوله : « والرشاء قد آيس منه ، والصلام لا مطعم فيه ، ولواته (٤) قد امتلكت الريف والصعيد بايدي العبيد ، والطرق قد انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة ، فلما قتل في بلدة كوشن (٥) ناصر الدولة ابن حمدان ، كتب المستنصر اليه -

-
- (١) الشيال : مصر الاسلامية ، ج ١ ص ٢٤٣ .
(٢) راجع المقرئزي : اغالة الامة بكشف الغمة (تحقيق الشيال) .
(٣) الخطط ، ج ١ ص ٣٨١-٣٨٢ .
(٤) اسم قبيلة عربية .
(٥) كوشن : من قرى فلسطين . راجع البغدادي : مرآة الاطلاع ، ج ٣ ص ١١٨٦ .

يعنى بدر الجمالى - ليستدعيه من عكا ، ليكون المستولى لتدبير دولته «
فلما ولى بدر الجمالى الوزارة الى جانب امارة الجيوش تحكم فى أمور الدولة
كلها ، واستبد بالحكم ، ولم يبق للخليفة المستنصر معه شىء من الحكم .

ومع كل محاولات أمير الجيوش بدر الجمالى لاجراج الدولة الفاطمية
فى مصر من موقف الضعف الذى أصابها فانه لم ينجح ، وحتى اذا صادف نجاحا
فى أول الأمر وامتلك مدينة أو حصنا ، لا يلبث أهل هذه المدينة أو جنود هذا
الحصن أن يعلنوا ثورتهم ، ويدخلون فى صراع وقتال حتى يجلو الفاطميين
من عندهم ، تكرر هذا على عهد الخليفة المستنصر بالله . ففى ربيع الآخر
سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) تمكن أمير الجيوش بدر الجمالى من أن يضم
دمشق الى الخليفة الفاطمى فى مصر ، ولكن جند دمشق ثاروا عليه ، وانضمت
العامّة الى الجند ، فضعف أمر الفاطميين واضطروا الى الجلاء عن دمشق فى
شهر رجب (١) . ومن الغريب أن بدر الجمالى يكرر المحاولة فى سنة
(٤٧٨هـ / ١٠٨٧م) ، ويضرب الحصار على دمشق ، وكان عليها تاج الدولة
تتش السلجوقى ، وشدّد الجمالى الحصار على دمشق ، وضيق الخناق
على أهلها ، ودخل فى قتال شديد مع جنودها ، ولكنه لم يحرز النصر
المنشود ، فعاد الى مصر بعسكره (٢) .

وفى سنة (٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) سار أمير الجيوش بدر الجمالى من مصر
على رأس جيش كبير العدد واتجه الى مدينة صور ، وضرب عليها الحصار ،
وكانت فى يد القاضى عين الدولة بن أبى عقيل ، الذى استغاث بالسلاجقة
المقيمين بالشام ، فقاموا بنجدته وفكوا حصار الجيش الفاطمى عن صور .
ولكن ما لبث أن عاود بدر الجمالى ضرب الحصار عليها ، وظل محاصرا لها
فى هذه المرة برا وبحرا قرابة عام ، ولكنه لم يحظ من صور بطائل لمناعتها ،
فأنصرف عنها ورحل .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٠ .

(٢) ابن الاثير : نفسه ص ١٤٥ .

وكان من الطبيعي وبسبب كثرة ما أنفق على الاعداد لهذه الغزوات أن ازدادت حدة الغلاء الفاحش في مصر والذي استمر سبع سنوات وانتشرت مجاعة كبيرة ، حتى أكل الناس الجيفة ، وفارق كثير منهم البلاد واتجهوا الى بغداد هربا من شدة الجوع ، وكان من بينهم أم المستنصر وبناته (١) وبعض التجار ، الذين كانوا يحملون بعض ثياب الخليفة الفاطمي المستنصر ، وبعض أمتعته التي نهبت من داره ، وقد وجد من بينها بعض الأشياء التي كانت قد نهبت من دار البساسيري . ونتيجة لهذه الصورة القائمة تشجع أهل مكة المكرمة فأسقطوا اسم الخليفة الفاطمي المستنصر من الخطبة ، وذكروا اسم الخليفة القائم بأمر الله ، والسلطان السلجوقي الب أرسلان ، وتبعهم في ذلك أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس ، فأسقط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة في السنة التالية (٤٦٣هـ / ١٠٧١م) وجعلها للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي (٢) .

وكان لتدخل المرأة في شئون الدولة ، وسيطرتها على مقاليد الحكم في الدولة الفاطمية أثره البارز في ضعفها ، واضمحلالها ، فقد تغلبت أم الخليفة المستنصر الفاطمي على أمور الدولة ، فقد عينت لها وزيرا (كمستشار) يهوديا هو أبا سعيد ابراهيم التستري ، الذي أشار عليها بتعيين أبا نصر الفلاحى في الوزارة ، فعينته ، وصارت الأمور بين الرجلين على وفاق ، ولكن أبا نصر الفلاحى ما لبث أن انفرد بالحكم ، وحدثت بينهما فجوة ، خاف من أجلها الفلاحى ، وتوقع أن يفسد التستري أمره مع أم الخليفة ، فلجأ الى اصطناع الغلمان الأتراك واستمالهم الى جانبه ، وأكثر لهم العطاء ، حتى وثق منهم ، فأوعز اليهم بقتل التستري مستشار أم الخليفة ، ففعلوا ذلك

(١) راجع تفصيل ذلك في ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ص ٢ وما بعدها . وقد استمرت المجاعة من ٤٥٧ الى ٤٦٤هـ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٦١-٦٣ .

وقتلوه ، فعظم ذلك على أم المستنصر ، ودفعت ابنها الخليفة فقبض على الفلاحى ، وأودعه السجن ، فأرسلت هى من قتله فى نفس الليلة .

عينت أم الخليفة المستنصر أبا البركات حسن بن محمد فى الوزارة بعد التستري ، ثم ما لبث أن عزلته لعدم استجابته لما أمرته به من تحريض العبيد على الأتراك الذين قتلوا وزيرها ومستشارها . فلما ولى أبو محمد اليازورى - من أهل الرملة بفلسطين - الوزارة ، أمرته بنفس الشيء ، فلم يفعل ، وأخذ يناصحها لعله يصلح أمر الدولة ، ولكنه قتل . فلما وزر أبو عبد الله الحسين البايلى وأفضت إليه برغبتها ، نفذ لها ما تريد ، فكان ذلك من أسباب قيام الفتن والحروب بين العبيد والأتراك التى انتهت بانهيار الدولة الفاطمية (١) .

فقد ترتب على اندلاع هذه الفتن والحروب أن تكرر ظهور المجاعات فى مصر ، فغلت الأسعار بدرجة جنونية ، وامتدت أيدى الجنود الى النهب والقتل ، واشتد الجوع على الأهالى وكثر الموت فيهم بسببه ، وبسبب الوباء الذى انتشر وعظم أمره ، لدرجة أن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم فى ليلة واحدة .

شجعت هذه الأحوال المضطربة فى مصر ناصر الدولة بن حمدان ، الذى كان طامعا فيها ، فأكثر من اغاراته على مدنها ، وقام بنهبها ، وأحرق كثيرا من أطرافها ، ثم أسقط اسم الخليفة المستنصر من الخطبة على منابر الاسكندرية ودمياط وفى قرى كثيرة من ريف مصر ، وأرسل الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى يطلب منه الخلع ليخطب له فى مصر . ويبدو أن القائم بأمر الله تباطأ فى اجابة مطلب ابن حمدان ، فأرسل رجلا من أتباعه الى المستنصر الفاطمى يطلب منه أموالا ، فلما وصل الرجل وجد المستنصر جالسا على حصير ، وليس حوله غير ثلاثة من الخدم ، فلما أبلغه بمطلب ابن حمدان

قال له : أما يكفى ناصر الدولة بن حمدان أن أجلس فى مثل هذا البيت على مثل هذا الحصار ؟ فبكى الرسول ، وعاد الى ناصر الدولة ابن حمدان وأبلغه بما رأى وسمع ، فقرر للمستنصر مائة دينار فى كل يوم ، وعاد الى القاهرة وحكمها وأذل من بها من الحكام ، وكان ابن حمدان يميل الى المذهب السنى ، وانحاز المغاربة الموجودون فى مصر اليه ، فقوى أمره وقبض على أم المستنصر ، وصادر أموالها ، ولم تكن تزيد على خمسين ألف دينار ، وتفرق عن الخليفة المستنصر الفاطمى أهله وأتباعه وأولاده ، واتجهوا الى المغرب وتفرقوا فى البلاد ، ومات الكثير منهم جوعاً (١) .

ومع كل ما أصاب الدولة الفاطمية فى مصر من ضعف وتفكك ، فقد أتاح لها النزاع الدائر بين أفراد البيت السلجوقى ، والحروب المشتعلة بينهم من أجل السلطة ، والتي كانت بداية لنهاية الدولة السلجوقية ، أتاح لها أن تستعيد شيئاً من أنفاسها ، وتسترد بعضاً من مظاهر قوتها - ولو لوقت غير طويل - فقد تمكنت من ضم بعض مدن الشام الساحلية ، ففى سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) خرجت العساكر الفاطمية من مصر بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالى ، فوصلت الى مدينة صور وضربت عليها الحصار ، وكان صاحبها القاضى عين الدولة بن أبى عقيل ، وكانت صور قد امتنعت على الفاطميين من قبل ، فلما توفى ابن عقيل ، ووليها أولاده ، عاود جيش مصر الفاطمى الكرة وضرب على صور الحصار ، فاستسلم أبناء عين الدولة ، وسلموا المدينة الى بدر الجمالى ، ثم واصل الجيش الفاطمى مسيره الى مدينة صيدا وضرب عليها حصاراً سريعاً انتهى باستيلائه عليها . ومنها توجه الى مدينة عكا ، وحاصرها وشدد الخناق على أهلها ، فاستسلموا الى الفاطميين وسلموهم المدينة . ثم واصلوا تقدمهم الى مدينة جبيل فملكوها كذلك . ووضع أمير الجيوش بدر الجمالى فى كل بلد من يتولى أمرها ، ويحفظ الأمن والنظام بها ، ثم عاد ببقية جنوده الى مصر (٢) .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٨٥-٨٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٧٦ .

كان أمير الجيوش بدر الجمالى قد عين الأمير منير الدولة الجيوشى على مدينة صور ، ولما استقرت أمورها أعلن الخروج على الخليفة المستنصر وعلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، فأرسل بدر الجمالى جيشا من مصر الى صور وصلها فى جمادى الآخرة سنة (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) فلقبض الحصار عليها ، فثار أهلها على منير الدولة الجيوشى ، ونادوا بشسعار الخليفة الفاطمى ، فدخل جنوده المدينة أثناء هذه الاضطرابات ، وقبضوا على الجيوشى ومعاونيه ، وسبقوا الى مصر حيث ضربت أعناقهم جميعا (١) .

وبعد بدر الجمالى تولى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه فى عهد الخليفة المستعلى بالله بن المستنصر ، ولم يسلم المستعلى من الثورات والفتن ، ففى ربيع سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) أظهر كثيلة ، الوالى الفاطمى على صور ، الخروج على المستعلى ، فسير اليه الأفضل جيشا كثير العدد حاصر المدينة ، وقاتل أهلها بخرابة وفتحها عنوة ، وقبض على كثيلة أسيرا ، وأرسل الى مصر حيث ضربت عنقه .

وزادت الحرب الأهلية التى نشبت فى مصر بين (المستعلى) أنصار الخليفة المستعلى ، وبين (النزارية) أنصار أخيه نزار ، الذى كان والده الخليفة المستنصر قد عهد بالامامة (الخلافة) اليه من بعده ، ولكن أخاه المستعلى نزعها منه ، واضطر نزار الى الهرب فى الاسكندرية وتحصن بها ، وساعده قاضيه جلال الدولة بن عمار ، ولكن المستعلى حاربه فى الاسكندرية وقبض عليه وعلى مؤيديه فقتلهم وأمر ببناء حائط على أخيه فمات (٢) . وقد لعب الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى دورا بارزا فى هذه الحرب ، مما زاد فى سلطانه وتسلمه على أمور الدولة ، وبلغ فى ذلك شأوا كبيرا أكثر مما كان لأبيه وتلك اشارة واضحة تدل على ما وصل اليه الخلفاء الفاطميون فى أواخر حكمهم من ضعف ، وعدم قدرة على تسيير شئون الدولة .

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ص ٦٥-٦٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٣٨ .

وقد ترتب على هذه الفتن وهذه الحروب أن ازدادت مصر والخلافة الفاطمية ضعفا على ضعفها ، فقد قتل خلق كثير ، وضاعت أموال عظيمة ، ولم ينته الصراع بين أنصار المستعلية والنزارية وأتباعهما ، مما أحدث شرخا عميقا في صلب الدعوة الفاطمية الشيعية التي انقسمت على نفسها ، فقد خرج أتباع نزار من مصر بعد قتله ، واتجهوا الى قلعة الموت في ايران (١) ، حيث استقروا بها ، أما المستعلية فقد ظلوا على ولائهم وتأييدهم للخليفة المستعلى حتى قدم الصليبيون الى المشرق الاسلامي ، وكونوا اماراتهم الصليبية في الشام .

وكان للانقسام المذهبي دوره الفعال في ازدياد ضعف الدولة الفاطمية ، ذلك لأنها تعرضت لهذا الانقسام في فترتين متقاربتين ، فعقب وفاة المستنصر بالله سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) حدث الانقسام الأول (مستعلية ، نزارية) وعقب وفاة الأمر بإحكام الله سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م) حدث الانقسام الثاني ، فقد انقسمت الشيعة الاسماعيلية الى حافضية وطيبية (نسبة الى الحافظ ابن عم الخليفة الأمر بإحكام الله ، والى الطيب بن الأمر بإحكام الله) ، وقد أدى هذا الانقسام الى اتساع الشقة بين أتباع المذهب الفاطمي نفسه . وقد سبق أن حاول السلاجقة طرد الفاطميين نهائيا من الشام ، بل فكروا في غزو مصر ، والقضاء على المذهب الشيعي ، فقد أمر السلطان ملكشاه قسيم الدولة آقسنقر البرسقي - صاحب حلب - أن ينضم بعساكره الى بوران - صاحب الرها - ويسير الجميع مع تاج الدولة تتش - صاحب دمشق - للاستيلاء على ممتلكات الخليفة الفاطمي المستنصر بسواحل الشام ، ثم الى مصر لامتلاكها (٢) .

(١) شيد هذه القلعة حسن الصباح زعيم الشيعة الاسماعيلية في الشام ، وكانت موقعا استراتيجيا هاما ومركزا شيعيا خطيرا ، لعب دورا بارزا في الصراع مع اهل السنة ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٥٢٧-٥٢٨ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وكذلك :

ولم يكن هذا الخلاف المذهبي قاصرا على داخلية الدولة الفاطمية ، ولكنه كان قائما بين الدولتين الاسلاميتين ، العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر ، وقد نتج عنه ضعفهما واضمحلالهما وتفككهما ، لان انشقاق المسلمين على انفسهم ، ووجود مذهب سني في بغداد ، وآخر شيعي في مصر (١) ، زاد من حدة الصراع بينهما ، خاصة عندما تأمر بنو بويه مع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على الخلافة العباسية ، وضم بغداد الى الدولة الفاطمية في مصر ، واضطر الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م) الى الاستنجاد بالسلاجقة (٢) ، لكي يساعده في الدفاع عن المذهب السني ، الذي كانوا قد اعتنقوه عند اسلامهم ، وبذلك قضى السلاجقة على مخطط الفاطميين ، وفشلت تلك المؤامرة ، وكانت النتيجة ان وقف الفاطميون من السلاجقة السنيين موقفا عدائيا ، وكرهوهم ، ودفعهم هذا الكره الى الاعتقاد ان قيام دولة صليبية في الشام سوف يكون حاجزا يحول دون زحف السلاجقة الى مصر وضمها الى ممتلكاتهم (٣) .

-
- (١) من الجدير بالذكر ان المصريين في مجموعهم ظلوا معتنقين للمذهب السني الذي عرفوه منذ الفتح العربي لمصر ، ولم يغير وجود خلافة فاطمية شيعية في مصر من استمسакهم بهذا المذهب السني .
- (٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٨٠-٨١ .
- (٣) العريني : الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ص ٦ .

ثانيا : القوى المسيحية في الشرق الامبراطورية البيزنطية

أخذت الامبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) تستعيد قوتها ومركزها أمام القوى الاسلامية في الشرق ، فقد تمكن الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩م / ٣٠١-٣٤٨هـ) من شن حروبه ضد المسلمين ، وكان يرنو ببصره لاسترداد الاراضي المقدسة التي كان المسلمون قد فتحوها منذ قرون مضت ، وقد برز هذا النفوذ السياسي بشكل واضح خلال النصف الاول من عهد الاسرة المقدونية الى وفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة (١٠٥٢م / ٤٤٤هـ) ففي هذه الفترة تمكنت الامبراطورية البيزنطية من أن تصل الى درجة كبيرة من الاستقرار السياسي ، والتقدم والازدهار الحضارى ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية واحدة من أهم المراكز الحضارية في العالم آنذاك ، لأنها استعادت مكانتها كقوة لها وزنها الدولي أمام العالمين الاسلامي والمسيحي . فقد هاجمت بيزنطة جيوش المسلمين في بغورهم في آسيا الصغرى ، واستعادت مناطق كثيرة منها ، وامتدت حدودها الى شمال العراق وأرمينيا ، ووصلت الى مشارف الشام . ففي سنة (٩٤١م / ٣٣٠هـ) وفي عهد الخليفة العباسي المتقى أغارت عساكر الدولة البيزنطية على بلاد الشام ، ووصلوا الى مشارف حلب ، وعاثوا فسادا في القرى والمدن القريبة منها ، وسبوا ما يقرب من خمسة آلاف امرأة (١) .

ثم أخضعت الروس والبلغار ، وقويت قبضتها على ممتلكاتها في جنوب ايطاليا (٢) . كما أنها قضت على الحركات الانفصالية التي قام بها نبلاء الاقطاع في آسيا الصغرى بسبب ما فرض عليهم من ضرائب قررها باسيل الثاني عرفت باسم (نظام اللالينجيون The Alalengyon System) والتي كان من الممكن أن تؤدي الى تدمير طبقة النبلاء سياسيا وروحيا (٣) .

(١) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٣ ص ٤١٧ .

(٢) Setton; The Byzantine Empire, pp. 177-178.

(٣) Vasiliev, op. cit., pp. 345-349.

وعندما توفي قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣م/٣٤٨-٣٥٢هـ) فأرسل قائده نقفور فوكاس سنة (٩٦٠م/٣٤٩هـ) لاسترداد جزيرة كريت من أيدي المسلمين ، ونجح نقفور فوكاس فى ذلك سنة (٩٦١م/٣٥٠هـ) واستعادت الامبراطورية سيطرتها ومركزها الاستراتيجى والاقتصادى شرقى البحر الابيض المتوسط (١) .

وكان مسلموا الأندلس قد فتحوها فى عهد ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م/٢٠٥-٢١٤هـ) . عندما استغلوا انشغال أساطيل الامبراطورية وجيوشها فى اخماد الحركات الثورية التى انتشرت فى أرجاء بيزنطة ، واستولوا على جزيرة كريت سنة (٨٢٥م/٢١٠هـ) ، وأسسوا بها مدينة جديدة أحاطوها بخندق ، وعرفت المدينة باسم الخندق ، وأصبح علما على الجزيرة أو على أكبر مدنها (٢) ، وقد حاول الامبراطور ميخائيل الثانى استرداد كريت من أيدي المسلمين فى محاولتين بذلهما ، ولكنه فشل فيهما ، وبقيت كريت فى أيدي المسلمين مدة تزيد على قرن وربع الى أن استعادها نقفور فوكاس سنة (٩٦١م/٣٥٠هـ) . ثم أخذ نقفور بعد ذلك فى مهاجمة الحمدانيين وتمكن من استرداد بعض الحصون والقلاع الهامة فى قيليقية .

ومع أن نفوذ الامبراطورية فى تلك الفترة كان آخذا فى الازدياد ، الا أن علاقتها بالمسلمين فى شمال افريقية (الدولة الفاطمية) كانت تتأرجح بين العداء والمهادنة ، ففى سنة (٩٦١م/٣٥٠هـ) طلبت الدولة البيزنطية تجديد الهدنة التى كانت بين الدولتين ، وبمقتضاها تدفع بيزنطة جزية متفق عليها للفاطميين ، ولكن عندما تولى نقفور فوكاس عرش الامبراطورية (٣) رغب

-
- (١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٤٠٩ .
(٢) Vasiliev; op. cit., Vol. I. p. 367.
وعاشور : أوروبا ، ج ١ ص ٤٠٠ .
(٣) راجع تفاصيل هاتين المعركتين فى ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ٥٥٥ وما بعدها .

في عدم دفع هذه الجزية ، ولكنه عاد وأقر بدفعها بعدما هزمت أساطيله في صقلية في موقعتي رمطة والمجاز عامي (٣٥٣-٣٥٤هـ/٩٦٤-٩٦٥م) (١) .

وكان المسلمون قد وجهوا أسطولهم بقيادة الأمير أحمد بن علي للاستيلاء على قلعة طرمين في جزيرة صقلية ، وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية ، وكانت طرمين قلعة حصينة ، وتمكن المسلمون من حصارها ، وقطعوا عنها المياه ، فطلب أهلها الأمان ، فلم يجبههم قائد الأسطول الاسلامي ، فعادوا وطلبوا تأمين دمائهم ، فأجابهم المسلمون على أن يكونوا رقيقا لهم ، وتكون أموالهم فيئا للمسلمين ، الذين امتلكوها وأطلقوا عليها اسم قلعة المعزية ، نسبة الى المعز الفاطمي صاحب أفريقية (٢) .

واراد نقفور أن يثار لما أصاب جيوشه في صقلية فشدد ضرباته على مدينة المصيصة (٣) وحاصرها ثلاثة شهور سنة (٣٥٣هـ/٩٦٤م) . ومنع عن أهلها الميرة والزاد حتى اضطروا الى أكل لحم الميتة ، فانتشرت بينهم الأوبئة ، واستسلمت المدينة اليه (٤) ، وحينما رأى أهل طرسوس (٥) ما أصاب المصيصة وأهلها ، طلبوا السلامة ، وسلموا مدينتهم الى الامبراطور نقفور فوكاس ، وبذلك وضع البيزنطيون أيديهم على مداخل الشام .

ولم يلبث البيزنطيون أن ترجوا نشاطهم الحربى ضد القوى الاسلامية في المشرق باستيلائهم على مدينة أنطاكية سنة (٣٥٩هـ/٩٧٠م) ، وكانت في

-
- (١) حكم نقفور فوكاس ست سنوات (٩٦٣-٩٦٦م) وقد تزوج من أرملة رومانوس الثانى وتسمى ثيوثانو ، وكانت وصية على ولديها الصغيرين باسل الثانى ، وقسطنطين الثامن . عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٤١٠ .
 - (٢) ابن الاثير : نفسه ص ٥٤٣ .
 - (٣) المصيصة : على شاطئ جيمان بين أنطاكية وبلاد الروم بالقرب من طرسوس - ياقوت ، ج ٥ ص ١٤٤-١٤٥ .
 - (٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ٥٥٢ وما بعدها .
 - (٥) طرسوس : من ثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم . ياقوت ، ج ٤ ص ٢٨ .

أيدى المسلمين منذ فتحوها سنة (١٤هـ/٦٣٥م) ، وبذلك حصلوا على مدينة هامة لها مكانتها الاستراتيجية باعتبارها مدخلا لبلاد الشام . ولها مركزها الاقتصادي ، لعلاقتها التجارية مع بلدان آسيا الصغرى ومدن الشام ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، كما أنها كانت ذات منزلة روحية عند المسيحيين ، وقد بقيت أنطاكية تابعة للامبراطورية البيزنطية الى أن استعادها الأتراك السلاجقة سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) .

وقد ترتب على سقوط مدينة الرها في أيدي البيزنطيين أنهم ضربوا الحصار على مدينة حلب ، فاضطر حاكمها قرغوية مولى سيف الدولة الحمداني الى اقناع سيده بدفع الجزية للبيزنطيين سنويا ، وأبرمت بين الطرفين معاهدة أقرت فيها الهدنة وبقي قرغوية يحكم حلب باسم البيزنطيين ، وقد وصل ضعف الحمدانيين في تلك الفترة الى أنهم قبلوا شروطا مهينة منها : أن يعين الامبراطور البيزنطي من يشاء على المدينة بعد وفاة قرغوية وبكجور . والا يختار المسلمون حاكما منهم على المدينة ، ولا يطلبوا مساعدة من المسلمين لتغيير تلك الشروط أو تبديلها . كما حددت الاتفاقية المدن التي تدخل في أعمال حلب ، والمدن التي تكون ملكا للامبراطورية البيزنطية (١) .

أما في خلال النصف الثاني من حكم الأسرة المقدونية فقد كانت الامبراطورية البيزنطية في حالة من الاضطراب والفوضى وتفاقم المشكلات الداخلية واستمرت على هذه الحالة قرابة ربع قرن (١٠٥٦-١٠٨١م) ، وذلك لعدم وجود أباطرة أقوياء يكون لهم أثرهم في مجريات الأحداث ، وكان للمرأة دورها في هذا الضعف الذي أصاب الامبراطورية في تلك الفترة فقد تأمرت ثيوثانو أرملة الامبراطور رومانوس الثاني وزوجة نقفور فوكاس مع عشيقها حنا شمشقيق (٢) (John Tzimiscas) على نقفور لفظاظته مع

(١) راجع نص الاتفاقية كاملا في ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ٦٠٤ ، وكذلك توفيق : الدولة البيزنطية ص ١٤٦ وما بعدها .
(٢) لفظ أرمني بمعنى قصير القامة ، راجع ابن العبري : مختصر ص ٢٦٩ ، عاشور : أوروبا ، ج ١ ص ٤١١ .

ولديها الصغيرين باسيل الثانى ، وقسطنطين الثامن ، اللذان كانا تحت وصايتها ، ونجحت المؤامرة وقتل نقفور فوكاس أثناء نومه ، وأعلن حنا الأول امبراطورا سنة ٩٦٩م ، وبدلا من أن يتزوج حنا الأول شريكته فى المؤامرة وعشيقته يثوفانو ، أخذ يتوجس منها خيفة وخشى أن تفعل به مثلما فعلت مع نقفور فأمر باعتقالها فى أحد الأديرة . وبعد وفاة قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٨م ترك ابنان هما زوى وثيودورا وكان لكل منهما دورها فى اضعاف وتفكك الامبراطورية .

فقد اعتلت Zoe أرملة الامبراطور باسيل الثانى عرش الامبراطورية ، ولعبت دورا هاما وخطيرا فى تولية الأباطرة عرش البلاد ، فقد تزوجت خلال اثنتين وعشرين سنة (١٠٢٨-١٠٥٠م) ثلاث مرات ، وفى كل مرة تختار من يتزوجها ليشاركها حكم الامبراطورية ، وكانت فترة حكمها مع زوجها الأخير قسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٤م) (١) من أحلك أيام الامبراطورية وأشدّها ضعفا ، حيث تمكن النورمان من القضاء على النفوذ البيزنطى فى ايطاليا وازدادت روح التذمر بين الأهالى نتيجة للضرائب القاسية المفروضة عليهم ، وبعد موت زوى سنة ١٠٥٠م خلفتها أختها ثيودورا Theodora وكانت تختلف عنها ، ربما لتقدم الحياة بها ، وبحكم حياتها الطويلة فى أحد الأديرة مما أكسبها صلابة فى الرأى ، واستقامة فى الحياة ، ولكنها توفيت بعد ثلاث سنوات (١٠٥٧م) ولم تتمكن من اصلاح أى شئ . وبذلك تعرضت الدولة البيزنطية الى أخطار متعددة فى الداخل والخارج .

ففى الداخل تعرضت حكومة الامبراطورية الى ثورة نبلاء الاقطاع والعناصر العسكرية التى اندلعت فى الأقاليم ، والتى انتهت بانتصار الأقاليم والعناصر العسكرية ، وتولية الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سنة

Vasiliev; op. cit., Vol. I, p. 400. (١)

١٠٨١ م . وتكفى الإشارة الى اضطراب الأمور وعدم الاستقرار السياسى فى الدولة الى أن سته من الأباطرة تولوا عرش بيزنطة خلال هذه المسدة (٢٥ عاما) ، فقد أجبر البلاط الامبراطورى ثيودار على اختيار امبراطور للدولة ، فاخترت سترايثو تيكوس ميخائيل السابع . وقد توفيت ثيودورا فى عهده (١٠٥٧ م) ومن بعده تولى اسحق الأول لمدة عامين (١٠٥٧-١٠٥٩ م) ، ثم قسطنطين العاشر لمدة تزيد على ثمان سنوات (١٠٥٩-١٠٦٧ م) ، ثم رومانوس ديوجينيس الرابع (١٠٦٧-١٠٧١ م) الذى هزم فى موقعة مانزيكرت ، ومن بعده حكم ميخائيل السابع مرة ثانية (١٠٧١-١٠٧٨ م) ثم نقفور الثالث (١٠٧٨-١٠٨١ م) وبوفاة نقفور الثالث تنتهى فترة الاضطرابات والفوضى التى استمرت منذ النصف الثانى من عهد الاسرة المقدونية ، حيث يتولى مسئولية الحكم فى الامبراطورية البيزنطية أسرة جديدة تبدأ بحكم الامبراطور الكسيوس كومنين ، الذى تمكن من القضاء على حالة الفوضى والاضطراب التى كانت سائدة فى الدولة .

وفى الخارج تعرضت الامبراطورية الى ضغوط من أعدائها فى الشرق والغرب ، فانتقصوا من ممتلكاتها كما فعل النورمان فى ايطاليا ، والبجناك (١) فى الشمال ، والأتراك السلاجقة فى الشرق .

النزاع المذهبى :

الى جانب الفتن والثورات والاضطرابات الداخلية ، والضغوط الخارجية من أعداء الامبراطورية البيزنطية كان هناك النزاع المذهبى بين الكنائس الشرقية داخل الامبراطورية وممتلكاتها ، وقد ساعد هذا النزاع المذهبى على وقوعها تحت سيطرة الكنيسة الرومانية الغربية ، وبالتالي مهد

(١) اقوام من الترك بدويون اشتهروا بميلهم الشديد للحرب ، اغاروا على شمال بلغاريا ، وأصبحت منازلهم قريبة من نهر الدانوب : راجع : Bury : Eastern Roman Empire; pp. 242-245.

والعريشى : الدولة البيزنطية ص ٣٧٦ .

لانتصار الصليبيين في الشرق الأدنى ، وساعدهم في تكوين دولة مواطنوها من المسيحيين الكاثوليك المعارضين للمذهب الأرثوذكسي الذي يعتنقه البيزنطيون . فقد بلغ عدااء الكنائس الشرقية بين البيزنطيين والأرمن والسريان واليعاقبة أشده في أعقاب حركة التوسع البيزنطية في الشرق منذ القرن العاشر الميلادي ، فبعد قليل من ضم أنطاكية الى الدولة البيزنطية في الامبراطور حنا الأول (شمشقيق) أخذ رجال الدين البيزنطيون (الأرثوذكس) يضطهدون اخوانهم رجال الدين الأرمن (الكاثوليك) ، وبعد أن اتخذ الأرمن مدينة أنى (١) عاصمة لهم ، وقع الاضطهاد على بطرس الأرمني ، ثم على ابن أخيه جاجك الأول (٩٩٠-١٠٢٠م) بقصد اجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية التي يعتنقها البيزنطيون .

وجسد الملوك الذين تنازلوا عن ممالكهم الوراثية للامبراطورية البيزنطية ، وأخذوا بدلا منها اقطاعات في كبادوكيا ، وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الباباطرة البيزنطيين ليجبروهم على اعتناق المذهب الأرثوذكسي ، وترتب على ذلك ازدياد التصدع بين أصحاب المذهبين من المسيحيين الشرقيين أبناء الامبراطورية البيزنطية ، وعدم تماسكهم وظهور روح البغضاء لبعضهم ، وقد وضح ذلك فيما أبداه المؤرخون المعاصرون من الأرمن (مثل متى الرهاوى) من ارتياح عندما حلت الهزيمة المرة بالبيزنطيين في مانزيكرت ، بل لقد بلغت بهم درجة تشفيهم في اخوانهم البيزنطيين الى مديح السلطان ملكشاه السلجوقي ، والأمراء السلجوقيين لما حققوه للأرمن من هدوء وراحة بال . وقد ترتب على ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وجهت الاتهام الى الأرمن المشتركين في موقعة مانزيكرت بانهم تقهقروا أمام السلجوقيين ، أو بمعنى آخر تشككت في وجود تواطؤ بين الأرمن والسلاجقة .

(١) أول عاصمة للأرمن في موطنهم الجديد في جنوب شرقي آسيا الصغرى ، ثم نقلوا عاصمتهم بعد ذلك الى مدينة سيس ، راجع :
Vasiliev; op. cit., I. p. 314.

وكان من الطبيعي أن ينتقم المهاجرون الأرمن لأنفسهم ، فانتهزوا فرصة هزيمة البيزنطيين في مانزيكرت وصبوا جام غضبهم وشديد انتقامهم على رجال الكنيسة الأرثوذكسية في كبادوكيا . فقد قبض جاجك الثانى ملك الأرمن السابق فى آنى على مطران قيصرية الأرثوذكس وحبسه فى جوال محكم ، ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه (١) ، وكان رد البيزنطيين على ذلك تصديهم لجاجك الثانى وقتله سنة ١٠٩٧ م .

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة من حنق الأرمن ، لاسيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . فقد أساء رجال الكنيسة الأرثوذكسية (البيزنطيون) الى رجال الكنيسة المحلية (الكاثوليك من السريان) ، ولذلك فعندما أصيب الامبراطور رومانوس الثالث بالهزيمة بالقرب من حلب سنة ١٠٣٠م على أيدي السلاجقة المسلمين ، عبر السريان عن فرحتهم فى البيزنطيين ، وأخذ المؤرخ ميخائيل السريانى يعبر عن تلك الفرحة فى كتاباته وأعرب عن تفضيل السريان لحكم السلاجقة على البيزنطيين ، لأن السلاجقة ينهبون ويسلبون فى الحروب ، ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة ، بينما اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثرا (٢) .

وهكذا يتضح لنا أن ما قامت به الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر وبداية الحادى عشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرقى آسيا الصغرى وبلاد الشام نتج عنه استياء جميع العناصر السكانية ، التى كان من الممكن أن تظل على ولائها للامبراطورية ضد المسيحيين الكاثوليك الغربيين . وقد ساعد شعور الاستياء بين هذه العناصر السكانية فى تسهيل وتيسير قيام الامارات الصليبية الأربع فى المنطقة الشامية ، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بالكراهية والنفور حيال الصليبيين الكاثوليك

(١) عاشور : العلاقات ص ٧٧ .

(٢) Runciman; op. cit., p. 75. وعاشور : العلاقات ص ٧٨ .

مثلما شعروا بها حيال البيزنطيين الأرثوذكس . وسوف تشهد فترة الحروب الصليبية تقاربا ملحوظا بين الكنيسة الأرمنية والبابوية ، ونتيجة للمعاملة الطيبة التى أبدتها الصليبيون للأرمن والسرمان أصبح هؤلاء حلفاء لهم ، ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين كذلك .

وقد وصل ضعف الامبراطورية البيزنطية أمام ضربات السلجوقيين وضغطهم عليها فى ممتلكاتها وتوسعهم فى آسيا الصغرى الى أن يطلب الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١/١٠٧٩م) عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش قائد جيش السلطان ملكشاه سنة ١٠٧٤م ، سلم فيها الامبراطور بحق السلاجقة فى حكم الاراضى التى فتحوها فعلا فى آسيا الصغرى .

ويبدو ما كان عليه سلاطين السلاجقة من قوة وسعة نفوذ ، وضغطهم الشديد على الامبراطورية البيزنطية ، أن السلطان ملكشاه كان فى أصبهان يعد العدة متجها لفتح سمرقند ، لأن أهلها استغاثوا به من ظلم حاكمهم احمد خان ، وفى أثناء تجهيز جيوشه حضر اليه بأصبهان رسول الامبراطور البيزنطى يحمل اليه الجزية المقررة عليه ، فأخذ نظام الملك وزير السلطان معه ليشهد فتح ما وراء النهر ، فلما وصل السلطان والوزير والجيش الى منطقة كاشغر (١) ، أذن له نظام الملك فى الانصراف وقال : « أحب أن يذكر عنا فى التواريخ أن رسول ملك الروم حمل الجزية وأوصلها الى باب كاشغر لينهى الى الامبراطور اتساع دولة السلطان فيعظم خوفه منه ، ولا تحدثه نفسه بخلاف الطاعة له » (٢) . ومع ذلك استنجد الامبراطور ميخائيل السابع بالبابا جريجوى السابع (بابا روما) ووعدته بأنه سيعمل على ازالة الخلاف بين الكنيسة الشرقية (بيزنطة) والكنيسة الغربية (روما) فى مقابل ما يقدمه جريجورى من مساعدات لبيزنطة ضد السلاجقة ، العدو الذى أرق

(١) كاشغر : فى وسط بلاد الترك ، يسافر اليها من سمرقند . ياقوت ح ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٧١ .

حكام الامبراطورية . وفعل استجاب البابا جريجورى السابع أملا فى التقارب بين الكنيستين ، وأرسل الى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من متاعب ومصاعب وآلام ، وما تنتظره من أخطار نتيجة للتوسع الاسلامى الذى يتم على أيدي السلاجقة ، ولكن ملوك أوروبا وأمراءها أعرضوا عنه ، ويرجع السبب فى ذلك الى الصراع القائم بين البابوية فى روما وبين الامبراطور هنرى الرابع حول التقليد العلمانى ، وقد ترتب على ذلك وقوف الامبراطورية البيزنطية وحدها أمام خطر السلاجقة .

٩ وحتى بعد أن عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ م ، وجلس الامبراطور نقفور الثالث على عرش الامبراطورية فان حكمه لم يدم سوى أقل من ثلاث سنوات (١٠٧٩-١٠٨١ م) حيث أطاحت به ثورة الجيش ، وأعلنت تولية الكيسوس كومنين امبراطورا للدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ م .

٩ ومع كل المحاولات التى قام بها الكيسوس كومنين لاصلاح الامبراطورية فلم تتوان عنها ضربات السلاجقة ، حيث زادت توسعاتهم فى آسيا الصغرى ، ولم تمنع وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢ م ، ولا النزاع القائم بين أولاده على تقسيم الدولة فيما بينهم من استمرار قبضة الأتراك السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية ولم يجد الامبراطور الكيسوس كومنين وسيلة لدفع هذا الخطر الا اللجوء الى البابوية فى روما عدة مرات ، وأخيرا أرسل بعثة من عنده الى البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ م لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام ليثير الناحية الدينية فى مسيحى أوربا ضد المسلمين فى الشرق ، مما أدى الى ارسال الحملات الصليبية ، وتكالب الصليبيين على الشرق الاسلامى .

ثالثا : الحملات الصليبية

أما الظاهرة الثالثة والأخيرة في تاريخ منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة ، فهي الحملات الصليبية التي قام بها الأوربيون في أواخر القرن الخامس الهجرى ، حيث بدأوا هجومهم في سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٥م) على المدن الواقعة على السواحل الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط ، وتمكنوا بعد ذلك من إقامة أربع أمارات صليبية هي إمارة الرها ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس (١) .

ويرى بعض المؤرخين (٢) أن سبب مجيء هذه الحملات على الشرق الأدنى يرجع الى ان امبراطور القسطنطينية الكسيوس كومنين عندما ضاقت به السبل أمام حملات السلاجقة وانتصاراتهم المتكررة على الامبراطورية البيزنطية أرسل الى الكنيسة الغربية يستغيث بها وبمسيحييها ، ولكن ما نراه هو أن الأسباب الحقيقية لهذه الحملات تكمن في نواحي دينية وسياسية واقتصادية (٣) ، بل هناك أسباب شخصية كذلك (٤) ، بالإضافة الى النواحي الاجتماعية .

هذه هي الظواهر الثلاث التي تحكمت في تاريخ هذه المنطقة وأثرت في علاقات دولها السياسية ، في فترة من أخرج الفترات التاريخية في تاريخ الدولة الاسلامية في العصور الوسطى ، والتي كان من نتائجها أن استوعب المسلمون كامة واحدة الصدمة التي سببها الغزو الصليبي واستقرار الصليبيين في اماراتهم التي أقاموها على الأراضى التي فتحها المسلمون ونشروا بها الاسلام ، وبدأ رد الفعل من جانب المسلمين متمثلا في تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة التي غرس بذورها عماد الدين زنكى ، ورعاها ابنه

(١) Runciman; Die Kreuzzüge, S. 65.

(٢) Barker; Hist. of the Crusades, p. 16.

(٣) Runciman; op. cit., S. 72.

(٤) راجع الأسباب المتعددة للحملات الصليبية في كتابنا (العلاقات

بين الشرق والغرب ، ص ٦٠-٦٥) .

(نور الدين محمود) فتحقق له ضم بلاد الشام الى ما كان له في العراق وكان يأمل أن تكتمل هذه الجبهة بضم مصر لتكتمل له القوة الضاربة التي يواجه بها الصليبيين ، وسوف يتم هذا العمل على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب عندما تساعده الظروف السياسية التي دفعت به للمجيء الى مصر في اقامة دولة أيوبية تتولى اعلان حركة الجهاد ضد الصليبيين ، ذلك الجهاد الذي أصبح من أهم الدعائم التي قامت عليها دولة صلاح الدين في مصر والشام والتي يتمكن هذا البطل عن طريقها من استرداد بيت المقدس وكثير من مدن الساحل من أيدي هؤلاء الفرنجة الدخلاء ، مما سنتعرض له بالتفصيل في هذه الدراسة .

الفصل الثاني

مصر بين نور الدين محمود والصليبيين

نجح نور الدين محمود في أن يحوط على الامارات الصليبية من الشرق (العراق) والشمال (الشام) ولم يبق أمامه سوى الجبهة الجنوبية التي تمثلها مصر ليتم له تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة التي كان ينشدها والده عماد الدين زنكى ، والتي سعى نور الدين محمود جاهدا في تحقيقها .

والحقيقة أن نور الدين محمود كان مضطرا لضم مصر اليه لاستكمال تكوين هذه الجبهة ليتصدى بها للصليبيين ، لأنه كان لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا للضرورة ومضطرا ، واما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم (١) وهذا ما فعله مع دمشق وما سيفعله مع مصر آنذاك لأنه ان نجح في ضم مصر اليه أحاط المسلمون بالامارات الصليبية من جهات ثلاثة من البر ، وسوف يتولى الأسطول الاسلامي الجبهة الرابعة من البحر ، وبذلك يسهل طردهم من الاراضى المقدسة في الشام .

ولم يكن الصليبيون أقل تطلعا من نور الدين محمود الى امتلاك مصر . بل كانوا أكثر طمعا فيها . والأدلة على ذلك تلك المحاولات التي قاموا بها بمجرد استقرارهم في مملكة بيت المقدس للاستيلاء على مصر . فقد وضع جودفرى دى بوايون خطة للاستيلاء على مصر (٢) ، ولكنه قتل .

ويبدو أن الأسباب الشخصية لعبت دورا هاما وبارزا وكانت من الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية على منطقة الشرق الاسلامي ، فقد ذكرت بعض المراجع (٣) أن جودفرى دى بوايون وضع هذه الخطة لاحتلال مصر اشباعا

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) Caffari; Annali Genovesi di Caffaro e dei Suoi.

(٣) وكذلك باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٤٨ ،

لرغبته في الانتقام بسبب ما لحقه من اهانة أثناء زيارته لمدينة بيت المقدس ، حيث صفعه أحد حراس المدينة المقدسة حينذاك ، فقد حدث ذلك في رحلته مع صديقه الكونت روبرت الفلاندرز Robert of Flanders وبعض القادة الصليبيين حيث أبحر الجميع على السفينة الجنوبية بوميللا Pomella من ميناء جنوه الى الاسكندرية ، وفي هذه الأوقات التقى جودفري دى بويون بالخليفة الفاطمي المستعلى بالله وبوزيره الأفضل بن بدر الجمالي ، واتفق معهما على مجيء الصليبيين لمساعدة الفاطميين في القضاء على السلاجقة السنيين الذين هددوا بغزو مصر بعد أن تملكوا الشام ، وزعزعوا نفوذ الدولة الفاطمية في المنطقة ، وفي مقابل ذلك يحصل الصليبيون على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام بما في ذلك أنطاكية ، ويحتفظ الفاطميون بالأجزاء الجنوبية بما في ذلك بيت المقدس ، وتشير بعض الروايات التاريخية أن هذا الاتفاق تم أثناء حصار الصليبيين لمدينة أنطاكية أوائل عام ١٠٩٨م/٥٤٩١هـ .

وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول على مملكة بيت المقدس الصليبية بدأ في تنفيذ هذه الخطة التي تهدف الى توسيع مملكة بيت المقدس نحو الجنوب ، وذلك بالاستيلاء على مصر ، ليعزلها عن بقية العالم الاسلامي وليقطع طريق التجارة بينها وبين هذه الدول ، وليضمن عدم وقوع الامارات الصليبية بين شقى الرجى ، المتمثلة في قيام الجبهة الاسلامية المتحدة من العراق والشام ومصر ، لأن قيامها خطر على الوجود الصليبي في منطقة الشرق الأدنى .

الاستيلاء على وادى عربة :

بدأ بلدوين بالاستيلاء على وادى عربة جنوب البحر الميت . وأقام حصن الشوبك سنة ١١١٥م/٥٥٠٩هـ ليجعل منه ومن وادى عربة (١) مركزين متقدمين للقوات الصليبية للهجوم على مصر وللدفاع عن مملكة بيت المقدس

(١) وادى عربة : موضع في أرض فلسطين . البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ص ٩٢٨ .

الصليبية . فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم الى الحرمين الشريفين . ولم يلبث بعد ذلك أن سار الى أيله (ايلات) (١) على خليج العقبة ، وأقام بعض المراكز العسكرية بها . ثم واصل سيره جنوبا حتى وصل مع مجموعة من فرسانه الى دير سانت كاترين في جنوب شبه جزيرة سيناء . وأراد ومن معه النزول في الدير . فرفض رهبانه خوفا من الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله بن المستعلى في مصر فعادوا الى بيت المقدس .

العودة الى القدس وتكرار المحاولة :

لم يتخل بلدوين الاول عن تحقيق حلمه بالاستيلاء على مصر ، فخرج في مائتى فارس قبل وفاته ببضعة شهور (١١١٨م/٥١٢هـ) وعبر الطريق الساحلى من غزة الى العريش ومنها سار الى الفرما فوصلوها يوم ٢١ مارس ١١١٨م فوجدوها خالية من أهلها . عامرة بالزاد والمؤن . لأن أهلها تركوها خوفا من الصليبيين . فدخلوها وأحرقوا المسجد الجامع بالمدينة . وخبروا مساجدها ثم واصلوا سيرهم الى مدينة تانيس على بحيرة المنزلة .

وفيهما أصيب بالمرض نتيجة تناوله أكلة سمك من البحيرة . فانصرف عائدا . وقبل أن يصل الى العريش داهمه الموت . فشق أصحابه بطنه وصبروه ، ورموا بأحشائه هناك في المكان الذى يعرف اليوم بسيخة بردويل (بحيرة البردويل) نسبة اليه . وهى على بعد ٩٠ كم شرقى بورسعيد . وسوف تظل فكرة الاستيلاء على مصر في مخططات الصليبيين حتى تتاح لهم فرصة تنفيذها خاصة وأن طريق التوسع أمامهم في الشام أصبح أمرا متعذرا بعدما أصبحت الشام كلها في أيدي نور الدين محمود .

(١) ايلات : على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام ، وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا في السبت . البغدادى : مراصد . ج ١ ص ١٣٨ ، ياقوت : ج ١ ص ٢٩٢ .

وسيجد عمورى Amalric I (١) ملك بيت المقدس الفرصة سانحة للزحف على مصر عندما يتحرك نور الدين محمود ، ويبعث بجيوشه اليها . ويرجع السبب فى ذلك الى ضعف أواخر الخلفاء الفاطميين فى مصر (٢) والنزاع الذى دب بين الوزير شاور (٣) وصاحب الباب ضرغام (٤) وفرار شاور الى نور الدين محمود فى الشام فى ٧ ربيع أول سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م يستنجد به ضد ضرغام الذى استولى على الوزارة منه ، وتعهد شساور لنور الدين محمود أن يدفع اليه ثلث ايراد مصر ، وأن يعلن ولاءه الى نور الدين محمود عندما تعود اليه مقاليد الحكم .

الحملة النورية الأولى ٥٥٩هـ / ١١٦٣م :

وافق نور الدين محمود على هذا العرض ليحقق هدفه فى استكمال تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة التى تمكنه من مجابهة الصليبيين . واسترجاع المدن التى احتلوها على الساحل .

وأمر بمسير جيش كبير بقيادة أسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . وكان فى السابعة والعشرين من عمره . سار هذا الجيش وفى معيته الوزير الهارب شاور ، وخرج نور الدين محمود بجيش آخر الى أطراف الامارات الصليبية المجاورة لحدود بلاده ، لكى يشغل الصليبيين عن التعرض لجيش شيركوه .

سار أسد الدين شيركوه بجيشه شرقى الكرك والشوبك فوصل الى

-
- (١) عمورى Amalric I : ولى الملك بعد أخيه بلدوين الثالث .
(٢) راجع ابن واصل : (مفرج ، ج ١ ص ١٣٧-١٣٨) حيث يذكر «... والحكم للوزراء ، من قهر بالسيف أخذها ، والخلفاء بمصر تحت قهرهم ، وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله » .
(٣) شاور : هو شاور بن مجير السعدى (أبو شجاع) ابن واصل نفس المرجع السابق .
(٤) ضرغام : هو ضرغام بن سوار وكان يلقب (بالمنصور) ابن واصل نفس المرجع .

العقبة (١) ومنها الى صدر (٢) ثم الى السويس حتى وصل الى البركة (٣) ،
وعلم ضرغام فاصابه الفزع لان الجيش الفاطمى فى مصر كان على درجة كبيرة
من الضعف والتفكك .

واسرع ضرغام الى الاستعانة بالصليبيين فارسل الى عمورى ملك بيت
المقدس يطلب مساعدته ضد جيش نور الدين محمود . وتعهد له بدفع مبلغ
كبير من المال ومن الطبيعى أن يقبل عمورى هذه الدعوة فورا ، لأنها
تتفق ومخططة فى التوسع جنوبا نحو مصر وأمر بمسير الجيش الى مصر .

وصل شيركوه الى مصر بجيشه قبل أن تصل جنود عمورى من الصليبيين
ولقى الجيش الفاطمى بقيادة ناصر الدين أخى ضرغام فى بلبس فهزمه .
وفر ناصر الدين مع فلول جيشه الى القاهرة ، وتتبعه أسد الدين شيركوه
بجيشه ، ودخل القاهرة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م حيث
التقى بضرغام نفسه على رأس جيش آخر فانزل به الهزيمة . فتخلى الجنود
عنه وتركه جميع أعوانه ، فقتله بالقرب من مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن
ابن زيد بن الحسن بن على ، رضى الله عنهم ، كما قتل أخاه وكثيرا من جنوده
وأعيد شاور الى منصبه فى الوزارة (٤) .

عسكر أسد الدين شيركوه بجيشه فى بلبس - شرقى الدلتا - ليدفع
الصليبيين عن مصر ، ولكن شاور طلب منه العودة الى الشام (٥) ، ورفض

(١) العقبة : كانت تسمى عقبة أيله ثم اختصر الاسم بعد ذلك
(المقرئى) الخطط ج ١ ص ٢٩٨-٣٠٠ .
(٢) صدر : يذكرها ياقوت بأنها قطعة خراب فى الطريق من أيله
الى القاهرة .

(٣) البركة : هى بركة الجب وتقع فى الجهة البحرية (شمال) من
القاهرة : عرفت أولا بجب عميرة ثم بأرض الجب ، وفى زمن المقرئى سميت
بركة الحجاج لنزول الحجاج فيها عند خروجهم من مصر وعند عودتهم لها -
المقرئى ، الخطط ج ٣ ص ٢٦٥-٢٦٧ .

(٤) ابن الاثير : الكامل : ج ١١ ص ٢٩٩ .
(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٣١ .

• أن يعطيه المال الذى تعهد به • فاتخذ أسد الدين شيركوه اقليم الشرقية
معسكرا الجنوده • وتحصن به واصبح تحت سيطرته وحكمه (١) •

عندئذ لجأ شاور الى الصليبيين كما فعل ضرغام من قبل • ووعد
عمورى ملك بيت المقدس مبلغا كبيرا من المال نظير مساعدته • ورحب
بهمورى هذه المرة كذلك • فربما يتحقق حلمه فى امتلاك مصر • وأسرع
بالمسير بالجيش ، لأنه كان يخشى أن يمتلك نور الدين محمود مصر ، تصبح
قوى الصليبيين واماراتهم واقعة بين شقى الرحى • محصورة من الشمال
والجنوب تحيط بها قوى نور الدين محمود فى الشام ومصر •

وصل عمورى بجيشه وحاصر بلبيس ، وانضمت اليه قوات شاور واستمر
الحصار ثلاثة شهور (٢) والمدينة صامدة لم ينالوا منها غرضا ، مع أن أسوارها
من طين وليس لها مخندق يحميها • ووصلت هذه الأخبار الى نور الدين
محمود ، فجمع جيشه وهاجم المدن الصليبية القريبة منه ، وشدد هجومه
على حازم وبانياس (٢) وطبرية وغيرها •

وعلم عمورى بما فعله نور الدين محمود ، وأنه استولى على حارم
فخاف على مملكته فى بيت المقدس ، وعرض الصلح على أسد الدين شيركوه
بشرط خروج الفريقين معا من الاراضى المصرية • ووافق شيركوه لشدة نقص
الأمدادات والقوات عنده ولغلبة جند عمورى وشاور على جنوده • وخرج
بجنوده عائدا الى الشام فى ذى الحجة سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م • وعاد عمورى
هو الآخر بجيشه الى بيت المقدس •

- (١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٧ •
(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٧ ، ابن واصل : مفرج ،
ج ١ ص ١٤٠ •
(٣) ابن واصل ، مفرج ، ج ١ ص ١٤٠ ، وكذلك :

الحملة النورية الثانية ٥٦٢هـ / ١١٦٧م :

انسحب كل من الرجلين (أسد الدين شيركوه وعموري) مضطرا ومكرها ولكنه كان يفكر في العودة اليها طمعا في ثروتها ، واستغلالا لموقعها . وشجعهما على ذلك ما لمساه بنفسيهما من ضعف شديد أصاب مصر . فقد وقف أسد الدين شيركوه على سوء احوال الحكومة الفاطمية في مصر ، واكتشف مواطن الضعف فيها ، وتطلع أن يعود اليها ليفتحها ، ويكون نائبا لنور الدين محمود عليها ، وساعدته الظروف بتشجيع الخليفة العباسي لكل مشروع يرمى الى اسقاط الخلافة الفاطمية ، ومكاتباته الى جميع الأمراء يطلب اليهم مساعدة أسد الدين شيركوه (٢) ثم أخذ أسد الدين شيركوه يتلمس الاسباب عند نور الدين . ويلج عليه حتى يزوده بجيش أكثر عددا من الجيش الأول ، وأوفر عتادا وعدة ، لكي يعسود به الى مصر (٢) وأخذ يشرح لنور الدين محمود تخوفه من هجوم صليبي عليها وامتلاكها . وقد تردد نور الدين محمود في أول الأمر خشية تفرق قواته في الوقت الذي كثرت فيه الاشتباكات بينه وبين الامارات الصليبية القريبة منه . ولكنه كان مدفوعا في نفس الوقت للموافقة على ما طلبه شيركوه لكي يضم مصر اليه لاستكمال تكوين الجبهة الاسلامية الموحدة خاصة وأنه كان سنى المذهب . ويرى في وجود خلافة فاطمية شيعية في مصر سببا من الاسباب التي تؤدي الى استمرار ضعف الأمة الاسلامية ، ويعطله عن تحقيق الهدف الذي يسعى اليه . لذلك فكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر .

أمر نور الدين محمود بخروج جيش كبير مع أسد الدين شيركوه . وساعدته الظروف السياسية عندما أرسل الخليفة العاضد الفاطمي الى نور الدين محمود يشكو من ظلم شاور واستبداده (٣) وكان نور الدين محمود

(١) William of Tyre, II; p. 314. وكذلك العريني : الايوبيون ،

ص ٣٤ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٣) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٢ .

حانقا على شاور بسبب غدره وخيائنه وعدم وفائه بوعده الذى اتفق عليه مع نور الدين محمود ولأنه استنجد بالصليبيين أعداء الدولة الاسلامية . ولهذا عجل بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر .

خرج شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي فى ألفى فارس غير ألف من المشاة وتحركوا فى ربيع الأول ٥٦٢هـ / ١١٦٧م (١) وسار نور الدين محمود فى قوات أخرى خلفهم ليحمى ظهرهم حتى وصلت الحملة أطراف الشام . واستمرت الحملة فى مسيرها حتى دخلت مصر ووصلت الى أطفيح (٢) ومنها عبر شيركوه وجيشه نهر النيل وعسكر فى الجيزة على الضفة الغربية من النهر فى مواجهة القسطنطينية بمصر القديمة وأقام بها أربعاً وخمسين يوماً (٣) حتى تتضح له نوايا شاور .

أرسل شاور الى عمورى يستنجد به للمرة الثانية . وأسرع عمورى بالخروج على رأس جيشه فى نهاية ربيع الآخر سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م . وعسكر شاور بالجيش الفاطمى فى مدينة بلبيس انتظاراً لوصول حليفة عمورى . ولما وصل عمورى بجيشه وتكامل لقاء الحليفين . اتجهت الجيوش الصليبية والفاطمية الى مصر وعسكرت على الضفة الشرقية من النيل فى مواجهة قوات شيركوه . وتمكن عمورى من عقد اتفاق مع شاور يقضى بدفع ٤٠٠ ألف دينار للقوات الصليبية نظير مساعدتهم له فى طرد قوات نور الدين محمود بقيادة شيركوه ، واجلائهم عن مصر ، واشترط عمورى أن يدفع شاور له نصف هذا المبلغ مقدماً (٤) ومعنى ذلك أن شاور اتخذ من الصليبيين حامياً له وللخلافة الفاطمية فى مصر . وقد حرص عمورى على اضعاف الصيغة الرسمية

-
- (١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٤٢ ، وسبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ق ١ ص ٢٦٨ .
(٢) مدينة قديمة كانت تسمى فى العصر اليونانى (افرودتيو) وهى الآن قرية فى مركز الصف بالجيزة . على مبارك : الخطط ج ٨ ص ٧٧-٧٨ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ .
(٤) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥٠ .

على هذا الاتفاق . فبعث سفارة من خاصته الى الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله) حيث حصلت على موافقته على هذا الاتفاق .

عبر الجيشان المتحالفان - جيش عمورى وجيش شاور - نهر النيل الى الضفة الغربية وكانت الأخبار قد وصلت الى أسد الدين شيركوه عن هذا التجمع الكبير من هذين الجيشين ، وأدرك شيركوه حرج موقفه بعد عبور خصومه للنيل وضرب معسكرهم في جزيرة الروضة .

فقرر الانسحاب الى جنوب مصر ولعله أراد بهذا الانسحاب أن ينهك قسوة خصومه بسبب سيرهم هذه المسافة الطويلة فيتمكن من ملاقاتهم . والدخول معهم في حرب سريعة ، وانزال الهزيمة بهم .

وعسكر أسد الدين شيركوه بقواته بالأشمونين قريبا من المنيا في مكان يعرف بالبابين . ولما علم أسد الدين شيركوه بكثرة عدد الصليبيين والمصريين وما معهم من عتاد وعدة ، خشى على جنوده واستشار معاونيه ، فأشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعودة الى الشام . وخالفهم في رأيهم الأمير شرف الدين برغش أحد مماليك نور الدين محمود وقال لهم : « من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون في بيته مع امرأته . والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة وبلاء نعذر فيه ، لياخذن أموالنا ، وما معنا من الاقطاع والجامكية (١) وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه والى يومنا هذا . ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل مصر الى الكفار » (٢) فأخذ أسد الدين شيركوه بهذا الرأي ووضع خطته مع ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على أن يكون في

(١) معناها المراتب Dozy; Supp. Diet. Arab ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥٠ .

(م ٥ - صلاح الدين)

القلب ومعه معظم العساكر لأن جنود الفاطميين والفرنجة يجعلون هجماتهم على القلب ، وأعطى تعليماته الى صلاح الدين بعدم الهجوم على خصومهم ، وأن يتقهقروا أمام هجماتهم وهم متماسكون وإذا عادوا الى مكان المعركة فارجعوا في أعقابهم في تماسك وحذر .

انتقى أسد الدين شيركوه مجموعة من المقاتلين والفرسان وجعلهم معه في الميمنة . فلما اندفع الصليبيون والفاطميون في هجومهم على القلب في جمادى الآخرة سنة ٥٦٢ هـ / أبريل ١١٦٧م نفذ صلاح الدين الخطة الموضوعة ، وتقهقر فتبعته تلك القوات . وعندئذ أتاحت الفرصة لأسد الدين شيركوه ومن معه من الفرسان في الانقضاض على مؤخرة الجيشين الحليفين . وأنزل بهم الهزيمة المرة . ولم يترك منهم سوى الجريح . فلما عادت القوات المتحالفة (صليبية وفاطمية) ورأوا الهزيمة التي أبادت عسكرهم . عادوا من فورهم الى الضفة الشرقية من النيل حيث كان معسكرهم عند الفسطاط (١) . ويقول صاحب الروضتين (٢) عن هزيمة الفرنج : « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل » . وكان من الممكن أن ينجح شيركوه في امتلاك القاهرة لو أنه تعقب عمورى وجيشه بعد الهزيمة مباشرة . ولكنه أخذ يسير ببطء على الضفة الغربية للنيل حتى وصل الى الاسكندرية فسلمها أهلها اليه ليلهم الى المذهب السنى ، وتعبيرا منهم عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين (٣) .

أناب أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على الاسكندرية ، وترك معه حامية من الجند يقدر عددها بحوالى ألف جندى .

وعاد شيركوه بمن معه من الجند الى الصعيد فاستولى عليه . وجبى

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥١ .

(٢) أبو شامة : ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم : ج ٥ ص ٣٥٩ ، وأبو شامة : الروضتين

ج ١ ص ١٤٥ .

أمواله وأقام به ، وكانت هذه مدة كافية لعمورى وشاور أن يصلح كل منهما جنده . ويعيد تنظيمه لمعاودة الهجوم ضد شيركوه .

عمورى وشاور يهاجمون الاسكندرية :

ووجد عمورى وشاور فرصتهم فى الاسكندرية لعلمهم يحرزون نصرا حاسما على صلاح الدين الأيوبي ، فساروا اليها وحاصروها من البر والبحر . وشدوا عليها الحصار حتى قل عند أهلها الطعام وصمد صلاح الدين الأيوبي وصمد معه شعب الاسكندرية الى أن ساءت حالتهم (١) وأصبح موقف صلاح الدين حرجا لقلة عدد جنوده ، وأرسل الى قائده أسد الدين شيركوه يطلب منه النجدة فاسرع شيركوه بجنوده نحو القاهرة يريد حصارها والاستيلاء عليها ، فاضطر شاور وعمورى الى رفع الحصار عن الاسكندرية ، وعادوا الى القاهرة خوفا من سقوطها فى يد أسد الدين شيركوه . وأرسل عمورى وشاور من ينوب عنهما فى طلب الصلح من أسد الدين شيركوه . وكان الدافع لذلك أن الأخبار وصلت عمورى بتشديد هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين فى الشام خاصة فى بانياس وحصن الأكراد (٢) فتقدم بطلب الصلح ووافق أسد الدين شيركوه بعد أن دفع له الصليبيين والفاطميون خمسين ألف دينار (٣) ، واشترط عليهم عدم بقاء الصليبيين فى مصر فوافقوه على ذلك فى شوال من هذه السنة . ولكن عمورى لم يخرج من مصر الا بعد أن عقد اتفاقية سرية مع شاور تنص على بقاء حامية صليبية تشرف على ابواب القاهرة ، وتدافع عنها اذا ما فكر شيركوه فى العودة اليها ، وان يدفع شاور جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار (٤) وأن يكون له مندوب خاص يشارك مع شاور فى شئون الحكم .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٢٦ .

(٢) Wiet; op. cit., p. 296.

(٣) المقدسى : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ،

ج ٥ ص ٣٥٠ .

الحملة النورية الثالثة ٥٦٤-٥٦٥هـ/١١٦٨-١١٦٩م :

لم يكن أسد الدين شيركوه هو السباق الى دخول مصر في هذه الحملة كما حدث في المرتين السابقتين ، وانما كانت الحامية الصليبية التى أبقاها عمورى في مصر هى السبب فى دفع القوات الصليبية الى المجئ الى مصر لامتلاكها . فقد تمكنت هذه القوات من الاطلاع على عورة مصر وطمعوا فيها ، وأيقنوا أنه ليس لديها القوة التى تذود وتدافع بها عن نفسها أمام أى راغب وطامع فيها(١) ، فقد كتب ضباط الحملة الصليبية الى عمورى وأخبروه بخلوها من التحصينات والمواقع ، وهونوا عليه أمرها ، وانضم الى هؤلاء الصليبيين نفر قليل من أعيان المصريين ممن غلبوا مصالحهم الشخصية ، ومنفعتهم الذاتية ، ودفعهم عامل الحقد على شاور والكيد له أن يتخذوا من خيانة أوطانهم ، وبيع دينهم بدنياهم ، والتغاضى عن شرفهم وكرامتهم ، وسيلة للوصول الى مآربهم ، فكتبوا الى عمورى بسرعة الحضور لامتلاك مصر . وكان من ضمن هؤلاء الخونة يحيى بن الخياط وكان من قواد الجيش الفاطمى فى مصر وكذلك ابن قرجلة(٢) .

عمورى يستعين ببيزنطة :

رأى عمورى أنه لابد من الاستعانة بقوة خارجية ، فأتجه الى الدولة البيزنطية باعتبارها أقرب الدول المسيحية اليه ، وعقد مع امبراطورها

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٢) كان يحيى بن الخياط من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع ابن رزيك ، ثم أصبح من رجال شاور ، بل أصبح اسفهلار العساكر فى أول عهده ، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى مدينة قوص وطلب الوزارة لنفسه ، ولكن الكامل بن شاور هزمه وأخضع حركته . أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٧٠ ، ٢٢٦ . وعماره ويمنى : النكت العصرية ، ص ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٤٩٥ . وابن الاثير : الباهر ص ١٣٨ .

مانويل كومنين حلفا ، ودعم هذا الحلف بالزواج السياسى حيث تزوج بابنة
اخى الامبراطور (الاميرة مارى) وكان السفير فى هذا الامر هو المؤرخ
الصليبي وليم الصورى William of Tyre ، وكان الاتفاق أن تقوم حملة
مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر ، ولكن حالت مشاغل
الامبراطور فى البلقان دون تنفيذ هذا الاتفاق ، وطلب تأجيله بعض الوقت ،
وكان ذلك من حسن حظ مصر ونور الدين محمود ، وكان من الممكن لعمورى
أن ينتظر بعض الوقت لولا أن شاور تنكر لوعوده والالتزامات التى ارتبط
بها مع عمورى - كعادته - فى الاتفاقية التى أبرمت قبل ذلك ، ويبدو
أن شاور اضطر تحت ضغط الرأى العام الاسلامى من جانب ، وخشية أن
تضيع مصر من يديه اذا ما دخلها البيزنطيون وعمورى معا من جانب آخر .
اضطر الى أن يغير سياسته ويقلبها رأسا على عقب - فاتصل بنور الدين
محمود طالبا مساعدته على التخلص من القوة الصليبية الموجودة فى مصر (١) .

عجلت هذه العوامل بقدوم عمورى الى مصر بجيشه منفردا دون حليفه .
فوصل الى بلبيس أوائل صفر ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ووقف شعب بلبيس مع الحامية
المصرية الموجودة بها يقاومون معا عمورى وجيشه ، واستبسلوا فى الدفاع عن
بلدهم . فلجأ عمورى الى الشدة حيث قتل وسبى وأسر منهم الكثير (٢) ثم
انحدرت قواته مسرعة نحو القاهرة وعسكرت جنوب الفسطاط فى العاشر من
صفر فى مكان يسمى بركة الجيش . وأصيب شاور بالهلع والفرع لخرج
موقفه ، وضعف مركزه ، وقرب زوال سلطانه . فحاول أن ينقذ ماء وجهه
فبدأ يستعد للدفاع عن القاهرة . وأمر باخلاء الفسطاط ، ونهبها وحرقها ،
وظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوما (من ٩ صفر حتى ٥ ربيع
الآخر) (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٥٧ ، أبو شامة :
الروضتين ، ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٨ .

(٣) المقدس : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ .

لجأ شاور الى المداهنة والنفاق . ف ارسل الى عمورى يذكر له مودته ومحبتة ، وانه مجبر على هذا العمل ، لان المسلمين لا يوافقون على التسليم ، ويطلب الصلح لئلا يسلم البلاد الى نور الدين محمود ، ووافق عمورى وطلب الف الف دينار ، ولكن شاور قدم اليه مائة ألف وأخذ يماطل فى الباقي حتى يتضح له الموقف لانه كان قد أرسل فى نفس الوقت الى نور الدين يطلب منه النجدة ضد عمورى . كذلك أرسل الخليفة الفاطمى العاضد بالكتب يطلب النجدة من نور الدين ، ولكى يثير شعوره ويحثه على الاسراع ، أرسل فى طى هذه الكتب خصلات من شعور نسائه ونساء القصر ، وتعهده الخليفة العاضد بتقديم ايراد ثلث البلاد الى نور الدين محمود ، وان يقدم المعونات اللازمة الى شيركوه من مصر .

استجاب نور الدين محمود لهذه الاستغاثة التى وصلت اليه من الخليفة الفاطمى بمصر . وأمر بمسير جيش كبير بقيادة أسد الدين شيركوه ، بعد ان جهزه بالعتاد والمال . فقد أنفق على تجهيزه مائتى الف دينار ، وأعطى كل فارس عشرين دينارا غير محسوبة من المخصصات الثابتة له فى الديوان (١) .

وحاول صلاح الدين الأيوبي عدم الخروج فى هذه الحملة نظرا لما أصابه فى الاسكندرية . ومما سببه أهلها على أيدي الصليبيين . ولكنه اضطر الى الخروج مع عمه أسد الدين شيركوه بعد الحاح عمه ورغبة نور الدين محمود الذى ألزمه بالخروج (٢) وقد ذكر صلاح الدين ذلك بنفسه فى حديثه للقاضى بهاء الدين بن شداد قاضى حلب - فى قوله « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » (٣) . تحرك

(١) العماد الأصفهاني : البرق الشامى . ق ١ ورقة ٧٥-٧٦ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩-١٦٠ ، Gibb; Life of Saladin, p. 119.

(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٣٩ .

جيش نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه في ربيع الاول ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وسلك طريق الصحراء حتى يتفادى الدخول في حرب مع القوات الصليبية ، فوصل القاهرة في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ . والتف المصريون حوله ورحبوا به ، ليدفعوا به الصليبيين عن أنفسهم . فأدرك عمورى صعوبة موقفه ، واستحالة الاستيلاء على القاهرة بعد أن انضم أهلها الى شيركوه وقواته . فارتد الى بلبيس منسحبا مع قواته الصليبية . ومنها أسرع بالعودة الى مملكة بيت المقدس في أواخر صفر ٥٦٤هـ / آخر نوفمبر ١١٦٨م (١) وهكذا كان انضمام شعب مصر الى أسد الدين شيركوه ، وقوات الشام واتحاد كلمة المسلمين من أهم الأسباب التى دفعت عمورى ، والقوات الصليبية الى الانسحاب من مصر وتركها خوفا من أن يصابوا بهزيمة محققة على أيدي هذه القوات الاسلامية العظيمة ، وخشية أن يهاجم نور الدين محمود بقايا القوات الصليبية في الشام ، فينزل بها هو الآخر هزيمة ساحقة .

لقى أسد الدين شيركوه في القاهرة ترحيبا كثيرا وأحبه المصريون لانه دفع عنهم ظلم الصليبيين ، وظلم شاور ، ورحب الخليفة العاضد بمقدمه واستقبله ، وخلع عليه الوزارة وكرمه . وتقرر له ولقواته الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة (٢) .

اضطربت نفس شاور لهذه النتيجة التى وصل اليها أسد الدين شيركوه وأحس أن سلطانه زائل لا محالة ، فامتلك حقدًا وغيظا ، وأخذ يتظاهر بالورع والتقوى ، ويذهب كل يوم لزيارة قبر الامام الشافعى (رضى الله عنه) ليجذب اليه قلوب المصريين ، ولجأ الى المصانعة ، وتقرب الى أسد الدين شيركوه . وفى نفس الوقت دبر له مؤامرة للفتك به .

بأن يدعوهم مع أمرائه لوليمة ثم يقبض عليهم ويتخلص منهم . ولكن

(١) ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٥٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج ج ١ ، ص ١٦١ .

ولده الكامل (بن شاور) اعترض ونهاه وقال له : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين شيركوه » فقال أبوه « والله لئن لم نفعل لنقتلن جميعا » فأجابه الابن . . « صدقت » . ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على أسد الدين شيركوه ، وحينئذ لو مشى الخليفة العاضد الى نور الدين لن يرسل جنديا واحدا ، ويملك الفرنج البلاد « (١) فعاد شاور الى أسلوب الماطلة في تنفيذ العهود والالتزامات التي لنور الدين محمود .

اجتمع أعيان المصريين وقالوا لأسد الدين شيركوه : ان شاور سبب فساد البلاد والعباد وطالبوا بقتله . وانقاذ المسلمين من شره (٢) وتدارس شيركوه وصلاح الدين الأيوبي وسائر الأمراء ما طلبه المصريون - فكتبين لهم خيانة شاور وغدره ، وعدم وفائه بالعهود ، وقرروا قتله . وانتهز صلاح الدين الأيوبي ومعه الأمير عز الدين جوديك فرصة قدوم شاور لزيارة أسد الدين شيركوه الذي كان في مسجد الامام الشافعي ، واصطحباه الى هناك . وفي الطريق قبضا عليه وأودعاه سجينا في خيمة . ولما علم الخليفة العاضد بالخبر . أمر بأن يحمل رأس شاور الى القصر .

وقتل شاور في السابع من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م (٣) وانتهت حياته بعد أن استغل النزاع القائم بين الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء ليبقى على سلطانه ، فكان مقتله خاتمة للمتعاب التي تعرضت لها مصر في

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٦-١٥٧ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٠-٧٠١ . تشير بعض المراجع ان اعدام شاور كان بناء على أوامر الخليفة العاضد وان الذي قام بتنفيذه هو صلاح الدين ، (جب) : صلاح الدين ص ١١٩ .

(٣) قام الأمير عز الدين جرديك بتنفيذ حكم القتل في شاور وحز رأسه وجعلها مندوب الخليفة العاضد للقصر ، وليس صلاح الدين كما تذكر بعض المراجع ذلك ، راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٧-١٥٨ .

أواخر العصر الفاطمي (١) ولم يعد للصليبيين من ينصرهم ، أو يستنجد بهم ضد المسلمين كما كان يفعل شاور .

شريكوه وزيرا في مصر :

أعلن الخليفة العاضد تعيين أسد الدين شريكوه وزيرا له ، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش ومما ورد في منشور الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شريكوه الوزارة ما يلي « ... الى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شريكوه ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته . سلام عليك . فانه يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ... » وقد كتب الخليفة العاضد بخط يده في هذا المنشور تعبيرات منها « هنا عهد لم يعهد لوزير مثله ... » وختمه بالآية الكريمة « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ... » صدق الله العظيم (٢) .

وسمح للناس بنهب قصر شاور ، واستقرت الأمور في مصر لأسد الدين شريكوه ومدحه الشعراء بقصائد كثيرة نختار أبياتا من بعضها (٣) .

بالجـد أدركت ما أدركت لا باللعب

كم راحة جنيت من دوحـة التعب

تمـل من ملك مصر رتبة قصرت°

عنها السلوك فطالت سائر الرهـتب

فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها

ميسـرا فتح بيت القدس عن كـثب

(١) العرينى : الأيوبيون ، ص ٣٨ .

(٢) سورة النحل الآية ٩١ .

(٣) هذه الابيات مختارة من قصيدة بعث بها العماد الأصمقهانى الكاتب

من الشام - راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٥٩ .

انت الذى هو فرد من بسالته
والدين من عزمه فى جحفل لجب
.....

يشكو اليك بنو الاسلام يُتمهم
فقت فيهم مقام الوالد الحذب
فى كل دار من الافرنج نادبة
بما دهاهم ، فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد ، فكم
وكم قضيت لحزب الله من ارب

ولكن الموت عاجل أسد الدين شيركوه ، فقد توفى بعد شهرين وخمسة
أيام من توليه هذا المنصب (توفى يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة
٥٦٤هـ / ٢٣ مارس ١١٦٩م) (١) فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف
الأيوبى (٢) .

وقبل أن تنتقل فى دراستنا الى الدولة الأيوبية فى مصر والشام ينبغى
أن نلقى نظرة سريعة بايجاز على نشأة وحياة وصفات مؤسس هذه الدولة ،
لنقف على أثر البيئة التى تربية فيها ، ومدى ما تمتع به من صفات دفعته
الى مركز الزعامة الحققة ، والقيادة الحكيمة ، لأن البيئة تؤثر فى نشأة الفرد
وتربيته ، وصفات هذا الفرد وسلوكه وأخلاقه عنوان لشخصيته ، وهذه
أضواء مسلطة على الانسان يستطيع الباحث أن يستشف من خلالها الكثير من
قدرات هذا الفرد ، هذه القدرات التى تمهد له سبل النجاح أو ترديه فى
مسالك الفشل .

(١) كان أسد الدين شيركوه محبا لكثرة الاكل وخاصة اللحوم المدهنة ،
فأصيب بسبب ذلك بالتخمة والخوانيق ، وكان يعانى منها كثيرا ولكنه لم
يمنتع ، وكان موته بسبب خانوق عظيم قضى عليه .
(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، وكذلك أبو شامة : المرجع السابق
نفسه .

الفصل الثالث

صلاح الدين الأيوبي

نشأته وحياته وصفاته :

هو يوسف بن أيوب بن شاذى ، موطن أسرته بلدة دوين (١). وترجع أصولهم الى الأكراد الزاودية (٢) أحد بطون الهذيانية (٣) . وكان شاذى قدم بأسرته الى العراق ، ودخل ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فى خدمة مجاهد الدين بهروز (٤) الخادم ، شحنة (٥) بغداد ، فلما رأى اخلاص نجم الدين أيوب ولاءه دزدارا على تكريت (٦) التى أعطيت له من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى .

أقام نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه فى تكريت مدة من الزمان الى أن وقع صدام بين عماد الدين زنكى بن آقسنقر والخليفة العباسى المسترشد بالله الفضل بين المستظهر بالله سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م (٧) وأصيب

(١) بلدة من نواحي أراكان . آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس ، فيها ولد نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . راجع ياقوت : المعجم ، ج ٢ ص ٤٩١ وكذلك ابن خلكان : الوفيات ج ٣ ص ٤٧٠ حيث ضبطها دوين .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٥٤ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢ .
(٤) بهروز : كلمة أعجمية مكونة من لفظين : به ومعناها جيد ، روز ومعناها يوم ، فالمعنى يوم جيد ، أو طيب ، واسمه كاملا مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياني ، وكان خادما روميا أبيض البشرة ، تولى شحنة بالعراق من قبل السلطان مسعود السلجوقى ، توفى فى رجب سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥-١١٤٦م .

(٥) ومعناها رئيس الشرطة أو مدير الأمن المشرف على حراسة المدينة ، وكان الناس يطلقون هذا الاسم بمعنى الأمير فى العصور الوسطى ، وهو خطأ شائع فى ذلك الوقت . المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ ، وكذلك : Dozy : Sup. Dict. Arab. (art shihnah)

(٦) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ولها قلعة حصينة تطل على غرب دجلة . ياقوت : نفسه ، ج ١ ص ١ ، وكلمة دزدار معناها متولى القلعة ، وهى أعجمية من لفظين دز = قلعة ، دار = مالك أو حافظ . راجع الحواشي : المغرب ، ص ٢٦٧ .

(٧) راجع تفاصيل هذا الصدام (الحرب) فى المنتظم ، لأبن الجوزى (ج ١٠ ص ٢٦) وكذلك ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٩ .

عماد الدين زنكى بالهزيمة على يد قరాچة الساقى فى بغداد فانسحب الى تكريت (١) ، فاقام له نجم الدين أيوب المعابر وقدم له السفن التى عبر بها نهر دجلة مع جنوده ، كما قدم له المساعدات وبالح فى اكرامه ، فحفظ عماد الدين هذا الصنيع وهذا الجميل لنجم الدين أيوب .

وحدث ان نجم الدين أيوب كان يرمى ذات يوم بالنشاب ، فاصيب مملوك بهروز الخادم بواحدة منها فقتل (٢) ، وخاف بهروز على نفسه فامر باخراجهم من القلعة لأنه كان غاضبا من قبل على نجم الدين أيوب لتقديمه المساعدة الى عماد الدين زنكى الذى حاصر الخليفة فى بغداد ، ووقف يساعد مسعود بن محمد بن ملكشاه الذى حاول عزل أخيه الخليفة ، ولكن عماد الدين هزم وفر الى تكريت . فى هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بنجم الدين أيوب ولد يوسف (صلاح الدين) فى تكريت سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م (٣) ، مما يقطع بأن اقامة نجم الدين أيوب فى تكريت لم تطل بعد ولادة صلاح الدين يوسف .

توجه نجم الدين أيوب بأسرته ومعه أسد الدين شيركوه الى عماد الدين زنكى فى الموصل ، فأحسن اليهما ، وأقطعهما اقطاعات كثيرة ، وأدخلهما فى خدمته ، وعندما فتح عماد الدين زنكى بعلبك جعل نجم الدين أيوب دزدارا على قلعتها فى سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٩م ، ففضى صلاح الدين يوسف بها طفولته وجزءا من شبابه ، حيث أشرف والده على تربيته ، فقد كان نجم الدين أيوب ذا عقل راجح ، ورأى سديد ، وسيرة حسنة (٤) .

-
- (١) ابن الاثير : الدولة الاتابكية ص ٨٢ .
(٢) جاء فى بعض المراجع ان أسد الدين شيركوه هو الذى قتل المملوك خطأ ونحن نميل الى ما أثبتناه .
(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٦ ، ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧٤ .
(٤) ابن الاثير : الدولة الاتابكية ، ص ٢١٣ .

ويبدو ان الظروف السياسية التي كانت تحيط بعماد الدين زنكى وطموحه فى توسيع ملكه ، وضم الامارات المجاورة له والقريبة من الموصل لى يحقق حلمها طالما راوده وهو تكوين جبهة اسلامية متحدة من العراق والشام تنضم اليهما مصر لمجابهة الصليبيين وطردهم من الاراضى الاسلامية . هذه الظروف وهذه الطموحات ربطت بين نجم الدين أيوب ومعه أخيه اسد الدين شيركوه وبين الأتابك عماد الدين زنكى ، وسوف يستمر هذا الرباط فى عهد ولده نور الدين محمود من بعده .

فلما قتل عماد الدين زنكى فى جعبر سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م راسل مجير الدين أبى - صاحب دمشق - وأتابكه معين الدين أنزى (١) راسلا نجم الدين أيوب ليسلم لهما بعلبك مقابل اقطاع كبير فى دمشق ، فوافقهما على ذلك وسلم اليهما بعلبك ، ونزل على دمشق فى اقطاعه الجديد . ويبرر بعض المؤرخين تسليم بعلبك من جانب نجم الدين أيوب انه بعث الى الامير سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى (صاحب الموصل) - وهو الاخ الاكبر لنور الدين محمود - برغبته فى تسليم بعلبك اليه ، ولكن سيف الدين غازى أبطل فى الرد على نجم الدين أيوب ، فاضطر الى تسليم المدينة الى مجير الدين أبى خشية الاستيلاء عليها عنوة ، فيحرم من الاقطاع الجديد الذى كان قد وعد به .

ثم التحق اسد الدين شيركوه بخدمة نور الدين محمود وأخلص فى عمله وأصبح مقربا عند نور الدين محمود ، ومقدما على سائر الأمراء لما تميز به اسد الدين شيركوه من صفات جليلة حتى أقطعه نور الدين محمود مدينتى حمص والرحبة .

(١) بالفتح فى معظم المراجع ، ولكن ابن واصل والذهبي يكتبانها بالضم كما فى المتن ص ٥٠ وقد توفى معين الدولة أنزى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ودفن بدمشق بين دار البطيخ والشامية ، راجع النعمى : الدارس فى المدارس ج ١ ص ٥٨٨ ، وابن الاثير : الباهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

تطلع نور الدين محمود الى امتلاك مدينة دمشق ، ليحقق بذلك مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة الذى بدأه والده ، فامر أسد الدين شيركوه بالكتابة الى أخيه نجم الدين أيوب المقيم فى دمشق وطلب منه مساعدة نور الدين محمود فيما هو عازم عليه . وفى مقابل ذلك منحهما شيئا كثيرا من الاقطاع هناك ، وتمكن نجم الدين أيوب من تسليم دمشق اليه حسب الاتفاق ، وأصبح أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه .

يذكر المؤرخون المعاصرون لصالح الدين أنه كان شديد المواظبة على الصلاة فى الجماعة ، حتى فى حالات المرض التى ألت به ، كما كان مواظبا على أداء السنن ، وكان يقوم جزءا من الليل ، كما كان محبا لسماع القرآن الكريم مشجعا على تلاوته ، فقد مر ذات يوم على صبي صغير وهو يقرأ القرآن بين يدي والده ، فاستحسن تلاوته ، فأوقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة . كما كان محبا لسماع الحديث الشريف وتفسيره ، وكان خاشع القلب ، غزير الدمعة ، رقيق الاحساس ، فمما يرويه ابن شداد (١) عنه : « كان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يدعونى اليه فى خلوته ويقرأ ، فاذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه » .

كان كريما كثير العطاء ، لدرجة أن نواب خزائنه كانوا يخفون عنه شيئا من المال خشية أن يفاجئهم أمر مهم ، لعلمهم بأنه متى علم بوجود مال فى الخزينة أخرجه وأنفقه . يروى المؤرخون أن جمعا من الوفود اجتمع عنده بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على المسير الى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة مال يعطى منه هذه الوفود ، وحاول قاضيه ابن شداد اقناعه بصرفهم لظروف انتقاله الى دمشق ، ولكنه رفض وباع قرية من بيت المال ، ووزع ثمنها لهذه الجموع ، ولم يبق منه درهما واحدا (٢) .

- (١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ .
(٢) ابن شداد : المرجع نفسه ، ص ١٧ .

كان عادلا محبا للعدل والعدالة في كل شيء ، كثير الميل الى الرافة والرحمة ، ونصرة الضعفاء على الأقوياء ، كان يجلس للنظر في المظالم يومية الاثنين والخميس ، تروى كتب السيرة والتاريخ الكثير عن مواقفه المشهورة في خلقه الرحيم وعدله وكرمه وحلمه ومحافظته على أقدار العلماء والقضاة وتكريمه لهم . وكان - رحمه الله - لا يحب الفلاسفة والمعتلة والذهرية ومن يعاند الشريعة . يروى ابن شداد (١) قصة الرضيع المخطوف التي شاهدها بنفسه وقد جاءت أمه الصليبية وهي تعوى من البكاء ، فما كان منه الا أن أمر برد طفلها اليها ودفع لن اشتراه تعويضا عن ثمنه ، ولم يبرح مكانه في تل الخروبة الا بعد أن اطمأنت على وليدها ، ثم أمر بها فحملت على فرس هي وطفلها والحقت بمعسكر الصليبيين ، وكان الذي دفع هذه الأم لمقابلة صلاح الدين ما قاله لها امرأها من أن صلاح الدين « رحيم القلب ... فانه يرده عليك » .

نخ كان صابرا محتسبا ، ظهر صبره واحتسابه واضحا وهو معسكر بمرج عكا حيث اعتراه مرض أصاب نصفه الأسفل (بدماميل = خرايج) ألمته أشد الألم ، فكان لا يستطيع الجلوس مطلقا ، ومع ذلك كان يركب ويمر على الأطلاب (قواد الكتائب) وينظم جنوده ، ويشرف على المعسكر ، وهو صابر على شدة الألم وقوة ضرب الدماميل عليه . بلغ عدد ما وهبه للمجاهدين من الخيل وهو على مرج عكا عشرة آلاف فرس .

ومن مظاهر شدة صبره واحتسابه مفارقة أولاده الصغار ، ورضاه بالبعد عنهم ، على الرغم من شغفه بهم وشدة حبه لهم ، واحتماله خشونة العيش والحياة في خيمة لحبه الجهاد ، مع قدرته على أن يعيش في رغد وترف كما كان يفعل الحكام والملوك سواه .

كان كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره

ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، طلب ذات مرة الماء فلم يحضر ، وعادوا
الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال يا أصحابنا ! والله قد
قتلنى العطش !! فأحضر الماء اليه فشربه ولم ينكر التوانى في احضاره .

بلغت كثرة النفقة في الصدقات انه أنفق كل ما يملك من أموال ولم
يترك في خزائنه عند موته سوى سبعة وأربعين درهما فضة ، ودينار واحد
ذهبا (١) ولم يترك من بعده دارا أو عقارا أو أملاكاً أو أرضاً مزروعة أو غير
مزروعة (٢) . ومع أنه كان قد عقد العزم على أداء فريضة الحج في العام الذي
توفي فيه ، الا ان فراغ يده من المال ، وانشغاله الدائم بأمر الجهاد ومصلحة
العباد أعاقته عن هذه الفريضة .

وكان محبا لمجالسة العلماء وأكابر الفقهاء ، وقد جمع له الشيخ الامام
قطب الدين النيسابورى (٣) عقيدة تحوى جميع ما يحتاج اليه في سلامة
العقيدة ، فكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من اولاده حتى ترسخ
في أذهانهم ويأخذها عليهم وهم يقرؤونها (٤) .

كما كان شجاعا ، قوى النفس ، شديد الباس ، عظيم الثبات ، لا يخشى
العدو ، وكان يستطلع أحوال العدو بنفسه في كل يوم اذا كان قريبا منه ،
واذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين ، ويخترق العساكر من الميمنة الى
الميسرة ، ليرفع الروح المعنوية لجنوده . بلغ من الشجاعة أنه لم يكن يستكثر

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ق ١ ص ٤٣٢ وقد ذكر
ابن شداد (ص ١٠) ان الدراهم المتبقية ستة وثلاثون درهما فقط ، وفي بعض
المراجع أربعين درهما .

(٢) ابن شداد : المرجع نفسه ص ٨ .

(٣) هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى قطب الدين
متوفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، فقيه شافعى تعلم بنيسابور ومرو ، دخل دمشق
سنة ٥٤٠ هـ واستقر بها - الزركلى : الاعلام ج ٧ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن شداد : النوادر ص ٧ ، المقرئى : السلوك ج ١
ص ٤٢-٤٣ .

العدو مطلقا ، ولم يستعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك دائم الفكر والتدبير ، يرتب جنوده وهو هادئ الطبع بدون حدة ولا غضب يعتربه في مثل تلك المواقف .

كما كان يحسن الى الصوفية كثيرا ، ويستشيرهم في كثير من الامور ، يبجل علماءهم ويجلس اليهم ، ويستمع الى نصائحهم ، فوقفوا الى جانبه في حروبه ضد الصليبيين في مواقع كثيرة ، وأبلى أهل الاسكندرية معه في حصار الفرنج له وهو بها بلاء حسنا وكان الكثير من أهل الاسكندرية صوفيين .

ويظهر تقدير صلاح الدين وحبه للصوفية انه أوقف عليهم في الاسكندرية كل ما صادره من الفرنجة بعد هزيمتهم سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م كما أحسن اليهم كثيرا بعدما فتح حلب سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ولذلك يقول أحد الصوفية من أهل الاسكندرية في صلاح الدين يمدحه :

بدولة الترك عزت ملة العرب
وبابن أيوب ذلت شيعة الصليب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب
من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة
بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
والدهر بالقدر المخدم يخدمه
والأرض بالخلق والأفلاك والشهب (١)

وقصارى القول انه كان نادرا في عصره ، فقد كان كثير المحاسن والأفعال الجميلة ، عظيم الجهاد ، خلف ذرية كثيرة العدد بلغت سبعة عشر ولدا ذكرا .

(١) عبد الرحيم زلط : ازدهار الشعر المصري في القرن السابع الهجري رسالة دكتوراة بأداب عين شمس ١٩٧٤ ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(م ٦ - صلاح الدين)

« صلاح الدين الأيوبي وزيرا في مصر »

تطلع اكابر الامراء الذين كانوا في جيش اسد الدين شيركوه الى منصب الوزارة ، ولكن الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين وخلع عليه خلع الوزارة ، وأصدر له تكليفا بذلك في سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ولقبه بالملك الناصر (١) وقد امتنع صلاح الدين عن قبول الوزارة ، ولكن ألزم هذا الأمر (٢) فهاجت نفوس بعض هؤلاء الامراء ، وتعصبوا ضده ، وامتنعوا عن أن يكونوا في جيشه وتحت نفوذه ، لأنهم أتراك وهو كردى ، وهو أصغر منهم سنا فعادوا الى الشام ، وبقي معه نفر منهم ، فقد انضم اليه ضياء الدين عيسى الهكاري الذي أقنع سيف الدين على بن المشطوب بالانضمام الى صلاح الدين ، ومما قاله له : « ... ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة وشهاب الدين الحارمى وابن تليل » ومازال بالحارمى حتى اقتعه هو الآخر بالانضمام الى صلاح الدين ثم انضم الآخرون كذلك بما بذله الهكاري من جهد حتى أعاد الأمور بينهم وبين صلاح الدين على خير ما كانت عليه .

والواقع ان الذى دفع الخليفة العاضد لاختيار صلاح الدين الأيوبي للوزارة اعتقاده بضعف صلاح الدين لصغر سنه اذ أنه لم يتجاوز الثانية والثلاثين ، وعدم وجود حاشية له من الجنود ، مما يجعله مطيعا للخليفة ولا يجرؤ على مخالفته ، على أن هناك رأيا يقول ان الخليفة ربما ظن انه يستعين بصلاح الدين في القضاء على بقية أمراء نور الدين الذين جاءوا في

(١) راجع نص هذا التقليد الذى كتبه القاضي الفاضل وجاء بكتاب الروضتين ، لأبى شامة (ج ١ ص ١٧٣) بيروت (بدون) ، ومما ورد به « ... والجهد أنت رضيع دره ، وناشئة حجره ، فشمّر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الطبى ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذكورا لأيامك ، وشهودا لك يوم مقامك » .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٦٩ .

الجيش مع أسد الدين شيركوه وبذلك يتخلص من نفوذ نور الدين محمود كما تخلص من خطر شاور (١) ويبدو لى ان درجة الضعف الكبيرة التى كان عليها البعاثد والخلافة الفاطمية ، والتفاف الشعب المصرى حول شيركوه وصلاح الدين (فى الاسكندرية خصوصا) تجعلنى استبعد هذا الظن ، خاصة لأن البعاثد كان فى حاجة ماسة لمثل هذه القوات لى تحميه وتحمى الخلافة الفاطمية فى مصر من خطر الوقوع فى أيدى الصليبيين .

لم يكد صلاح الدين يتخطى العقبة الأولى (الأمراء فى جيش أسد الدين شيركوه) (٢) حتى واجه العقبة الثانية : فقد قام بها الجند السودانيون بزعامة الطواشى مؤتمن الخلافة جوهر الخصى ، الذى كان يتحكم فى القصر ، وكان يطمع أن يخلف شاور فى الوزارة ، فحينما أراد مؤتمن الخلافة جوهر الخصى التخلص من صلاح الدين فكر فى الاستعانة بملك الصليبيين عمورى على أن يتم تقسيم مصر بين الثائرين السودانيين أتباع مؤتمن الخلافة وبين هؤلاء الصليبيين ولذلك كتب مؤتمن الخلافة رسالة أخفاها فى نعليه وخاط عليه ، وأعطى النعلين لرجل من أتباعه ليسلمها الى ملك الفرنجة ، وسار الرجل حتى وصل البثرة البيضاء (٣) ورآه رجل تركمانى وهو يحمل النعلين فى يده ، فأنكرهما هذا التركمانى فأخذهما منه ، وأحضرهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة أهل القصر الى الصليبيين ، واستدل صلاح الدين على كاتب الرسالة وكان يهوديا ، ولكى يعصم نفسه من عقاب صلاح الدين أعلن إسلامه ، واعترف بأنه كاتب الرسالة ، وتغاضى صلاح الدين عن مؤتمن .

-
- (١) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٧٣ ، عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٦-٧٠٧ .
(٢) نذكر من هؤلاء الأمراء عين الدولة الياورقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل ، وعلى بن أحمد المشطوب ، وشهاب الدين الحارمى وهو خال صلاح الدين .
(٣) تقع هذه البثرة بمركز بلبس ، ومكانها اليوم عزبة أبى حبيب الواقعة فى حوض البيضاء ناحية الزوامل ، ولا يزال اسم البيضاء على الحوض المذكور . ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ٤٤ هـ ٢ .

الخلافة فترة من الزمن لشدة حذره وحرصه ، وعندما لاحت الفرصة بعث صلاح الدين بعض رجاله فقتلوه في ٢٥ ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ / ٢٠ أغسطس ١١٦٩ م ، وهو ينتزه في حديقة قصره بالحرقانية بالقرب من قليوب (١) ، وعين صلاح الدين رجلا من حاشيته وجعله زمام القصر هو بهاء الدين قراقوش ، فمسك زمام القصر ، فما كان يدخل اليه شيء ولا يخرج منه شيء الا بمراى ومسمع منه ، فضاق أهل القصر بسببه . وقد حاول اتباع مؤتمن الخلافة وكانوا يزيدون على خمسين ألف جندي التصدى لصلاح الدين الأيوبي وقتله ، فأمر صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه بقتالهم ، فقطع دابرهم (٢) في وقعة فيما بين القصرين (٢) ثم تبعهم الى الجيزة حيث أبادهم وقضى عليهم .

على أن ثمة عقبة ثالثة وقفت في طريق صلاح الدين ، واعنى بها القوات الصليبية في الشام . فقد شعر هؤلاء الصليبيون بالخطر الذى يحيق بهم لوجود صلاح الدين في مصر ووجود نور الدين محمود بقواته في الشام ، فقد أصبحوا واقعين بين شقى الرعى ولا بد أن يفقدوا سيطرتهم على الجزء الشرقى لحوض البحر الابيض المتوسط .

الحملة المشتركة :

طلب عمورى ملك الصليبيين المساعدة من الغرب الأوربى ، ولكن الأوربيين تقاعسوا في تقديم مساعدتهم وفشل عمورى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في الحصول على مساعدة من الأوربيين ، فلجا الى مانويل كومنين امبراطور بيزنطة ، وجدد معه الحلف الذى كان قد عقده معه من قبل ،

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٧٥-١٧٦ .
(٢) يذكر المقرئى (الخطط ، ج ٣ ص ٢٩) أن السودانيين كانوا على درجة كبيرة من الجبروت ، وكان لهم في كل حى مكان خاص بهم ٠٠٠ الخ وقد ذكر جب (صلاح الدين ، ص ١٢٠) أن عددهم كان ثلاثين ألف سودانى .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٤٧ .

وتم الاتفاق بينهما على غزو مصر واقتسامها ، وجهاز الامبراطور مانويل اسطولا بحريا كبيرا ارسله الى قبرص وصقلية في ٥٦٤هـ / يولييه ١١٦٩م حيث امدتهم هذه الجزر بالآلاف من الجنود (١) ويكثر من العتاد والمؤن والأموال ثم واصل هذا الأسطول ابحاره الى صور وعكا لوضع الخطة المشتركة وكانت تقضى بمهاجمة مصر عن طريق ميناء دمياط بواسطة الأسطول البيزنطى ، وبرا بجيوش الصليبيين التى تزحف الى دمياط عن طريق الفرما ، بكل ما تحمله من منجنقات ودبابات وآلات حصار ، وبذلك يمكن لهم القضاء على صلاح الدين الأيوبي وجيشه فى مصر .

أبحر الأسطول البيزنطى وقد انضمت اليه سفن من هذه الجزر (قبرص وصقلية) فوصل الى خارج مياه دمياط ، وأرست تجاه المدينة ، لأنها لم تتمكن من دخول المدينة لوجود المأصر (٢) ، وفى نفس الوقت تحركت القوات البيزنطية والصليبية من عسقلان فى سنة ٥٦٦هـ / منتصف أكتوبر ١١٦٩م فوصلت الى الفرما بعد تسعة أيام ، ومنها واصلت السير جنوب دمياط .

(١) راجع تفاصيل هذه الاتصالات بين البيزنطيين وعمورى فى حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٣٤-١٤٠ .
(٢) المأصر : عبارة عن سلاسل حديدية سمكية تمتد فى مدخل الميناء بالعرض لتمنع دخول سفن الأعداء ، وقد استعمل المصريون خلال الحرب العالمية الثانية فى مدخل الاسكندرية نوعا من العوامات (برامل) المستطيلة بطول ٦ متر تقريبا وقطر ٦٠ سم ، وكان يتدلى من كل عوامة شبكة من الصلب متداخلة الحلقات ، تنزل فى أعماق البحر وكانت هذه العوامات يربط بعضها ببعض لتغلق فتحة البوغاز (مدخل الميناء) فتمنع دخول السفن ، وتسرب الغواصات وكانت هذه الشباك متصلة بتيار كهربائى وأجراس تعطى انذارا عند ملامسة أى غواصة أو سفينة لها ، لكى تستعد حامية الميناء للدفاع ومن المدهش حقا ان احدى الغواصات الايطالية الصغيرة تمكنت من الدخول الى الميناء وهى قابعة أسفل باخرة تجارية كبيرة فى صباح أحد أيام صيف ١٩٤٢م ، وتمكنت الغواصة من اصابة مركز قيادة الأسطول البريطانى وهى السفينة الحربية (ولى ويتش) بطوربد مباشر ، وتحولت البناء فى دقائق الى ساحة معركة حربية حيث كانت تلقى السفن الحربية البريطانية بقنابل الأعماق ، فعلا أصيبت الغواصة وقتل قائدها بينما قبض على مساعده ليل وهو يحاول الخروج من باب جمرى ٢٣ وكان مبللا بالماء (المؤلف) .

وصلت هذه الأنباء الى صلاح الدين الأيوبي ، ولم يكن يتوقع غزو مصر عن طريق دمياط ، وكان يظن ان الصليبيين قادمون كالمعتاد عن طريق الشرقية (١) ، وأخذ يفكر لو أنه خرج الى دمياط ، فمما لاشك فيه ان رجال القصر الفاطمي وأتباعهم سوف يجدونها فرصة في الانقضاض على جنده ويتخلصون منه ومن سيطرته التي أحكمها على مصر ، ولو أنه بقى في مصر فان الصليبيين والبيزنطيين سيحتلون دمياط ، ولهذا أرسل الى دمياط الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ابن أخيه) ومعه شهاب الدين الحارمى (خاله) فدخلوا دمياط قبل وصول الصليبيين وأمدهما صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر والمال .

وفي نفس الوقت كتب صلاح الدين الى قائده « نور الدين محمود » يصف له موقفه ، فجهز اليه نور الدين محمود العساكر ارسالا كلما تجهزت طائفة أرسلها (٢) ثم لجأ الى مهاجمة المدن الصليبية للضغط على الصليبيين واجبارهم على الانسحاب وترك دمياط ليحافظوا على مدنها في الشام .

صمدت دمياط خمسين يوما وهى تدافع عن نفسها ، واستغل أهلها جريان مياه النيل نحو الشمال واطلقوا على سطح المياه أوانى فخارية مملوءة بمواد مشتعلة فأصابت أسطول العدو بأضرار كبيرة ، واضطرت الى الانسحاب فى عرض البحر مبتعدة عن لسان النيل الذى يشرف على مدخل المدينة (٣) ولم يلبث أن اشتد الضيق بجنودهم المعسكرين فى البر عندما نفذت الذخائر

(١) لقد قلد المرحوم جمال عبد الناصر هذا القول عندما هاجمتنا اسرائيل وأصابتنا بالهزيمة المرة سنة ١٩٦٧ حيث قال : لم أكن أتوقع ان تهاجمنا اسرائيل عن طريق السواحل حيث طارت قاذفاتها فوق سطح البحر على ارتفاع منخفض وضربت جيش مصر ومزقته ، وفى رأى أن هذا ضعف من القائد ، اذ الواجب عليه أن يضع فى حسابه الهجوم من كل الجهات ويضع فى تخطيطه كل الاحتمالات حتى لا يهزم كما هزم جيشنا بسبب الغفلة وسوء القيادة والصراع على الرئاسة والسلطة والنفوذ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ١٨١ .

(٣) عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر ، ص ٢٢ .

منهم ومن جنود الاسطول ، وزادت حالتهم المعنوية سوءا عندما بلغتهم اخبار الاغارات التى شنها « نور الدين محمود » على المدن الصليبية فى الشام ، فاضطر عمورى لرفع الحصار عن دمياط ، والعودة الى بيت المقدس فى أواخر ديسمبر ١١٦٩م / ٥٦٥هـ بعد أن فشلت الحملة المشتركة على مصر (١) ومنى الاسطول البيزنطى بخسائر جسيمة أثناء انسحابه فقد هبت عليه عاصفة هوجاء أغرقت عددا من سفنه .

كان من الطبيعى بعد أن فشلت هذه الحملة على مصر أن يتدعم مركز صلاح الدين بها ، وأن تحاول الخلافة الفاطمية التخلص من نفوذه ، ونفوذ نور الدين محمود معا ، ولهذا أرسل الخليفة العاضد الى نور الدين محمود يطلب منه سحب جنوده الأتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب فى قلوب المصريين ، ولكن نور الدين محمود اعتذر اليه بأن بقاء هؤلاء الجنود امر ضرورى لحماية مصر من الغزو الصليبي (٢) .

لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ من الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم وسيلة للدفاع فشن هجوما على الرملة وعسقلان ، وداروم وغزة فى سنة ٥٦٦هـ / ديسمبر ١١٧٠م فحطم بعض أسوار هذه المدن ، وقتل عددا كبيرا من جنود حامياتها ، ثم سار الى سواحل ايله ومعه سفن محمولة على الجمال ، حيث تم تركيبها ، وانزالها الى البحر ، وملاها بالمقاتلين ، وهاجم بها ايله واستولى عليها (٣) ، ثم عاد محملا بالغنائم الى القاهرة ، ومن الواضح ان فشل الحملة المشتركة على دمياط كان نقطة تحول فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى ، اذ تحولت القوى الاسلامية من خطة الدفاع الى خطة الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم ، مما سيكون له أكبر الأثر فى تاريخ هذه المنطقة وعلاقاتها السياسية فى فترة العصور الوسطى .

Wiet; op. cit., p. 301. (١)

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٨١ .

(٣) ابن واصل مفرج ، ج ١ ص ١٩٩ .

نهاية الخلافة الفاطمية في مصر :

تأكد نور الدين محمود من ضعف الخلافة الفاطمية في مصر بعد أن رفض طلب الخليفة بسحب جنود صلاح الدين الأيوبي من مصر ، وكذلك أحس بقوة مركزه بعد تشديد هجماته على المدن الصليبية وانزال الخراب بها ، مما جعل الصليبيين يخافونه ، وعزز هذا الاحساس ما قام به صلاح الدين من هجمات على مدن الصليبيين القريبة من مصر وتحطيم أسوارها . . . فإذا أضفنا إلى ذلك أن نور الدين محمود استولى على الموصل بعد فشل الحملة المشتركة على مصر بعام واحد (٥٦٦هـ/١١٧١م) بسبب موت أخيه (مودود بن زنكى) (١) اتضحت لنا الأسباب التي جعلته يطلب من صلاح الدين الأيوبي أن يسقط الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وأن يجعلها للخليفة العباسي المستنصر بنور الله ، حيث كتب إلى صلاح الدين الأيوبي يلزمه بذلك الزاماً (٢) في يناير ١١٧١م .

اتخذ صلاح الدين بعض الخطوات الضرورية لاسقاط الخلافة الفاطمية في مصر فأبعد حاشية الخليفة الفاطمي وقواده عن القاهرة ، وأخذ يطلب من العاضد كل يوم شيئاً من الخيل والدقيق والأموال ، ليزيد بذلك ضعفه ، ومما يذكر في هذا الشأن ما رواه الأمير حسام الدين بن علي وهو من كبار رجال قواد الدولة ، وصديق حميم لجمال الدين بن واصل (٣) من أن صلاح الدين الأيوبي أرسل حسام الدين إلى الخليفة العاضد يطلب منه فرساً ، ولم يبق عنده إلا فرس واحد ، فذهب إليه وكان العاضد يركب هذا الفرس ، فلما طلبه منه نزل من عليه ، وشق خفيه ، ورمى بهما ، وأعطى الفرس لحسام الدين ، ثم لزم بيته لا يخرج منه . .

(١) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٥٢-١٥٣ ، الكامل ج ١١ ص ٣٦٢-٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٠٠ ، جب : نفسه ، ص ١٢١ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ١٧٨-١٧٩ .

ثم شرع صلاح الدين في اقامة سور القاهرة وتجديده لانه كان قد تهدم معظمه وأصبح لا يحصى القاهرة فلا يرد عنها داخلا ولا يمنع منها خارجا (١) كما أنشأ المدارس السنية ، فحول دارا للشحنة كانت تعرف بدار المعونة (٢) في مصر وجعلها مدرسة للشافعية فكانت أول مدرسة للشافعية بالقاهرة ، كما هدم دارا لبيع الغزل وبنى مكانها مدرسة للمالكية ، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذلي الشافعي قاضيا للقضاة . وبذلك انتشر المذهب الشافعي في مصر ، وأخذ المذهب الفاطمي في الاندثار .

ثم توجه صلاح الدين الأيوبي الى الاسكندرية في شعبان سنة ٥٦٦هـ / ابريل ١١٧١م ليرتب قواعدها ، وأمر بتجديد أسوارها وأبراجها .

فلما لم يجد صلاح الدين معارضة من المصريين ولا من أهل القصر الفاطمي أصبح مهينا لقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، لان إقدامه قد رسخت وثبتت في مصر بعد زوال المخالفين له ، وبعد أن ضعف أمر الخليفة العاضد ، وأصبح قراقوش يتحكم في قصر الخلافة وينفذ تعليمات صلاح الدين الذي أصبح الحاكم الفعلي لمصر ويرجع الجميع اليه في أمور الدولة والقصر .

عندئذ أقدم صلاح الدين على قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وتطوع فقيه أعجمي يسمى الخيوشاني ويلقب بالأمير العالم فالقى خطبة الجمعة في غرة المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م (٣) ، ودعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله فلم ينكر عليه أحد من الحاضرين ذلك . فأمر صلاح الدين بتعميم الخطبة في المساجد كلها للخليفة العباسي في الجمعة التالية . وكان الخليفة الفاطمي العاضد قد اشتد عليه المرض ، ومنعت عنه الاخبار خوفا

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) كانت هذه الدار بمثابة سجن يحبس الشحنة فيه من يريد حبسه ،

ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٦٦ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٤٦ ، وابن الاثير : الباهر ،

ص ١٥٦ .

عليه ، وتوفي يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) وهو لا يعلم بسقوط دولته (١) ، وبموته انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان .

وبعد موت الخليفة العاضد احتياط صلاح الدين على أهل الخليفة ووضعهم في مكان خاص بهم خارج القصر ، وقرر لهم أموالا لنفقتهم وكسوتهم وما يحتاجون اليه ، كما جمع بقية أهل القصر في ايوان واحترز عليهم وابتعد عنهم النساء حتى تقل ذريتهم .

أما الجوارى والعبيد فقد أطلق صلاح الدين الأحرار منهم ، ووهب الآخرين لأمرائه ورجال حاشيته ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ كل ما يصلح له ولأهله ولأمرائه وخوادم ممالكه ورجال حاشيته من نفائس وملابس ، مثل الدرة اليتيمة ، والمنسوجات المغربية ذات الخيوط الذهبية وأسرف في العطاء والبذل ، وسمح ببيع الأشياء الأخرى (٢) .

كذلك أمر صلاح الدين بنقل أهم الكتب الموجودة في القصر الى الشام ، فحمل منها ثمانية أجمال ، وقد بلغت أعداد ما في مكتبة القصر مائة وعشرين ألف مجلد من أنفس المؤلفات ، وقد بيع جزء من محتويات هذه المكتبة ، وترك بعضها لمن يختص به .

ولكى يدعم الخليفة العباسي نفوذ صلاح الدين ويثبت سلطانه في مصر سارع بإرسال الخلع الى نور الدين محمود وإلى صلاح الدين الأيوبي ، وأرسل الرايات السود شعار العباسيين (٣) - وبذلك عادت للعالم الاسلامي وحدته الروحية تحت خلافة واحدة هي الخلافة العباسية .

(١) بعض المراجع تذكر ان الخليفة العاضد عندما علم بقطع اسمه من الخطبة اهتم واغتم حتى مات ، وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحتها سم فمات . أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٩٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧٠ .
(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٠١ ، وكذلك :

غزو بلاد النوبة سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م

تجمعت قلوب الجند السودانيين الذين هربوا من مصر مع جموع من العبيد في بلاد النوبة ، وساروا منها متجهين الى مصر لاستعادتها من صلاح الدين الايوبي ، واعادة الحكم الفاطمي اليها ، فوصلوا الى أسوان ونهبوها وخربوها ، فلما وصلت هذه الاخبار الى صلاح الدين ارسل اخاه الاكبر شمس الدين توران شاه على رأس عسكر كثيف ، فلما وصل بنجنسوده وجد السودانيين والعبيد دخلوا بلاد النوبة . فواصل زحفه حتى وصل قلعة ابريم فنزل عليها ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان فيها من مال وكراع وميرة ، وفك أسر مجموعة من جند الشجاع البعلبكي ، وأخذ من كان بها أسرى بعد أن هرب حاكمها . وكتب الى أخيه صلاح الدين بما فعله ، ثم عاد الى أسوان ، ومنها الى قوص ، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي طلب قلعة ابريم ، فاقطعها له توران شاه ، وبعث معه مجموعة من الاكراد . فلما وصلوها اخذوا يغيرون منها على النوبة (١) من وقت لآخر حتى لا يتجمع السودانيون والعبيد فيها مرة أخرى .

ارسل ملك النوبة الى توران شاه وهو بقوص كتابا مع رسول يطلب فيه الصلح ، وهدية عبارة عن عبد وجارية ، فكتب توران شاه ردا على الرسالة حملة رجل من أتباعه يقال له مسعود النحلي ، وطلب منه أن يتكشف ويعرف كل ما يستطيع عن هذه البلاد . فلما وصل الى دنقلة وجد البلاد ضيقة ليس بها زرع ولا ضرع سوى الذرة ، ومساكنهم من الخوص ، وليس بها سوى دار واحدة للمكهم (٢) .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٧٢ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٨-٢٠٩ .

فتح بلاد اليمن ٥٥٦٩/١١٧٤ م :

بعد عودة توران شاه مع جنوده من حملته على بلاد النوبة ، ووقوف صلاح الدين الأيوبي على شدة فقر هذه البلاد وجذبها ، وعدم صلاحيتها للاستقرار بها ، رأى صلاح الدين أن يرسل أخاه توران شاه الى بلاد اليمن ليمتلكها .

ويذكر بعض المؤرخين (١) ان السبب في ذلك هو رغبة صلاح الدين في ايجاد ملك له ولاسرتة يلجأ اليه ، ويستقر به ، لانه كان يخشى من نور الدين محمود أن يدخل مصر ويأخذها منه ، خاصة بعد الجفوة التي حدثت بينهما وعودة صلاح الدين من الشوبك الى مصر ، ومخالفته تعليمات نور الدين محمود بأن يتوجه بقواته لمساعدته في الاستيلاء على الكرك التي كانت تبعد عن الشوبك بمسيرة يوم واحد فقط . ولذلك سير صلاح الدين أخاه توران شاه الى بلاد النوبة أولا ، ثم الى اليمن ثانيا .

والحقيقة ان صاحب هذا الرأي هو ابن الاثير ، وعنه نقل المؤرخون المعاصرون له واللاحقون بعده . ويبدو ان ابن الاثير كان متحاملا على صلاح الدين ، ومتهم فيما يكتبه عنه ، وخاصة ما يتصل بعلاقته مع نور الدين محمود . فابن الاثير يقول في حديثه عن مسير توران شاه الى النوبة « وكان سبب ذلك ان صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نور الدين محمود كان على عزم الدخول الى مصر ، فاستقر الرأي بينهم ان يملكوا اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل نور الدين محمود اليهم ، لقوه وصدوه عن البلاد ، فان قووا على منعه أقاموا في مصر ، وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي فتحوها » (٢) .

وقد ناقض مؤرخنا ابن الاثير نفسه ، ومحا كل ما قاله حيث يذكر ان

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٥ .

(٢) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

توران شاه استاذن نور الدين محمود في أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد - الخارجي وأخذ بلده لانه قطع الخطبة للخليفة العباسي ، فاذن له في ذلك « (١) وهناك شبه اجماع من المؤرخين على أن الذي استاذن نور الدين محمود هو صلاح الدين الأيوبي نفسه (٢) ، ونحن نميل الى هذا الرأي لأن توران شاه لا يملك التعدى على نفوذ أخيه صلاح الدين السلطان الشرعى لمصر ، وليس لأى قائد أن يتخطى قائده الأعلى ، وصلاح الدين هو القائد الأعلى للجيش فى مصر . ثم ان مسير توران شاه على رأس جيشه كان بتعليمات صلاح الدين .

وقد ذكرت جمهرة من المؤرخين أن السبب الرئيسى لهذا الفتح هو ما ارتكبه الخارجي عبد النبي بن مهدي من قبيح الأعمال وأشنعها ، حيث سار على نهج أبيه ، فشق بطون الحوامل ، وذبح الاطفال على صدورهن ، وقتل كثيرا من الناس (٣) ، وكان على مذهب القرامطة ، ويبدو أنه كان داعية للشيعنة الفاطمية ، وكان يتستر فى بلاد اليمن . ثم ان عبد النبي هذا كان يشرب الخمر ، وسبى النساء ، وادعى الامامة وخطب لنفسه على المنابر (٤) . وقد بلغت حماقته انه بنى لأبيه قبة عظيمة دفنه بها ، وصفح حيطانها بالذهب والجواهر ، ومنع أهل اليمن من الحج الى الكعبة ، وألزمهم بالحج الى قبر أبيه ، والطواف بهذه القبة العظيمة .

هذا وقد انفرد مؤرخ يمنى يسمى بامخرمه (٥) بذكر سبب هام من اسباب الفتح الأيوبي لليمن ، خلاصته أن بعض الامراء فى اليمن استغاثوا بالخليفة العباسي من اعتداءات عبد النبي بن مهدي وقيامه بقتل كثير من

(١) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٣٠٠-٣٠١ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها ، ابن شداد :

النوادر ، ص ٤٦ .

(٥) تاريخ ثغر عدن : ج ١ ص ١٢٧-١٢٨ وكذلك ابن واصل : مفرج ،

ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ هـ ٢ .

الإشراف ، فكتب الخليفة العباسي الى صلاح الدين الأيوبي لكي يجرد في نصرة الإشراف عسكريا لقتال ابن مهدي ، فأرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس الحملة .

ثم ان عمارة اليمنى الشاعر المعروف كان يقيم بمصر ، فاخذ يحسن لصلاح الدين ، ولأخيه توران شاه فتح اليمن ، ويصف بلادها وخيراتها لهما (١) ، فزاد ذلك من رغبة صلاح الدين في فتحها . هذه هى الاسباب التى ذكرها المؤرخون في فتح اليمن ، والتى تنفى ما ذهب اليه مؤرخنا ابن الاثير ، وتدفعنا الى القول بأنه كان متحيزا ضد صلاح الدين فيما يكتبه عنه .

خرج توران شاه مع جنوده من مصر في شهر رجب سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م فوصل مكة ومكث بها مدة قصيرة بعد زيارته للبيت العتيق (٢) ، ومنها قصد اليمن فلما وصلها تحصن عبد النبي بن مهدي في مدينة زبيد ، فحاصره توران شاه حتى سقط في يديه فأمر بقتله . ودخل الجيش المصرى زبيد عنوة ، واقتادوا زوجة هذا الفاجر ابن مهدي وكانت تسمى (الحرة) أسيرة ، ويقال انها كانت امرأة صالحة كثيرة الصدقات .

توجه توران شاه بعساكره الى ثغر عدن ، حيث موقعها الفريد على البحر ، مما جعلها حصينة منيعة ، وكان يحكمها رجل يقال له (ياسر) ، وقع في خطأ عسكري أدى الى هزيمته ، فعندما علم بقدوم عساكر مصر خرج من عدن للملاقاتهم في ظاهر المدينة ، ولو انه تحصن بداخلها لما تمكنت جنود توران شاه من دخولها ، لقوة حصانتها ولناعتها بحرا وبراً .

أراد بعض الجنود أن يقوموا بسلب ونهب زبيد ، فمنعهم توران شاه

(١) ابن واصل : مرجع سابق ، ج ١ ص ٢٣٨ وما بعدها .
(٢) راجع سبط ابن الجوزى : مرجع سابق ، ص ٣٠٠ وما بعدها
لتجد وصفا مسهباً عما فعل توران شاه من أعمال الخير والبر في مكة .

وقال لهم : « ما جئنا لنخرب البلاد ، وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننعم
وننتفع بدخلها » (١) .

ثم عاد توران شاه الى زييد ، وتملك ما في الجبل من قلاع وحصون ،
وملك قلعة (تعز) حيث توجد خزائن أموال عبد النبي بن مهدي ، فاستولى
عليها ، ووزع منها على جنوده ، ثم أناب في كل قلعة نائبا من أتباعه
واحسن الى أهالي البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت واستقرت أمورها ، وقد
أحسن توران شاه الى (الحرة) زوجة ابن مهدي عندما علم بصلاحها فاطلقها
ووهب لها اقطاعا لتنفق منه على نفسها ومن معها .

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين ٥٦٩هـ / ١١٧٤م :

تأكد أتباع الفاطميين في مصر من زوال حكمهم ، وكان على رأس
هؤلاء جميعا خصي سوداني يسمى مؤتمن الخلافة جوهر ، وكان متحكما في
القصر ، وكان زعيما على الجند السودانيين فاتفق مع مجموعة من الشيعة
العلوية على إعادة الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على دولة الأيوبيين ،
وأعدوا خططهم على الاستعانة بالفرنج من صقلية والشام في نظير مبالغ من
المال يدفعونها اليهم . وكان ضمن هذه المجموعة عمارة اليمنى الشاعر ،
وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي العويرس ، وداعى دعاة الشيعة ابن
عبد القوى ، وغيرهم من الجند السودانيين ، وبعض حاشية القصر الفاطمي ،
وانضم اليهم بعض أمراء صلاح الدين الأيوبي وجنده (٢) .

كانت الخطة التي أعدوها كما يلي :

١ - عندما يجيء الفرنجة الى مصر يخرج اليهم صلاح الدين الأيوبي
على رأس جيشه فيقومون بالثورة في مصر والقاهرة ويعيدون الدولة الفاطمية ،

(١) ابن واصل : مرجع سابق ، ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) راجع ابن واصل : ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤ ، وابن الاثير : ج ١١

لأن البلد ستكون خالية من الجنود ، فلا يتصدى لثورتهم احد . فاذا عاد الجنود الذين مع صلاح الدين فسوف يوافقوهم باعتبار الأمر الواقع ، وعندئذ لا يبقى لصلاح الدين مقام مع الفرنجة .

١٠ - إذا بقي صلاح الدين في القاهرة وأرسل عساكره لملاقاة الفرنجة ، ثاروا عليه وقبضوا عليه لعدم وجود من ينصره أو يساعده . وقد قال لهم عمارة اليميني « وأنا قد أبعدت أخاه توران شاه الى اليمن خوفا من أن يسد مسده ، وتجتمع الكلمة عليه » .

أحكموا أمرهم بينهم ، وتقاسموا الدور والأماكن ، وأرسلوا فعلا الى وليم الثاني William II ملك النورمانيين بصقلية وكذلك الصليبيين بسواحل الشام ، ولكن القدر وضع في طريقهم الواعظ زين الدين علي بن نجا المعروف بابن نجيه (١) حيث أدخله المصريون معهم ، فوقف على سرهم ، وتظاهر بأنه على رأيهم ، ثم أسرع الى صلاح الدين وأخبره بجميع أمورهم ، وكشف له مؤامرتهم ، فطلب صلاح الدين منه مجاراتهم وملازمتهم ومخالطتهم ، وأخبره أولا بأول بكل ما يعزمون عليه .

في هذا الوقت وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامي الى صلاح الدين يحمل رسالة وهدية ، وفي حقيقة الأمر كان هذا الرسول موفدا للاجتماع برعوس المؤامرة ، فكان يرسل اليهم بعض نصارى مصر ، وتأتيه رسلم ، أما موضوع الهدية والرسالة لصلاح الدين فكان وسيلة للتستر وراءها .

علم صلاح الدين الأيوبي بمهمة هذا المبعوث حيث جاءته الاخبار من بلاد الفرنج تحذره ، فوضع صلاح الدين رجلا نصرانيا يثق فيه على هذا

(١) هو الفقيه زين الدين أبو الحسن بن ابراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي ، توفي بمصر في شهر رمضان سنة ٦٠٠ هـ وعمره ٩١ سنة . ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ١٨٣-١٨٤ .

المبعوث فجاءه بكل اخباره ، فامر بالقبض على رجال المؤامرة ، وسألهم فاعروا بالحقيقة فامر بشنقهم في يوم السبت ٢ رمضان سنة ٥٦٩ هـ . فشنقوا جميعا بين القصرين . كما صادر صلاء الدين جميع ممتلكاتهم وأموالهم ولم يسمح لورثتهم بشيء . ثم تتبع من لهم ميول شيعية فاطمية ، وقبض عليهم وقتل كثيرا منهم ، وحبس آخرين (١) .

وصلت هذه الاخبار الى فرنج الساحل الشامى فلم يتحركوا ، وأثروا السلامة . أما فرنج صقلية فلم تصل اليهم أخبار المتآمرين معهم ، فتحركوا بأسطولهم الى الاسكندرية (٢) . فوصلوها في ٢٦ ذى الحجة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وكان عدد السفن كثيرا (٣) وعدد الجنود ثلاثين ألفا ، بالإضافة الى ١٥٠٠ فارس (٤) ، ولم يكن عند أهل الاسكندرية أى معلومات عن مجيء هذا الأسطول ، فخرج الأهالى بما عندهم من أسلحة ، ومنعوا جنود الأسطول من النزول ، وأخذوا يطاردونهم ، ولكن والى الاسكندرية أمرهم بملازمة سور المدينة للاحتماء بها ، وللدفاع عنها ، فنزل الفرنج مما يلى البحر والمنارة (٥) وزحفوا الى المدينة ، ونصبوا عليها المجانيق ، وقتلوا أهلها أشد قتال ، وأبلى أهل الاسكندرية بلاء حسنا ، وصمدوا وصبروا حتى يصل اليهم صلاح الدين بجنوده ليدفع هذا الهجوم وقد شهد الفرنج لأهل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢) Lane—Pool, Saladin, p. 127.

(٣) ٢٠٠ شينى تحمل الجنود ، ٣٦ طريدة تحمل الخيل ، ٦ مراكب كبيرة تحمل أدوات القتال ، ٤٠ مركبا تحمل المؤن والزاد — راجع ابن شداد : النوادر ص ٤٨-٤٩ ، وللمزيد من التفاصيل راجع :

Camb. Med. Hist. vol. 5, pp. 184-207.

وكذلك : Lane — Pool; Saladin, p. 127.

(٤) المقرئى : نفسه ، ص ٧٨ ، ابن واصل : ج ٢ ص ١٣ .

(٥) اعتقد أنها منارة المكس وليست منارة رأس التين المشهورة حيث يمكن للسفن أن ترسو قريبا من البر وتنزل الجنود ، ومن هناك يزحفون الى المدينة ، وقد نزلت سفن الحملة الفرنسية كذلك فى هذا المكان (المؤلف) .

(م ٧ - صلاح الدين)

الاسكندرية بالشجاعة في القتال » ورأى أهل الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم « (٧) .

ارسلت الاخبار الى صلاح الدين لى يجد الاسكندرية من هذا الهجوم المفاجيء ، واستمر القتال ثلاثة ايام ، وفي اليوم الثالث فتح أهل الاسكندرية ابواب مدينتهم ، وخرجوا مهاجمين الفرنج من كل جانب وهم يصيحون ، فارتاع الفرنج ، واشتد القتال بين الجانبين ووصل المسلمون الى الدبابات وأدوات الرمي فأحرقوها ، وكثر القتل في جنود الفرنج ، وانتهى هذا اليوم والمسلمون مستبشرون (٢) .

بعث صلاح الدين بمقدمة لعساكره لتصل سريعا الى الاسكندرية كما بعث بمجموعة من الجنود الى دمياط خوفا عليها ، ثم خرج هو ببقية الجيش في أعقابها ، ووصلت مقدمة العسكر في نفس اليوم بعد العصر ، فلما رآها أهل الاسكندرية تشجعوا وخرجوا واستأنفوا القتال مع الفرنج الذين وهنت روحهم ، وبدأ اليأس يدب في نفوسهم عندما سمعوا بمقدم صلاح الدين ، واستمر القتال بين الجانبين طوال الليل وحتى ضحى اليوم الرابع ، وقد كشفت المعركة عن هزيمة شديدة للفرنج حيث غرقت بعض سفنهم بفعل بعض اهالى الاسكندرية الذين غاصوا في المياه وخرقوا أسافلها ولم يجد الفرنج بدا من الفرار تاركين المدينة لأهلها دون أن ينالوا منها شيئا ، فرحلوا في مستهل المحرم سنة ٥٧٠هـ / ٢ أغسطس ١١٧٤م (٣) .

وهكذا فشلت هذه المؤامرة المدبرة باحكام ، كما فشل الصليبيون في حملتهم على الاسكندرية ، وقتل منهم الكثير ، وأحرق غير قليل من سفنهم

-
- (١) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ١٤ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤١٣ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤١٤ ، المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .
(٣) ابن واصل : ج ٢ ص ١٦ .

بما تحمله من جنود وأسلحة وميرة ، وعندما وصلت أخبار هذه الهزيمة الى عموري ملك بيت المقدس الصليبية أصيب بصدمة نفسية عنيفة أدت الى موته في يوليو ١١٧٤م (١) .

ثورة الكنز بالصعيد :

انتهز كنز الدولة حاكم أسوان (٢) فرصة انشغال صلاح الدين في صد هجمات الصليبيين وكان قد رتب أمره وجمع السودانيين حوله ، وأوهمهم بقدرته على إعادة الدولة الفاطمية الى مصر وأخذ يدعو للامير داود بن الخليفة العاضد ، فأرسل اليه صلاح الدين حملة عسكرية بقيادة أخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، واحتوى كنز الدولة ومن معه في مدينة طود ، فهاجمتهم عساكر صلاح الدين وأبادتهم قتلا بالسيوف ولم يبق لاتباع الخلافة الفاطمية في مصر بعد ذلك قائمة .

الوحشة بين الرجلين

على أن وحشة (جفوة) حدثت بين صلاح الدين ونور الدين محمود ، كان من أسبابها أن صلاح الدين بعث برسول له الى الخليفة العباسى ليبشره بعودة مصر الى حكمه وانتهاء الخلافة الفاطمية (٣) فاعتبر نور الدين محمود هذا التصرف اهانه له ، واهمالا لشأنه خاصة وأن صلاح الدين الايوبي يحكم في مصر باسمه ، باعتباره نائبا له ، وكان يكتب اليه الامير الأسفهاشلاخ صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا ، ومن ناحية أخرى كان نور الدين محمود متخوفا من أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر ، فتضيع جهوده التى بذلها ليضم مصر الى نفوذه ليستكمل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة لضرب الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين .

(١) عاشور : الأيوبيون ، ص ٣٩ .

(٢) راجع أصل هذه الأسيرة فى المقرئزى : اتعاظ الحنقاء ص ، والبيان والاعراب ، ص ٥٠ ، وابن واصل : ج ٢ ص ١٦ ، وكذلك :

Trimingham: Islam in the Sudan, p. 68.

(٣) المقرئزى : نفسه ، ص ٤٤ .

ويرى ابن الاثير (١) ان السبب الرئيسى لهذه الوحشة (الفجوة) بين الرجلين ، هو ان صلاح الدين الايوبي خرج في صفر سنة ٥٦٨ هـ / سبتمبر ١١٧٢ م ، وحاصر حصن الشوبك ، وأطبق على ما به من الصليبيين حتى طلبوا الأمان ومهلة عشرة أيام لتسليم الحصن ، وانتهاز نور الدين محمود فرصة وجود صلاح الدين على حصن الشوبك ، وأراد أن ينتزع حصن الكرك من الصليبيين وكان يبعد مسيرة يوم من الشوبك ، فخرج على رأس قواته متجها الى الكرك . فلما سمع صلاح الدين بتحرك نور الدين محمود وقواته ، فك الحصار عن حصن الشوبك ، ورجع قافلا مع قواته الى مصر ، وكتب الى نور الدين محمود يعتذر اليه بأن بقايا الفاطميين على وشك اشغال ثورة بها ، وان الامور مضطربة فيها ، مما يتطلب عودته فورا اليها .

ويبدو ان صلاح الدين خشى أن يقبض عليه نور الدين محمود اذا رآه ، وان يعزله ويعين على مصر أميرا من أتباعه ، ومع كل ما ذكر من أسباب يبقى الرأي الاول مرجحا على غيره من الآراء ، والدليل على ذلك المؤامرة الكبرى التى دبرها مؤتمن الخلافة جوهر ومن معه من الفاطميين مما سنذكره بالتفصيل لاعادة مصر الى حكم الفاطميين (٢) .

ثم ان صلاح الدين كان ملزما بالزحف بقواته الى حصن الاكراد لمساعدة نور الدين محمود ، وكان من الممكن جدا أن يتمرد الصليبيون فى حصن الشوبك ، ولا يسلموا الحصن لصلاح الدين كتعهدهم له ، وما أكثر ما ضرب الصليبيون باتفاقاتهم مع المسلمين وغيرهم عرض الحائط ، وفى هذه الحالة لا يستطيع صلاح الدين التوجه الى حصن الكرك لمساعدة نور الدين محمود لأن هذين الحصنين ممتنعان ومحصنان ، ويحتاج كل منهما الى زمن طويل ،

(١) الكامل : ج ١١ ص ٣٧١-٣٧٢ ، هناك آراء تصف ابن الاثير بالمبالغة فيما ذكره عن هذه الوحشة ، راجع :

Gibb: Arabic Sources for the Life of Saladin, Spocculm, 1950, pp. 58-72.

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٣٩٨-٣٩٩ .

وجهد عظيم للاستيلاء عليه ، لانه سيكون مجبرا اما لمواصلة الحصار على الشوبك ، أو فك الحصار والعودة الى مصر ، وهذا ما حدث .

ويذكر العماد الاصفهاني وابن واصل وغيرهما من المؤرخين (١) ان صلاح الدين عندما خرج لغزو الفرنجة في الشوبك والكرك بعث الى سيده وقائده نور الدين محمود بالهدايا التي جمعها من قصور الخلافة الفاطمية .

وكان من ضمن هذه الهدايا فيل وحمار وحشى (عتابيه) وذخائر ومنتعة ومجوهرات غالية مثل الميثم (٢) ، وبلخش (٣) واللؤلؤ والطيب والعطر وغرائب المصنوعات وستون ألف دينار ذهباً .

فلما وصل الى بلاد الكرك والشوبك اغار عليهما ، وخرب اراضيهما وعماراتهما ، وشن الغارات على أعمالهما وكانت هذه أول اغارات صلاح الدين على الفرنجة من مصر في أوائل سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، وقد بدأ بهذين الحصنين لقربهما من مصر ، وفي طريقها ، وكان الصليبيون المقيمون فيهما يتصدون للقوافل القادمة الى مصر فيمتنعونها ويغيرون عليها ، وكان صلاح الدين يخرج الى كل قافلة قادمة ليحميها حتى تعبر طريق هذين الحصنين فازاد من الاغارة عليهما والاستيلاء عليهما ازالة مخاطرها من طريق القوافل ، واشاعة الطمانينة والامان للقادمين من الشام والمغادرين مصر ، ومع ذلك استعصى كل من الحصنين عليه (٤) .

-
- (١) راجع ابن واصل : ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .
(٢) يشم وكذلك يشب وهو حجر ثمين مثل الزبرجد له اللون مثل الأبيض والأصفر والزيّتي . وهو أفضلها . راجع ابن الاكفاني : نخب الذخائر في أحوال الجواهر ، تعليقات الاب الكرملي ، ص ٧٢ وكذلك البيروني : كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٨ .
(٣) جوهر أحمر شفاف مثل البياقوت العظيم في اللون والرواق ، ينسب الى موطنه (بلخشان) حيث يكثر وجوده ، وهو اقلّيم في أقصى شرقى أفغانستان ، وأهل ايران يسمونه (بذخشان) . ابن الاكفاني : المرجع السابق ص ١٤-١٥ .
(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

أرسل صلاح الدين هذه الهدايا كلها الى نور الدين محمود وبعث بكتاب رقيق من انشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم ، يشرح فيه اسباب خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك ، ويمدح فيه سيده وقائده لجهاده ضد هؤلاء الفرنجة ... الخ .

وعندما وصلت هذه الهدايا الى نور الدين محمود سنة ٥٦٨ هـ وهو بحلب استقبلها ولم تقع منه بموقع ، ومع ذلك أبدى شكره لصلاح الدين عليها . ونحن نستدل على عدم رضاء نور الدين عن هذه الهدايا بما ورد في المصادر التاريخية :

أولاً - قوله : « ما كان بنا حاجة الى هذا المال ، وهو - صلاح الدين - يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر الى هذا الذهب ، وإن هذا المحمول - الهدايا - لا توازي ولا تساوى ما جئنا به من مقدار ، وهو يعلم أن ثغور الشام تحتاج الى عدد وفير من الجند ، فقد عم البلاء بالفرنج ، وينبغي أن يسارع صلاح الدين بتقديم المساعدات والمعونات » (١) وواضح أن نور الدين محمود كان يريد أن يقوى جبهة الشام بالجنود والذخيرة من جانب صلاح الدين بعد أن تم له ملك مصر ، وقد أوضح نور الدين غرضه فهو يريد أن ينتهز هذه الفرصة التي أصيب الفرنج فيها بالبلاء والضعف والتفكك لينزل بهم ضربة قاسمة ويتوج جهاده بالانتصار عليهم وإزالة موضعهم من بلاد المسلمين .

ثانياً - الدليل على استهانة نور الدين محمود بالهدايا التي أرسلت اليه وعدم قبوله إياها أنه أخذ يوزعها فاهدى الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود - صاحب الموصل - مع شيء من الثياب والعبود والعنبر ... الخ ، كما بعث نور الدين بالحمار الوحشي الى الخليفة العباسي ومعه شيء من الهدايا الأخرى كذلك .

ثالثا - كان نور الدين يأمل أن يرسل صلاح الدين الأيوبي إليه ما يستعين به على مواصلة الجهاد من تلقاء نفسه ، خصوصا وأنه من المقربين الى نور الدين محمود ، ويعرف تماما ماذا ينفق على أمور الجهاد وإعداد الجيوش وأمدادها بالذخيرة والمال ، ولكن عندما تباطأ صلاح الدين وأرسل الهدايا التي استقلها نور الدين ولم ترقه ، حينئذ كلف نور الدين متولى ديوان الاستيفاء وهو موفق الدين خالد بن القيسراني بالذهاب الى مصر وأن يقيم أعمال مصر ودخلها ويكتب ذلك في أوراقه حتى يمكن له تقرير المال الذي يرسله إليه صلاح الدين (١) .

وإذا أمعنا النظر الى ما قاله نور الدين محمود فانه يريد امدادات عسكرية من صلاح الدين ، فاذا أرسلها فسوف يتناقص عدد جنوده ، وتضعف امكاناته في هذا الوقت الذي يحتاج فيه الى كامل قوته ، وسوف يصبح هدفا سهلا لهجمات الصليبيين أو اغارات أتباع الدولة الفاطمية الذين يتربصون به ليتخلصوا منه ومن دولته في مصر . وهذا في رأينا ما دفع صلاح الدين الى العودة الى مصر لكي يحتفظ بملكه الجديد .

موت نور الدين محمود :

رأى نور الدين محمود فتور صلاح الدين فيما يأمره به من غزو الصليبيين ، وعلم ان مصلحة صلاح الدين أن يظل هؤلاء الصليبيون حاجزا فيما بينهما ، ليمتنع بهم عن وصول نور الدين محمود الى مصر ، كما علم بتخوف صلاح الدين منه ، ومن الاجتماع به ، فأخذ يعد نفسه وقواته للخروج الى مصر وأخذها من صلاح الدين ، ولكن لحسن حظ صلاح الدين الأيوبي ، وربما للعالم الاسلامي أن نور الدين محمود توفي في قلعة دمشق خلال تجهيز

قواته في شوال سنة ٥٦٩ هـ / ١٥ مايو ١١٧٤م (١) قبل أن تزداد العلاقات
بين القائدين العظيمين سوءا ، وينعكس آثارها على الجبهة الاسلامية المتحدة
التي يعمل كل منهما لتحقيقها ، لمواجهة الصليبيين وطردهم من بلاد
المسلمين .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ص ٩٠

الفصل الرابع

صلاح الدين والجبهة الاسلامية

بعد وفاة نور الدين محمود (١) ، تولى ابنه الصالح اسماعيل ملك دمشق وحلب من بعده ، وكان غلاما في الحادية عشرة من عمره (٢) ، وبإيعاز الأمراء والمقدمون بدمشق ، وأقام بها ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة باسمه ، وتولى تربيته والإشراف عليه الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وبذلك أصبح مدبر ملكه . وقد بعث صلاح الدين إلى الصالح اسماعيل بكتاب يهنئه فيه بتوليته ويعزيه في وفاة والده نور الدين ، ويعلن طاعته له وأن الخطبة ستكون باسمه ، وأرسل مع هذا الكتاب بعض الدنانير المصرية وقد ضرب عليها اسمه (٣) ولكن بعض كبار القواد طمعوا في الصالح اسماعيل ، وحاول كل منهم أن يسيطر على هذا الغلام حتى يكون صاحب النفوذ والكلمة ، وبذلك ظهرت مشكلة البيت الزنكي وتقسيم دولة نور الدين محمود بين ورثته .

فقد تحرك سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي (ابن عم الصالح اسماعيل) وكان على الموصل من قبل نور الدين محمود ، وأخذ يضم إليه بعض البلدان مثل نصيبين ، والخابور ، وحران ، والرقعة ، وغيرها من بلدان الجزيرة باستثناء قلعة جعبر لحصانتها ، ورأس عين التي لم يتعرض لها ، لأنها كانت لابن خاله قطب الدين (صاحب مردين) . ثم أعلن نفسه أميرا على الجزيرة ، وأخذ يتطلع إلى ضم حلب إليه . لتعود أتابكية الموصل كما كانت على عهد عماد الدين زنكي ، ولكي يضمن السيطرة على الصالح اسماعيل .

(١) توفي يوم ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م - أبو شامة : الروضتين ،

ج ١ ص ٢٢٨ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٠٥ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣١ .

لم يلبث النزاع أن دب بين كبار قواد نور الدين محمود وبين سيف الدين غازي في الموصل ، ثم بينه وبين قواد نور الدين في الشام ، ليل بعضهم الى صلاح الدين الايوبي ، ورغبتهم في التعاون معه ، ومن الطبيعي وقف ضدهم شمس الدين بن المقدم مدير ملك الصالح اسماعيل وصاحب بعلبك ، ولكي يقوى من مركزه ضد هؤلاء القواد انحاز الى الصليبيين وعقد هدنة معهم ، ودفع لهم مالا (١) .

كان سعد الدين كمشتكين قد هرب من الموصل الى حلب واقام عند مقدم عسكرها شمس الدين بن الداية ، الذي خاف أن يغير سيف الدين غازي عليه في حلب ويتملكها ، فأرسل سعد الدين كمشتكين على رأس مجموعة من الجنود ليحضر الملك الصالح اسماعيل ومعه العساكر الى حلب ليحموها ويمنعوها من أيدي سيف الدين غازي . فلما اقترب كمشتكين من دمشق أرسل ابن المقدم اليه عسكرا هزموه ونهبوه ، فعاد مهزوما الى حلب .

اجتمع أمراء البيت الزنكي ووجدوا ان المصلحة تقتضى وجود الملك الصالح اسماعيل في حلب ، فأرسلوا الى ابن الداية أن يرسل كمشتكين ليصحب الملك الصالح ، وتم ذلك فعلا ، ولكن كمشتكين استغل مرض ابن الداية - الذي آواه وسمح له بالاقامة عنده - وقبض عليه وعلى اخوته (٢) ، كما قبض على رئيس حلب (ابن الخشاب) واستبد هو بتدبير ملك الصالح اسماعيل .

أصبح صلاح الدين قلقا لما يحدث في الشام من صراع بين الأمراء ، وموقفهم السلبي مع الفرنجة ، ولو تغاضى عما يحدث لتفرقت كلمتهم أكثر مما هي الآن ، ولطمع الصليبيون في البلاد . ورأى أن يكتب للأمير شمس الدين بن المقدم فبعث اليه برسالة جاء فيها :

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤١٥ .

« أنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم ، وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره ، وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما يظهر أثرها عند تكاثر الاطماع من العداة ، وبالجمله أنا في واد والظانئون بنا ظن السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولنا يبعدنا عنه مراد « (١) ثم عزم على تلافى ما يقع من أمور ولن يتحقق له ذلك إلا بضم الشام اليه ، وقد ساعده على عزمه كتب وردت اليه من ابن المقدم ، وبعض الأمراء يستعجلون قدومه الى دمشق (٢) .

الاستيلاء على دمشق :

واصل صلاح الدين مسيره بمن معه ونزلوا على جسر الخشب (٣) حيث استقبله ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، والأمير سعد الدين بن معين الدولة أنر ، وفي هذا المكان اجتمعت عليه الجنود والفرسان ، الذين تحركوا بجموعهم حتى دخلوا دمشق في ربيع آخر سنة ٥٧٠هـ (٤) / نوفمبر ١١٧٤م فخرج كل عساكرها وأعلنوا انضمامهم وطاعتهم الى صلاح الدين الايوبي .

نزل صلاح الدين في دار والده وهى (دار العقيقى) ، ثم لم يلبث ان أرسل قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى الى متولى القلعة واسمه (جمال الدين ربحان) ونجح الشهرزورى فى استلام القلعة منه ، فأسرع صلاح الدين بالصعود اليها ، واستولى على جميع ما فيها من أموال (٥) واعتاد ، فقويت نفسه بذلك ، وتملك المدينة وقلعتها وهو يظهر فى كل ذلك الطاعة للمصالح اسماعيل .

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ١٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٦ .

(٣) جسر الخشب .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٢ ص ٤١٥ .

(٥) ابن الاثير : نفسه ج ١ ص ٤١٦ .

وصلت الأخبار الى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ومدبري ملكه ، وتوقعوا ان صلاح الدين سيمتلك كل البلاد الشامية ، فكتبوا الى سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وارسلوا الى صلاح الدين مبعوثا هو الامير قطب الدين ينال بن حسان - صاحب مذبج - برسالة فيها غلظة في القول وتعنيف ، ومما قاله ينال لصلاح الدين : « هذه السيوف التي ملكتك مصر - وأشار الى سيفه - تردك ، وعما تصديت له تصدك » فعامله صلاح الدين بحلمه المعهود ، وقال : « انما وصلت لترتيب الأمور وتربية الملك الصالح ، واخراج الأمراء أولاد الداية من الاعتقال » فقال ينال : « أنت تريد الملك لنفسك ، وليس مقصودك غير ذلك ، والمصلحة أنك ترجع من حيث جئت ، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع » (١) فتبسم صلاح الدين استهزاء من الرجل ، وتغاضى عنه .

ولما استقرت لصلاح الدين أمور دمشق ، استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب . ثم اضطر للمسير الى مدينة حمص ، وكان السبب في ذلك ان القومص الصنجيل (الكونت ريموند الثالث - صاحب طرابلس -) بعدما خرج من أسرهِ الذي بقى فيه عشرين سنة ، سار الى حمص ليستولى عليها ويقطع الطريق على صلاح الدين فلا يتمكن من العودة الى جنوب الشام . ولم يكن خروج الصليبيين مساعدة لأهل حلب ، فالأورخ اللاتيني وليم الصوري يقول : « ان كل ازدياد في قوة صلاح الدين يثير فينا الرعب والخوف ... ومن الخير أن نبذل المساعدة للطفل اسماعيل لا مراعاة لصالحه ، بل باعتباره عدوا لصلاح الدين » (٢) . فلما سمع صلاح الدين بذلك أسرع بالخروج لكي يمنع سقوط حمص في يد ريموند الثالث ، فلما وصلها امتنع أهلها من تسليم المدينة له فقاتلهم حتى تملكها (٣) ، وأمن أهلها ،

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٩ ، وقد نقل أبو شامة عن المؤرخ الشيعي الحلبي ابن أبي طي قوله : « ... وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج الى الشام وقصده الملك الصالح » .

(٢) William of Tyre, II, p. 21 & Setton; Hist. of Crus. I, Chap. IV, (٢)

(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٥٠ .

ولكن القلعة امتنعت عليه فتركها مؤقتا ، وعين على المدينة (حمص) من يحفظها ويراقب الأمن فيها .

ثم توجه صلاح الدين بعساكره الى حلب ، وضرب عليها الحصار في الثالث من جمادى الآخرة ، وقاتله أهلها واستماتوا في القتال خاصة بعد أن أبدى الملك الصالح اسماعيل تخوفه من صلاح الدين ، واستدر عطفهم ، وحرك أشجانهم ، وذكرهم بمحبة أبيه واحسانه لهم . وكان الفرنج قريبين من حلب ، وكان صلاح الدين يخشى انضمامهم الى أهالى حلب ، الذين كانوا يخرجون من المدينة ويقاتلون عند جبل جوشن ، وبذلك لم يتمكن من الاقتراب من حلب (١) .

وأغرى سعد الدين كمشتكين مقدم الاسماعيلية الباطنية سنان ، وبذل له الأموال ليرسل بعض أتباعه من الحشاشين ليقتلوا صلاح الدين الأيوبي ، فلما وصلوا لتنفيذ جريمتهم تعرف عليهم بعض أتباع صلاح الدين ، وتعرضوا لهم في نفس الوقت الذى اندفعوا فيه لقتل صلاح الدين ، فقتلوا منهم جمعا ، وقتل جميع الحشاشين ونجى الله صلاح الدين من هذه المؤامرة الغادرة .

اضطر صلاح الدين الى الرحيل عن حلب ، ووصل الى حماه في اليوم التالى لنزول الفرنج على حمص ، فلما سمع الفرنج بقدوم صلاح الدين رحلوا عن حمص ، فتملكها صلاح الدين هى والقلعة في شهر شعبان . ثم توجه صلاح الدين الى بعلبك فاستلم المدينة من واليها هى والقلعة ، ودخلها في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٥٧٠ هـ / ابريل ١١٧٥ م .

هذا النجاح الذى أصابه صلاح الدين الأيوبي ، أنزل الخوف في قلب سيف الدين غازي صاحب الموصل والجزيرة ، واعتقد أن الهدف الثانى لصلاح الدين هو الموصل نفسها ، ولذلك جمع جيشا كبيرا ، وأرسل به الى حلب بقيادة أخيه عز الدين مسعود . واجتمعت جيوش الموصل ، وجيوش

حلب وكانت تزيد على عشرين ألفا ، والتقى صلاح الدين الأيوبي بجيشه مع هذه الجيوش عند قرون حماة في سنة ٥٧٠هـ / أواخر إبريل سنة ١١٧٥م وأحرز عليها النصر ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن تكون حلب وما يحيط بها للملك الصالح اسماعيل ، وأن تكون الأجزاء الجنوبية من حلب لصلاح الدين الأيوبي .

لم يلبث أن تجدد القتال بين الفريقين في سنة ٥٧١هـ / إبريل ١١٧٦م في مكان يسمى تل السلطان بين حماة وحلب ، وفي هذه المرة أنزل صلاح الدين الهزيمة بخصومه كذلك ، وقتل منهم أعدادا وفيرة (١) واستولى على مغانم كثيرة .

بدأ صلاح الدين في الاستيلاء على حلب ، ومهد لهذا الأمر بالاستيلاء على ما حولها من حصون وقلاع حتى يضعفها ، فاستولى على بزاعة ، ومنبج ، وأعزاز ، وفي أثناء حصاره لأعزاز تمكن بعض الحشيشية للمرة الثانية من الوثوب عليه ، وضربه على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يتقى نفسه بملابس الحرب (بيضة ، وكزاغند ، وغيرها) وقبض على هؤلاء الاسماعيلية وتم قتلهم .

ضرب صلاح الدين الأيوبي الحصار على حلب ، وبقي على حصارها حتى أهلت سنة ٥٧٢هـ / يونية سنة ١١٧٦م ، فلما اشتد الضيق بأهلها ، رضخوا للصلح على أن تكون حلب وأعمالها للصلح اسماعيل بن نور الدين ، وأن تكون بلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبا بالإضافة الى مصر لصلاح الدين .

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من أمر حلب ، حتى اتجه في يوليو الى الاسماعيلية الحشيشية في قلعتهم في مصيف ، وترك لسيوف جنوده تعمل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٠ ، وابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٢ ص ٣٩ .

عملها في رقابهم حتى قضى على الكثير منهم ، كما انه هدم الكثير من حصونهم ، ولولا تدخل شهاب الدولة الحارمى ، صاحب حماة ، الذى تشفع لهم لاستغاثتهم به (١) ، ما تركهم صلاح الدين الا بعد القضاء عليهم ، ثم عاد الى القاهرة في سبتمبر .

من هذا العرض التاريخى نستطيع أن نقف على طبيعة العلاقات السياسية بين أمراء الدول الاسلامية ، وبينهم وبين الصليبيين ، فنجد ان صلاح الدين جابه صعوبات جمة في بلدان منطقة الشرق الأدنى لتحقيق الهدف الذى بدأه عماد الدين زنكى ، ثم تابعه فيه ابنه نور الدين محمود والذى اصبح تحقيقه واقعا على عاتق صلاح الدين ، الا وهو تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة . وهو في سبيل ذلك يضطر الى محاربة الداعين للانفصال في حلب ، ولكنه يجابه بخطر الصليبيين ، فيرغم على عقد الصلح مع أهل حلب ، ليتفرغ للصليبيين ليدرا عن البلاد خطرهم الداهم حينما حاولوا قطع الطريق عليه ، وحاصروا حمص ، ثم لا يلبث أن يعود الى مصر مسرعا لحفظها من الوقوع في يد الفرنجة الذين نزلوا على الاسكندرية باساطيلهم ، ولذلك أخذ صلاح الدين يعمل على تحصين مصر وحمايتها بعد أن تبين له ان الصليبيين اشد طمعا في مصر عن الشام والعراق ، اللذين أعمت المصالح الشخصية أهلها وحكامهما عن رؤية هذا الخطر الصليبي على الوطن العربى كله ، خاصة وأن الصليبيين ودعاة الانفصال كانوا يحسبون حسابا كبيرا لاستيلاء صلاح الدين على مصر واستقلاله بها (٢) .

وعلى الرغم مما كابده صلاح الدين من هذه الصعوبات فقد نجح فعلا في توحيد الجبهة الاسلامية بعد أن نظم أمور مصر الداخلية ، واستقر بها سنوات ست قضاها كلها في التفكير في الموصل وحلب الى جاذب ما كان يقوم به في مصر من تشييد للقلاع والحصون ، واقامة المدارس والمستشفيات .

(١) ابن واصل : مفرج ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٧٥٠ .

ففى خلال فترة الاعداد واستكمال التحصينات اللازمة ، التى قضاهها صلاح الدين الايوبى فى مصر (من سنة ٥٧٢ - ٥٧٧ هـ / ١١٧٦ - ١١٨١ م) واصل صلاح الدين مناوشاته الحربية ضد الصليبيين ، فاحرز الانتصارات ، وأصيب ببعض الهزائم ، ففى جمادى الأولى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م خرج صلاح الدين بجيشه لمناوشة الصليبيين فى جنوب الشام وعندما وصل الى غزة وجد أن الفرسان الداوية كانوا قد استعدوا لمقدمه فاضطر الى تركها واتجه الى عسقلان وأغارت عساكره على بعض أعمالها ، فنهبوا وسلبوا وأسروا وسبوا ، ومع ذلك لم يظهر الصليبيون لملاقاة صلاح الدين وجنوده ، فاعتبر جنود صلاح الدين ، وأمنوا وانساحوا فى أعمال عسقلان حتى وصلوا الى الرملة ، وفيها يستعدون للهجوم على حصون الصليبيين ، وبينما العساكر الصلاحية متفرقون فى جماعات بحثا عن الغنائم ، وبينما كان صلاح الدين فى قلة من عسكره فاجاه الصليبيون بالهجوم اذ خرج بلدوين الرابع مع جنوده والتحم الفريقان فى موقعة سريعة عند تل الصافية بالقرب من الرملة انتهت بهزيمة صلاح الدين وعودته فى نفر قليل من جنده الى مصر بعد أن لاقى من الصعاب والمشقة وقلة الاقوات شيئا كثيرا ، وقد عبر صلاح الدين عما لاقاه من أهوال فى خطاب أرسله الى أخيه توران شاه فى دمشق حتى أنه أشرف على الهلاك (١) .

وقد وقع بعض الجنود الصلاحية أسرى فى أيدي الصليبيين ، وكان من ضمن هؤلاء الفقيه عيسى الهكارى (٢) الذى أبلى بلاء حسنا فى القتال بين

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٢-٤٤٣ وقد ذكر ابن الاثير انه شاهد هذا الخطاب بخط صلاح الدين نفسه .

(٢) هو ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الحسنى الطالبي ، مستشار صلاح الدين ، كان فى أول أمره يشتغل بالفقه فى حلب ، واتصل بالامير أسد الدين شيركوه ، فصار اماما له ولجنده ، وتوجه معه الى مصر ، ولما توفى شيركوه سعى الهكارى الى اقامة صلاح الدين فى الوزارة بدلا من عمه شيركوه ، فلما عظم أمر صلاح الدين عرف للهكارى فضله وسابقته ، واعتمد عليه فى المشورة ، ولم يخالفه فى رأى ، وكان الهكارى يرتدى لباس الجند ، ويضع على رأسه عمامة الفقهاء ، واستمر على مكانته وتوفر حرمة الى أن توفى بقرب عكا ، ونقل الى القدس فدفن بظاهرها . ابن خلكان : وفيات ، ج ٢ ص ٣٩٧ ، الزركلى : الاعلام ، ج ٥ ص ١٠٧ .

يدى صلاح الدين الأيوبي ، ويقال ان أرناط صاحب حصن الكرك كان له الفضل في تقوية عساكر بلدوين لانضمامه بعسكره اليهم ، مما سهل عليهم احراز هذا النصر على المسلمين .

الصليبيون يحاصرون حماة سنة ١١٧٧/٥٥٧٣ م :

انتهاز الصليبيون فرصة ما اصاب صلاح الدين الأيوبي من هزيمة في الرملة وعلموا ان أخاه توران شاه (نائبه في دمشق) كان في عسكر قليل ، وتجمعوا ، وساعدتهم الظروف بوصول عدد من المراكب تحمل أعدادا كثيرة من الصليبيين القادمين من أوروبا وتحركت هذه الأعداد الغفيرة الى حماة . وضربت عليها الحصار ، وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي (خال صلاح الدين) مريضا ، لا يقوى على الجهاد والنضال ، وساعدت الظروف الصليبيين من كل جانب ، فقاتلوا أهل حماة بشدة حتى كادت أن تسقط في أيديهم ، لولا صمود العساكر وأهل المدينة معا وتكاتفهم حتى ردوا الصليبيين عن بلدهم واثخنوا فيهم القتل الجراح (١) .

حصار حارم :

انتهاز الصليبيون فرصة انقلاب الصالح اسماعيل على سعد الدين كمشتكين مدبر شئون ملكه فقد طلب الصالح اسماعيل مدينة حارم منه فرفض فأمر بتعذيبه وقاتله (٣) ، وقد ترتب على ذلك ضعف مركز الملك الصالح اسماعيل ، لدرجة ان أهالي مدينة حارم أعلنوا العصيان والتمرد عليه .

عندئذ سار الصليبيون الى قلعة حارم في جمادى الأولى سنة ٥٥٧٣ هـ طمعا في الاستيلاء عليها وهم يعتقدون بضعف أهلها ، ويضعف الصالح اسماعيل ، وان صلاح الدين الأيوبي في مصر بعيد عن نجدتها ، فنزلوا عليها وحاصروها مدة أربعة شهور ، ونصبوا عليها المجانيق ، والسهل ، فاضطر

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤٤٤ ، ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ٦٤ .

(٢) ابن شداد : النوادر ، ص ٥٣ .

(م ٨ - صلاح الدين)

الصالح اسماعيل الى أن يدفع لهم أموالا بعد أن لجأ الى تخويفهم بقسود صلاح الدين الايوبي الى الشام ، وانه سوف يسلم اليه المدينة وقلعتها ، فأثر الصليبيون أخذ الأموال والعودة الى اماراتهم ، وكان أهالي حارم تعبوا من حصار الفرنج لهم ، فسلموا البلد الى الصالح اسماعيل .

عاد صلاح الدين بعد هذه الهزيمة الى مصر في جمادى سنة ٥٧٣هـ / (١) ديسمبر ١١٧٧م ورتب صفوفه ثم غادرها في ٥٧٤هـ / ١١٧٨م واتجه الى الشام حيث تقابل مع الصليبيين عند حصن يقال له مخاضة الأحزان (٢) أو (مرج عيون) وهناك نشبت معركة حامية سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م حيث تمكن صلاح الدين من الثار لهزيمته السابقة ووقع في يديه عدد كبير من أسرى الصليبيين ، في مقدمتهم قائد فرسان الداوية Otto of Saint Amand ، ومقدم فرسان الاستبازية (٣) (فرسان القديس يوحنا) وبعد أن استسلم الحصن أمر صلاح الدين بهدمه وازالته من الوجود .

لم يمض وقت طويل حتى ضعف البيت الاتابكي المناوئ لصلاح الدين فقد توفي سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م ، ثم توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، صاحب حلب ، سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م (٤) ونتج عن ذلك خلاف على الملك بين عز الدين مسعود الذي أصبح على الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي ، وبين أخيه الأصغر عماد الدين زنكي الثاني ، ووجد صلاح الدين أن هذا النزاع لن يمكنه من تحقيق هدفه في اخراج الجبهة الإسلامية المتحدة الى الوجود لمجابهة قوى الصليبيين بها ، وفكر في تصفية الموقف مع البيت الاتابكي ولهذا قرر الخروج من مصر لاختضاع حلب والموصل وادخالهما في طاعته .

-
- (١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٤٣ .
(٢) يقع هذا الحصن بالقرب من بانياس ، عند بيت يعقوب عليه السلام ، وتعرف هذه المنطقة باسم مرج عيون ، بروكلمان : ص ٣٥٥ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٥٥ ، وكذلك :
Runciman; op. cit., II. p. 418.
(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٧٢ .

وكان الذى دفعه الى هذا هو ان ريجنال دى شاتيون (ارناط) ، صاحب الكرك وهو من اشد الصليبيين عداوة للمسلمين ، كان قد جهز عساكره فى تلك الفترة المضطربة (٥٧٧هـ / ١١٨١م) يريد المسير بهم الى تيماء ، ومنها الى مدينة الرسول ﷺ لتخريبها ، ولكن الامير فرخ شاه بن اخى صلاح الدين ، ونائبه على دمشق جمع عساكره وهاجم الكرك ، وخرب ارباضه ، واقام فى اطراف المدينة ليمنع خروج ريجنال ، الذى أدرك اصرار المسلمين على البقاء حتى تتفرق عساكره ، فرجع عن عزمه وصرف جنده (١) .

خرج صلاح الدين الايوبي من مصر فى المحرم سنة ٥٧٨هـ / مايو ١١٨٢م وكان آخر عهده بها ، فوصل الى الشوبك والكرك فاغار عليهما ، فتحصن الصليبيون بداخلهما ، فتركهما وواصل مسيره حتى دخل دمشق، ثم خرج منها فى ربيع الاول وعسكر فى الاقحوانة بشرق الارثن ، ووصل الصليبيون فعسكروا بطبرية على مقربة منه فارسل صلاح الدين ابن اخيه فرخ شاه مع بعض قواته الى بيسان ، فدخلها قهرا واستولى عليها (٢) .

ثم سار صلاح الدين الى الرها فحصرها فى جمادى الاولى ، وشدد عليها الحصار ، فاذعن حاكمها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وسلمها الى صلاح الدين ، ولم يلبث صلاح الدين ان ضم اليه حران والرقه والخابور وسنجار ونصيبين (٣) .

كان هدف صلاح الدين من الاستيلاء على هذه المدن الواقعة فى اقليم الجزيرة ، هو تضيق الخناق على عز الدين مسعود فى الموصل ، ليستكمل كيان الجبهة الاسلامية المتحدة ، حتى لا تكون الموصل منفذا للصليبيين اذا

(١) ابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٢ ص ١٠٢ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ، ص ٤٨١ .
(٣) ابن واصل : مفروج الكروب ، ص ١١٥ وما بعدها ، وكذلك : Wiet, op. cit., p. 319.

لم تندمج مع باقى بلدان المنطقة تحت نفوذ صلاح الدين ، ثم ان انضمامها (الموصل) يزيد من قوة المسلمين فى التصدى للقوى الصليبية .

طلب صلاح الدين من الخليفة العباسى (أبو العباس أحمد الناصر ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فى بغداد أن يمنحه تقليدا بالموصل ، ولكن الخليفة بعث اليه بامارة آمد (ديار بكر) ، الأمر الذى اعتبره بعض المؤرخين (١) عقبة كؤود وضعها الخليفة العباسى أمام توحيد كلمة المسلمين .

عاد صلاح الدين الى حلب ، فاستولى على معاقلها الأمامية وهى آمد ، وتل خالد ، وعينتاب (٢) فى ٥٧٩ هـ / يونيه ١١٨٣ م ، ثم ضرب الحصار على حلب فسلمها اليه أميرها عماد الدين زنكى الثانى (٣) ، فى مقابل سنجار ، فوافق صلاح الدين (٤) وزاده الخابور ونصيبين والرقه وسروج ، واشترط عليه أن يمدّه بالجنود لمواصلة الجهاد ، ولم يلبث أهالى حارم ان سلموا مدينتهم الى صلاح الدين ، بعد أن أطاحوا بأميرهم لأنه طلب مساعدة الصليبيين فى انطاكية ، وبذلك استقر لصلاح الدين أمر حلب وأطرافها فعين عليها ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى نائباً عنه .

وقد ترتب على سقوط حلب فى يد صلاح الدين أن قوى مركزه ، وأضحت الجبهة الإسلامية المتحدة ، التى أسسها عماد الدين زنكى ، ورعاها ونماها من بعده ابنه نور الدين محمود ، والتى وقع على عاتق صلاح الدين الأيوبي أن يصل بها الى نهاية الطريق ، أضحت هذه الجبهة أكثر تماسكا من قبل ، واشتدت مخاوف الصليبيين خاصة بعد ما نشط الأسطول المصرى فيما بين

-
- (١) العرينى : الأيوبيون ، ص ٦٦ .
 (٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٩٥ .
 (٣) هو عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، ابن الاثير : نفسه ج ١١ ص ٤٩٦ .
 (٤) يذكر ابن العديم (زبدة الحلب ، ج ٣ ص ٥٦) ان عماد الدين قال لصلاح الدين : امض الى سنجار وخذها وادفعها الى أعطيك حلب ، والحقيقة ان صلاح الدين كان قد استولى على سنجار فى العام السابق .
 (٥) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها .

سنتى ١١٨٣/١١٨٤ م ، فالتمس ريموند الصنجيلي أمير طرابلس ، والذي كان يعيش في طبرية باعتبارها من أملاك زوجته أرملة الحاكم السابق لطبرية ، من صلاح الدين عقد الهدنة بينهما ، ووافق صلاح الدين لأن هذه الهدنة ستحمي ظهر قواته ، فلا تتعرض لغارات الصليبيين من الشمال ، وتجعله يتفرغ لاتمام توحيد الجبهة الاسلامية ومن ناحية أخرى أراد صلاح الدين أن يعزل الصليبيين في شمال الشام حتى لا يساعدوا صليبي فلسطين ، وبذلك عقدت الهدنة لمدة أربع سنوات (١١٨٥ - ١١٨٩ م) (٦) .

في خلال تلك الفترة جرت اتصالات بين عز الدين مسعود ، أمير الموصل وبين صلاح الدين لإنهاء مشكلة الموصل ، ولكن هذه الاتصالات ساءت بالفشل ، واضطر صلاح الدين الى أن يحشد قواته في صفر ٥٨٢ هـ / مايو ١١٨٥ م وخرج بها يريد الموصل ، وأرسل صلاح الدين الى الخليفة العباسي في بغداد يخطره بما عزم عليه من منازلة أمير الموصل وأهلها ويشرح لهم أنهم يرسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت رغبة في زيادة ملكه ، أو التخلص من البيت الزنكي ، وإنما قصد أن يردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الاسلام .

نزل صلاح الدين بقواته بالقرب من الموصل حتى تنقضى فترة الشتاء ، وكلن عماد الدين زنكى الثانى ، صاحب سنجار ، توسط بين صلاح الدين ، وعز الدين مسعود ، وتم الصلح بين الجانبين في ذى الحجة ٥٨١ هـ / مارس ١١٨٦ م ، وقد حقق اكتمال تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة بين العراق والشام ومصر ، وأخذ يعد العودة لتحقيق حلمه الكبير الا وهو اعلان الجهاد الاكبر ضد الصليبيين لطردهم من بلاد المسلمين ، التى سيطروا عليها في فترة ضعف الدول الاسلامية .

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

22

23

24

25

26

27

الفصل الخامس

(١) جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين

تعتبر الفترة التي تولى فيها صلاح الدين الأيوبي مسئولية الجهاد ضد الصليبيين من أهم مراحل تاريخ منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى وبالتالي أهم مراحل تاريخ العلاقات بين المشرق الاسلامى والغرب المسيحى لأن الجبهة الاسلامية الموحدة لم تصبح حقيقة واقعة الا على يد صلاح الدين ، ولذلك أصبح لزاما عليه ان يضع الخطة العامة لطرد الصليبيين من بلدان المشرق الاسلامى .

حقيقة ان صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين في فترة التكوين والاعداد ، ولكنه لم يشن عليهم حربا شاملة ، بل اكتفى بتوجيه ضربات مؤلة في قواتهم ، وبذلك أوقف - الى حد ما - اعتداءاتهم المتكررة على المدن الاسلامية . ولكن بمجرد أن اتم الاستعدادات وأقام التحصينات أخذ يستنفر المسلمين للجهاد في مستهل سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م فتوافدوا عليه آلاف من الموصل ، والجزيرة ، وأربل وغيرها من بلاد العراق ، ومن مصر والشام ، وأدرك الصليبيون ان صلاح الدين لابد وأنه متخذ الخطوة الحاسمة لمواجهةهم ، وتوجيه ضربة قاسية لهم بعد أن عين ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى نائبا عنه في حكم حلب .

الحالة التي كانت عليها الامارات الصليبية :

كانت الامارات الصليبية في تلك الفترة آخذة في الضعف ، بسبب قلة التعاون فيما بينها وما أصاب الأمراء الصليبيين من حقد وتنافس وزيادة شقة الاختلاف فيما بينهم ، خاصة فيما بين بوهمند Buhimond وريموند Rymond وبلدوين الأول Baldwin I وداجوبرت Dagobert ... الخ ، ثم لعبت مشكلة الوراثة في مملكة بيت المقدس دورها الخطير ، وزادت من انقسام الجبهة الصليبية ، فبعدما تولى الملك عمورى (Emorio) خلفه ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وكان طفلا مريضا

بالجزام والبرص، فتولى الوصاية عليه ريموند III ، أمير طرابلس (١)، وكان اكفا الحكام الصليبيين ، وكان لبلدوين الرابع أخت جميلة هى سيبلا Sibylla وهى الابنة الكبرى لعمورى ، كانت قد تزوجت وليم مونتفرات (همفرى الرابع) الذى توفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م بعد أن أنجب منها بلدوين الخامس ، ثم تزوجت سيبلا للمرة الثانية من فارس فرنسى وسيم هو جاي دى لوزجنان سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، وقد أصبح هذا المغامر الفرنسى وصيا على مملكة بيت المقدس بحكم زواجه من سيبلا ولان ابنها بلدوين الخامس كان صغيرا ، ولكن لم يلبث أن توفى بلدوين الخامس ، وأصبح لوزجنان ملكا سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م (٢) ويعتبر هذا التتويج انتهاكا للوعد الذى قطعه لوزجنان على نفسه لريموند ، صاحب طرابلس ، بأنه فى حالة وفاة بلدوين الخامس ، دون أن يترك وريثا ، لا يقرر ولاية الحكم الا البابا ، والامبراطور وملكا انجلترا وفرنسا (٣) . وقد ترتب على زواج سيبلا بلوزجنان أن زاد الانقسام فى الجبهة الصليبية ، وأصبح هناك معسكران (جبهتان) جبهة تضم سيبلا وزوجها جاي دى لوزجنان ومن معها من الصليبيين وهؤلاء يرون المبادرة لحرب صلاح الدين والمسلمين ، بينما الجبهة الثانية التى تضم ريموند الثالث ومن معه يؤثرون السياسة السليمة نظرا لاحتساسهم بالضعف الذى أصابهم جميعا ، والانقسام الذى أصبح ظاهرا فى مجتمعهم ، لدوجة ان ريموند راسل صلاح الدين الأيوبي وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج (٤) ووافقه جموع من الصليبيين ، فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم ، ومكث ريموند فى طبرية وظهر بمظهر المتمرد على مملكة بيت المقدس ، ويبدو أن لجوء ريموند الثالث الى صلاح الدين كان بسبب غضبه الشديد لاعتلاء جاي دى لوزجنان مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من سيبلا ، وريموند أحق منه بهذا الملك ، ثم ان لوزجنان طلب من ريموند أن يتقدم

-
- (١) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٠ .
 - (٢) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢٧ ويسميه كى .
 - (٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨١-٨٢ .
 - (٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢٧ .

اليه بكشف حساب عما أنفقه حينما كان وصيا على الطفل بلدوين الخامس ابن سيبيل (١) ، مما اعتبره ريموند اهانة لشخصه . وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت المسلمين على استنقاذ بيت المقدس منهم ، ولذلك يرجع جمهرة المؤرخين حالة السوء التي احاطت بمملكة بيت المقدس الى سببين :

الأول : ما نجم عن الحق الوراثي من الضعف ، أى شيوع تعدد زواج الوريثات لمملكة بيت المقدس وانتقال الملك الى هؤلاء الأزواج (المغامرين) وما ترتب على ذلك من تداخل واختلاط في حقوق الوراثة وان زواج سيبيل من لوزجنان هو الذى قرر المصير المحتوم للمملكة الصليبية .

الثانى : نظام الانتخاب في الامارات الصليبية وما ترتب عليه من احقاد ، وزيادة المنازعات بين الأسر الحاكمة (٢) .

وقد بلغت حالة الاضطراب في الامارات الصليبية الى دعوة بعض ملوك الغرب الأوربي ليتولوا شئون المملكة الصليبية في فلسطين ، ففي سنة ١١٨٤-١١٨٥م وصلت الى فرنسا وانجلترا سفارة اشترك فيها بطيريك بيت المقدس ، ومقدم الداوية ، ومقدم الاستبارية ، وعرضوا تاج مملكة بيت المقدس على فيليب اغسطس ، ملك فرنسا ، وهنرى الثانى (الأنجوى) ملك انجلترا ، كى يضمّنوا قدومهم الى الاراضى المقدسة ، ورفض كل من الملكين هذا العرض .

ويعتبر هنرى الثانى هو الوريث الطبيعى لمملكة بيت المقدس عند انقراض سلالة فولك ، ويرى المؤرخ الانجليزى (باركر) ان تدخل ريتشارد الاول (قلب اسد) في الحملة الصليبية الثالثة كان نابعا من هذا الاتجاه (٣) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٧٤ .
(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧٠ .
(٣) باركر : نفسه ص ٨١ ، حاشية رقم ١ .

هذا الضعف والارتباك الذى أصاب الجبهة الصليبية ، كان يقابله فى الجبهة الاسلامية ازدياد قوتها والتفاف الامراء حول قيادة صلاح الدين ، فقد أفاق المسلمون من هول الضربة التى أنزلها الصليبيون بهم ، وأحسوا بالنكبة الخطيرة ، فهبوا من سباتهم ينفضون غبار الهزيمة والفرقة عنهم ويعملون لاستعادة ما فقدوه ، وتكتلوا فى جبهة موحدة سواء كانوا من الغرب أو التركمان أو الأكراد أو الدروز . ولم يشذ عنهم الا بعض طائفة الاسماعيلية الموجودين على سواحل شرقى البحر المتوسط الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم (١) ، حتى ولو استعانوا فى تحقيق ذلك بالصليبيين أنفسهم .

وقد ساعد المسلمين فى الاحساس باشتداد بأسهم عدة عوامل من أهمها : الشعور الوطنى عندهم بأن هذه الامارات الصليبية أجزاء من أرضهم ، ومدن من بلدانهم وان للقدس منزلة دينية خاصة فى نفوسهم ، وبقاءه فى أيدي الصليبيين عار ومذلة وهوان للمسلمين ، ولابد من استرداده من أيديهم ، ثم ان الهزائم التى أصابت المسلمين فى بدء الحروب الصليبية أثارت حميتهم ، وتركت فى نفوسهم مرارة لا بد أن تنزل عن طريق غسلها بأحراز نصر حاسم على الصليبيين . ولعب العامل الاقتصادى دوره ، فموارد الامدادات والتموين متوفرة لدى القوات الاسلامية ، ميسور الحال عليها ، بينما الصليبيون يعتمدون فى تموينهم وامداداتهم على المساعدات الخارجية التى تاتيهم من الغرب الأوربى ، ومن الجانب الاستراتيجى أصبح المسلمون يحيطون بالامارات الصليبية من كل جانب ، فكانت هذه الامارات كالجزر المتناثرة فى محيط من المدن الاسلامية ، وقد أصبحت هذه المدن على درجة كبيرة من القوة والمنعة بعد نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الاسلامية التى كان يهدف اليها ، ثم ان عامل الحروب التى خاضها الصليبيون ، والتى واجهتهم فى هذه المنطقة بدأت تنهك من قواهم وتضعفهم ، كما انهم

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ص ٣٠١ .

فقدوا الحماس الدينى الذى دفعهم بجانب العوامل الاجتماعية والاقتصادية الى القدوم الى المشرق الاسلامى فقلت أعداد الصليبيين المستوطنين فى هذه الامارات .

وفى تلك الفترة ظهر على مسرح الأحداث مغامر فرنسى آخر ، كانت حماقته هى السبب المباشر فى القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية ، هو أرناط (ريجنال دى شاتيون) حاكم الكرك ، وكان نور الدين محمود قد أسره ، وظل محبوسا فى الأسر من سنة ٥٥٤هـ - ٥٧٢هـ / ١١٥٩ - ١١٧٦م (١) وقد تزوج أرناط أرملة الحاكم السابق لحصن الكرك وتدعى كونستانس Entionnette de Milly وكان أرناط قائدا شجاعا، ولكنه اشتهر بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود والوعود ، وكان يميل الى اشعال نار الحرب ضد المسلمين .

ففى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م انتهك أرناط الهدنة المبرمة بين المسلمين والصليبيين بأن تعرض للقوافل التجارية القادمة من مصر والشام ، والتي كانت تمر بالقرب من امارته ، فتوترت العلاقات بين الفريقين ، وقد دفع الجنون والحماقة أرناط هذا بأن حاول مهاجمة الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة مرتين ، الأولى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م وقد تصدى له فرخشاه بن أخى صلاح الدين ونائبه على دمشق - كما سبق الإشارة ، وفى المرة الثانية سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م حيث حمل سفنا مفككة على ظهور الجمال ، وقام بتركيبها على ساحل البحر الأحمر ، وملاها بالمقاتلين وآلات الحرب ، ثم أرسل سفينة الى أيله (ايلات) ليمنع أهلها من الورد الى المياه ليموتوا عطشا ، وأبحر هو ببقية السفن الى عيذاب حيث قطعوا طريق التجارة ، وخربوا ، ونهبوا وقتلوا وأسروا ثم وصلوا الابحار متجهين الى ساحل الحجاز ، وكانت مباغته لاهالى مدن سواحل البحر الأحمر ، لانهم لم

يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ، ولا محاربا (١) ، وقد بلغت وقاحة ارتباط وانحطاطه الخلقى أن تطاول على مقام الرسول الأعظم ﷺ فلمسا علم صلاح الدين بما قاله هذا السفية ثارت نفسه ، واقسم ليقتلنه بيده ان هو ظفر به .

وما كادت هذه الاخبار تصل الى مصر ، حتى خرج أسطولها الراسي في خليج السويس ، بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، فانقض على السفينة الراسية أمام ايله وقتل بحارتها وأحرقها ، ثم أبحر بالأسطول الى عيذاب ، وأدرك السفن الصليبية في طريقها الى الحجاز ، على مسافة يوم من المدينة المنورة (٢) فأخذ المسلمون يطاردون الصليبيين حتى أوقعوا بهم وبأسطولهم ، وفكسوا أسر التجار المسلمين ، وقبضوا على الصليبيين أسرى ، وساقوا جموعا منهم وذبحوهم في منى ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالتعدي على حرمة المسلمين المقدسة ، ورجعوا بجموع أخرى ، حيث تم ارسالهم الى بعض المدن الاسلامية ، فضربت أعناقهم بها (٣) .

موقعة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م

تكتلت رؤوس الصليبيين على ريموند الثالث الصنجيلي أمير طرابلس ، وهددوه بسبب مهادنته لصلاح الدين ، وعقد الهدنة معه ، وأعادوه الى صفوفهم مرة أخرى ، وتجمعوا جميعا وخرجوا الى صفورية (٤) فحشدوا وجمعوا جموعهم حتى كانوا أكثر من عشرين ألفا (٥) ، وأراد صلاح الدين مواجهة هذه الحشود الصليبية بما عنده من حشود المسلمين ، وأشار عليه بعض قواده الاكتفاء بمواصلة الاغارات على مدنها ونهبها ، وتخريبها ، وسبى النساء والذراري ، أى ما يشبه حرب العصابات حتى يلقوا الصليبيين

- (١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٩٠ .
- (٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٣٥-٣٦ .
- (٣) ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ وما بعدها .
- (٤) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٥ ص ٣٠٦ .
- (٥) يذكرهم ابن واصل (مفرج ج ٢ ص ١٨٩) خمسين ألفا .

ويحطموا روحهم المعنوية ، ويضطروهم الى الاذعان ، ولكن القائد المسلم صلاح الدين رد على هذا الرأي بتعبيره الصادق : « إن الامور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع - يقصد حشود المسلمين - إلا بعد الجد بالجهاد » (١) .

اطلق صلاح الدين كل ما في حوزته من قوة احتجزها عن القتال زمنا طويلا ، حتى تهيأت له الفرصة لهجوم شامل ، فما أشعله الصليبيون من حروب صليبية ، رد المسلمون عليه آخر الامر بالجهاد الديني ، وبذلك بدأت حرب دينية جديدة تجتاح مملكة الصليبيين (٢) الذين فقدوا الروح المعنوية والحماس الصليبي بينما صار لجيش صلاح الدين سنة ١١٨٧م من الروح المعنوية العالية ، والحماس الديني المتدفق أكثر بكثير مما كان عند الصليبيين في بداية الحرب الصليبية الاولى سنة ١٠٩٩م .

فتح طبرية :

تحرك صلاح الدين الايوبي ومعه اثنا عشر ألف مقاتل من عشترا (٣) ، يوم الجمعة ١٧ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ / يوليه ١١٨٧م ، وقضى ليلة في خسفين (٤) ثم وصل الى ثغر الأقحوان بالأردن ، وقد أحاطت عساكره ببحيرة طبرية تم اعدوا أنفسهم للحرب بعدما عسكروا في الجهة الغربية من البحيرة عند سفح الجبل ، وكان صلاح الدين يتوقع أن يهاجمه الصليبيون في هذا المكان ، ولكنهم لم يتحركوا . عندئذ زحف على طبرية بمجموعة من عساكره ففتحها عنوة في ليلة واحدة وقام جنوده بتخريب البلد وسلبها ونهبها ، ولكن القلعة امتنعت عليه (٥) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٣٢-٥٣٣ .

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٢-٨٣ .

(٣) من نواحي الكرك والشوبك بفلسطين .

(٤) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٣٣ ، وكذلك :

Runciman: op. cit., II, p. 453.

كانت خطة صلاح الدين الأيوبي من الزحف على طبرية أن تصل أخبارها إلى الصليبيين في صفورية فيضطربون إلى السير إليه في هذا الحر الشديد ، ويقطعون هذه المسافة الطويلة ، فيصلون إليه وقد أنهكت قواهم وضعفت قوتهم ، ويتمكن القوات الإسلامية من انزال هزيمة مرة بهم وهم متعبين . وساعدت الظروف القائد صلاح الدين على نجاح خطته ، لأن سيبيلا زوجة القومصن (١) (ريموند الثالث وصنجيلي - صاحب طرابلس -) أخذ القواد الصليبيين في صفورية كانت موجودة في القلعة (٢) ، وكان لابد للصليبيين من التحرك إلى طبرية لانقاذها وحمايتها حتى لا تقع أسيرة في أيدي صلاح الدين .

عندما وصلت أخبار سقوط طبرية في أيدي صلاح الدين ، اجتمع القادة الصليبيون وانقسموا على أنفسهم (٣) فكان من رأى ريموند الثالث Reymond III - صاحب طرابلس - أن يبقى الصليبيون في صفورية إلى أن تأتي إليهم جيوش صلاح الدين ، وهى متعبة ومنهكة من هذه المسافة الصحراوية الطويلة بين طبرية وصفورية ، وبذلك يسهل الانتصار عليها وكان مصيبا في رأيه (نفس الخطة التى اتخذها صلاح الدين) (٤) وكان من رأى الفريق الآخر بزعماء أرناط ، صاحب الكرك ، وكان متهورا مندفعاً ، وقد انضم إليه مقدم الداوية جيرار دى ردفورت Gyrrar de Redfort وكانوا متلهفين على الحرب قبل أن تتزايد قوات صلاح الدين ، وانضم إليهما كذلك الملك « جاي دى لوزجنان » وبذلك تقرر الزحف من صفورية ونقض ريموند عهده

(١) هى سيبيلا أخت بلدوين الرابع التى أصبحت ملكة على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٣) راجع ما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد ، تاريخ ، ج ٥ ص ٣٠٦ .

(٤) أورد ابن واصل (ج ٢ ص ١٨٩) عكس ما جاء في بعض المصادر حيث قال ان ريموند قامت قيامته وقال للفرنج « لا تعود لنا بعد اليوم ، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد بأسرها » وقد تابعه أبو شامة في قوله هذا (الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦) .

مع صلاح الدين وانضم وعساكره الى ما قرره الامراء بعد أن انضمت اليهم فرسان الداوية والاسبتارية وأخذت هذه الجيوش مسيرها الى طبرية .

وعلم صلاح الدين بخروجهم في صباح اليوم التالي (الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) ففرح لنجاح خطته ووقوع الصليبيين في الشرك الذي أعده لهم ، حيث وصلوا وهم على أسوأ حال من شدة العطش والانهاك (١) .

نزل صلاح الدين وقواته على أماكن المياه ، حتى يمنعوه عن الصليبيين ، ونجحوا في ذلك نجاحا عظيما فقد حاولت جموع من الصليبيين الوصول الى مكان المياه ، ولكنها أبيدت عند اقترابها منه وبدأت المعركة ، ودارت رحى الحرب على جبل حطين وفي سفحه بلدة شعيب وبها قبره (عليه السلام) (٢) ، وفي اليوم التالي - السبت الخامس والعشرين من ربيع الثاني - أحاطت ظروف عصيبة بالصليبيين الذين كانوا يحاربون على شدة شديدة من شدة العطش ، وجهد الحر والحرارة التي تنبعث من كل مكان . من الجو ، ومن الأرض ، ومن أجسامهم ، لأن الفارس الصليبي كان مثقلا بالعدة والعتاد ، وهذه كلها مصنوعة من المعادن ، فتنعكس عليها أشعة الشمس الشديدة في يوليو فتجعل الجندي في أتون الجحيم . ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل أمر بإشعال النار في الحشائش المحيطة بأرض المعركة وحملت الرياح - وكانت في اتجاهها على الصليبيين - حر النار والدخان اليهم - فاطبق عليهم شدة حرارة الجو ، ولهب النار والدخان ، وعدم وجود مياه للشرب مما أصابهم بشدة الانهاك والاعياء . في هذه الظروف العصيبة ضيق صلاح الدين الخناق على أعدائه الصليبيين فضربت القوات الاسلامية عليهم حصارا تاما ، وسدت عليهم كل منافذ الهرب ، ورمى حملة الشباب نشابهم على الصليبيين ، فكانت تخرج كالجراد المنتشر ، ووجدت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٠ ، بروكمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٥٦ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨١ .

سيوف المسلمين في رقابهم مرتعا تصول وتجول ، فقتلوا من خيولهم وجنودهم
اعدادا كثيرة (١) .

وكان منظر الصليبيين وهم يفترشون الأرض جرحى ، وقد تورمت
افواههم من شدة ما أصابهم من لهيب الحر ، وشدة العطش يثير الأسى ، ولم
يحتمل فرسانهم هذا العذاب ، فتوجه خمسة منهم الى بعض أمراء جيش
المسلمين يتوسلون اليهم أن يقتلوهم ، حتى يتخلصوا من هذا العذاب (٢) .

ومع ذلك فقد استمات الجيش الصليبي الواقف فوق التل في القتال ،
واندفعوا محمومين يهاجمون المسلمين حتى ردوهم أكثر من مرة ، وأنزلوا
بهم خسائر كبيرة ، ولكن صمود المسلمين ، وصيحات صلاح الدين الأيوبي
التي كانت تدفعهم الى مواصلة الهجوم ، وانزال ضربات قاتلة بالصليبيين
نجحت في دحرهم والى قتل جموع كثيرة منهم مما أضعفهم وأنهكهم فلم
يقدرُوا على الاستمرار في القتال .

ومن الأسباب التي أدت الى اضعاف الصليبيين وهزيمتهم أن ريموند
الثالث أراد أن يفتح ثغرة في جيش المسلمين ، ليقطع حدة الحصار عن
أتباعه ، فهجم بكل فرسانه على الجبهة التي يتولى قيادتها الأمير تقي الدين
عمر بن شاهنشاه (ابن أخى صلاح الدين) الذي لجأ الى الخديعة العسكرية
والتصويبه في القتال فافسح طريقا بين صفوف جنوده فاندفع منها ريموند
وقرسانه ، فأسرع تقي الدين بسد هذه الثغرة حيث التحمت صفوف جنوده (٣)
وبذلك نقص عدد الصليبيين ، وعاد ريموند وفرسانه الى أمانة طرابلس ،
كما تمكن رينالد دي شاتيون أمير صيدا ومعه باليان ابلين من الهرب تاركين
جنودهما الصليبيين في أتون المعركة مع الملك جاي دي لوزجنان .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٥٣٥ .

(٢) رؤسمان : ج ٢ ص ٧٣٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٧٧ .

انسحب الصليبيون الى قمى التل المعروفتين بقرون حطين ، ونقلوا خيمة ملكهم الحمراء الى أعلى مكان ، ولكن لم تلبث خيمة القيادة الصليبية أن هوت ، وهى علامة على الانهزام ، فلما رآها صلاح الدين ترجل من على فرسه وخر ساجدا لله شاكرا وعيناه تدمعان فرحا بحلاوة النصر .

واندفع ريموند وقواته فعلا من خلال هذه الثغرة مكرويين ، وما كادوا يخرجون حتى التأمت دائرة الحصار ثانية ، وبذلك عزل ريموند وقواته عن الحشود الصليبية واضطر الى العودة الى امارته طرابلس ، وبذلك ازدادت القوات الصليبية ضعفا فوق ضعفها ، خاصة وأن ريموند لم يلبث أن مات بعد قليل .

استمر القتال عنيفا ، والصليبيون يحاربون بضراوة اليائس من الحياة ، والمسلمون يعملون فيهم القتل ، ويمسكون بالعديد من الأسرى ، ووقع صليبيهم المقدس (صليب الصلبوت) (١) فى أيدي بعض المسلمين ، فحملوه الى صلاح الدين فعظم مصابهم ، وضعفت أصلابهم واستمرت الهجمات بين الفريقين ، والقتلى تزداد فى كل هجمة من الهجمات ، والشهداء من المسلمين يتساقطون حتى كتب الله النصر للمسلمين ، ووقع أرناط أمير حصن الكرك عدو المسلمين اللدود فى الأسر ، ووقع معه ملك بيت المقدس جاي دى لوزجنان وأخوه ، ومقدم الداوية جيرار ، وجموع من فرسانه ، وجموع من الاسبتارية كذلك أسرى (٢) . وقد حمل القاضي ابن أبى عصرون صليب الصلبوت منكسا ودخل به دمشق (٣) .

وقد عبر ابن الاثير (٤) عن هول هذه المعركة وضراوتها بقوله : « وكثر

(١) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ص ٨٤ ، أبو شامة : الروضتين ،

ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) العماد الاصفهاني : نفسه ص ٨٠ .

(٣) أبو شامة : نفسه ج ٢ ص ٨٢ .

(٤) الكامل ج ١١ ص ٥٣٧ .

(م ٩ - صلاح الدين)

القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن ان هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى لا يظن ان هناك قتلى » .

وقد مر ابن الاثير بمكان الموقعة بعد سنة ، فرأى الأرض ملأى بعظامهم ، ترى من بعيد لكثرتها . منها المتجمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق ، سوى ما جرفته السيول ، وأكلته السباع في تلك الركام والوديان ، وقد أطلق صلاح الدين سراح عدد كبير من الأسرى الفرسان مقابل تسليمهم ما بأيديهم من القلاع والحصون والمدن ، أما الأسرى من الجنود فقد باعهم جند المسلمين رقيقا ، فكان كل ثلاثين أو أربعين أسيرا منهم يربطون بحبل واحد ، حيث تزخرف أسواق الرقيق في سوريا بهم (١) .

أمر صلاح الدين بضرب خيمة له وطلب احضار ملك الصليبيين وأمرائهم ومقدميهم ، فأحسن استقبال الملك « جاي دى لوزجنان » وأجلسه الى جانبه ، وأمر ارناط (رينالد دى شاتيون) أمير حصن الكرك ، أعدى اعداء المسلمين ، أن يجلس الى جانب جاي كما حضر الكندسطليل امليك شقيق الملك جاي ، وهمفري ابن زوجة أرناط وغيرهم (٢) وطلب الملك قليلا من الماء يروى به ظمأه فأمر صلاح الدين بتقديم الماء المثلج له (٣) ، فشرب منه ، ثم قدم ما بقى الى أرناط ليطفئ به لظى الحر المشتعل في جسده ، فقال صلاح الدين : « ان هذا شرب الماء بغير اذن منى » ومعنى هذا انه لم يعطه الأمان فقد جرت العادة اذا قدم للأسير الطعام والشراب الا يضرب عنقه ، ولأن صلاح الدين كان قد نذر ليقتلنه بيده ان التقى به جزاء غدره وخيائنه وتطاوله على مقام الرسول الأعظم ﷺ .

ومع كل هذا كان صلاح الدين كريما مع ارناط ، فقد عرض عليه الاسلام

(١) ابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) رنسمان : ج ٣ ص ٧٤١ .

(٣) تذكره المراجع العربية (جلاب) وهو منقوع الزبيب المثلج .

أو ماء الورد المثلج - Dozy; Supp. Dict. Arab.

ليعفو عنه ولكنه رفض ، فذكره صلاح الدين بسوء عمله وقبيح فعله ، فرد عليه ارناط ردا غليظا فتقدم صلاح الدين منه وضربه بالنمجاه (١) ضربة اطاحت كتفه ، وأجهز الجنود عليه . عند ذلك ارتعدت فرائص الملك جاي ، وظن انه ملاق حتفه هو الاخر لا محالة ، ولكن صلاح الدين هذا من روعه ، وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ولكن هذا خرج عن حده فاستحق ما جرى عليه ، ثم بعث صلاح الدين بالملك « جاي » ومن معه من الأسرى من كبار الصليبيين الى دمشق للتحفظ عليهم .

ويصف لنا ابن العماد الأصفهاني (٢) منظر الأسرى في قوله « وقد رأيت في جبل واحد ثلاثين أو أربعين يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميمهم حارس » وقد بيعت الأسرى من الصليبيين كالرقيق بثمن بخس ، ويروى أبو شامة انه شاهد أسرة مكونة من أب وأم وخمسة أبناء (ثلاث بنين وابنتان) بيعت بثمانين دينار (٣) ، أما فرسان الداوية وفرسان الاستبارية فقد أمر صلاح الدين بالقضاء عليهم بعدما أمر بإيداع قوادهم في سجون دمشق .

وفي اليوم التالي لموقعة حطين ، توجه صلاح الدين بقسم من قواته الى طبريه فارسلت صاحبته ، زوجة ريموند الثالث تطلب الأمان لها ولأولادها (٤) مقابل تسليم الحصن والمدينة ، فاجابها صلاح الدين الى ما طلبت ، فخرجت بكل أموالها الى طرابلس ، وعين صلاح الدين على طبرية صارم الدين قايمار النجمي ، فعادت أهلة بالسكان آمنة في رحاب أهل الايمان .

(١) خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو تعريب للفظ الفارسي (نيمجة) أو (نمجا) راجع : ابن شداد : النوادر ، ص ٧٩ . ولايزال بعض أمراء اليمن وعمان يحملون مثل هذا الخنجر .
(٢) الفتح القسي : ص ٨٣ .
(٣) الروضتين : ج ٢ ص ٨٢ .
(٤) ابن خلدون : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٧ .

الاستيلاء على المدن الساحلية :

لاشك ان موقعة حطين كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ، لان الصليبيين هزموا هزيمة منكرة ، واصيبوا بضربة قاصمة لن يفيقوا منها ، فقد فقدوا 'جل فرسانهم ومقدميهم ومقاتليهم ، وسيكون لهذا تأثيره المباشر على سير الاحداث في مملكة بيت المقدس الصليبية ، نظرا لان مدنتهم أصبحت شبه خاوية ممن يدافعون عنها .

نزل صلاح الدين بقواته على « عكا » فاستسلم أهلها بمجرد رؤيتهم لجيشه وطلبوا السماح لهم بالرحيل ، فوافقهم صلاح الدين على ما طلبوا ، فخرجوا من المدينة متفرقين وحملوا ما قدروا عليه من أموال ، فدخلها المسلمون يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ٥٨٣ هـ / يولييه ١١٨٧ م ، وصلوا بها في جامع قديم كان للمسلمين (١) ثم حوله الصليبيون الى كنيسة لهم ، فأعاد صلاح الدين الدين الى ما كان عليه .

ثم استولى صلاح الدين على جميع ممتلكات الداوية وأعطاهما للفقهاء عيسى الهكاري (٢) تأديبا لهم لانضمامهم الى ارناط والملك جاي دى لوزجنان في الحرب ضد المسلمين ، كما وزع صلاح الدين كل ما غنمه في عكا ، وكان لا يحصى ولا يعد ، على قواد جيشه وفرسانه ، ومكث بها بعض الوقت ليدير شئونها ، كما وهب المدينة نفسها الى ولده الأفضل ، وأعيدت كنيستها الى سابق عهدا مسجدا يؤدي فيه المسلمون شعائر الاسلام ، وقد أشرف القاضي الفاضل على ترتيب القبلة والمنبر وفرشه بالسجاد والبسط ، وعين الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ السهروردي إماما له .

ومن عكا أرسل صلاح الدين فرقا من قواته لفتح مدن الناصرية ،

(١) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٠٧ .

(٢) هو أبو عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن القاسم ضياء الدين ، حضر جانبا كبيرا من فتوحات صلاح الدين ، وحضر مع أسد الدين شيركوه الى مصر .

وقيسارية (١) وحيفا وصفورية والشقيف والفولة ودبورية (٢) وجنين (٣) وزرعين (٤) والطور (٥) واللجون (٦) وبيسان (٧) والقيمون (٨) والزيب (٩) ومعليا (١٠) واسكندرونة (١١) ومنوات (١٢) وكلها مجاورة لمدينة عكا وتحيط بها (١٣) ، وتمكنت هذه القوات من امتلاك هذه المدن كلها بسهولة ، كما بعث حسام الدين عمر بن لاجين (١٤) على رأس قوة الى نابلس ، فدخلها وتسلم قلعتها وأقر أهلها على أملاكهم وأموالهم (١٥) ، وفي طريقه اليها عرج على سمسطية فاستسلمت اليه ، فأعاد مشهد زكريا الذي حولته الفرنجة كنيسة الى مسجد كسابق عهده ، وعمره ونصب به المنبر .

- (١) قيسارية : على الساحل من أعمال فلسطين . ياقوت : ج ٦ ص ٤٢١ .
 (٢) دبورية : بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن . ياقوت : ج ٨ ص ٤٣٧ .
 (٣) جنين أو جانين : بليدة بين نابلس وبيسان . الفهرس الجغرافي لكتاب النوادر السلطانية .
 (٤) زرعين : موضع من نواحي الأردن . المرجع السابق .
 (٥) الطور : جبل يطل على طبرية . ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٢٣١ .
 (٦) اللجون : بلد بالأردن على بعد ٢٠ ميلا من طبرية في وسطه صخرة مستديرة عليها قبة يقال انها مسجد ابراهيم عليه السلام . ياقوت : ج ١٧ ص ١٤-١٣ .
 (٧) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين . ياقوت ج ٤ ص ٥٢٧ .
 (٨) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين .
 (٩) الزيب : قرية قرب عكا على الساحل وتعرف باسم شارستان .
 (١٠) معليا : من نواحي الأردن بالشام .
 (١١) اسكندرونة : مدينة في شرق أنطاكية على ساحل البحر المتوسط ، بينها وبين أنطاكية ٨ فراسخ .
 (١٢) منوات : بلدة بسواحل الشام قرب عكا .
 (١٣) ابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٢ .
 (١٤) أمة شقيقة لصالح الدين الايوبى ، تعرف باسم (ست الشام) وقد تو في حسام الدين سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م . ابن تغرى بردى : النجوم ج ٦ ص ٢٦٤ .
 (١٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٤٠ ، ابن خلدون : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٨ .

وفي نفس الوقت أرسل الى أخيه الملك العادل بمصر يبلغه خبر انتصارات المسلمين في حطين ، ويأمره بمهاجمة مراكز الصليبيين في جنوب فلسطين ، القريبة من مصر فخرج الملك العادل بقوات مصر وضرب الحصار على حصن مجدليابه ، وغنم ما فيه ومنه اتجه الى يافا ، على الساحل ، ففتحها عنوة وملكها ، وأسر رجالها ، وسبى نساءها ، وأخرجهم يهيمون على وجوههم في المدن الأخرى (١) .

وكذلك أرسل ابن أخيه تقى الدين عمر الى تبين (٢) فنزل عليها بجنوده وقطع الميرة عنها وعن صور ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فخرج صلاح الدين بقواته اليها في جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وضيق على أهلها الحصار ، فاطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين ، وكانوا أكثر من مائة رجل ، فأمر صلاح الدين لهم بمال وكسوة وصرفهم الى أهليهم ، ثم طلب أهل الحصن الأمان ، فأجابهم صلاح الدين الى ما طلبوا ، وخرجوا منه ، وامتلكه المسلمون . ثم توجه بقواته الى صيدا وفي طريقه اليها استولى على صرخد بدون قتال . فلما قرب من صيدا ، رحل أميرها وأهلها عنها ، وتركوها خالية فدخلها صلاح الدين ، ويقال ان حاكم المدينة أرسل مفاتيحها الى صلاح الدين (٣) فوضع فيها من يسكنها ويدافع عنها ، ثم انطلق صوب بيروت ، فوجد أهلها قد امتنعوا فوق أسوارها ، وأعدوا أنفسهم للقتال ، وحفروا خندقا لحمايتها ، وظنوا ان حصانة بيروت ستحول دون سقوطها في أيدي المسلمين الذين هاجموا المدينة مرة بعد أخرى وهي صامدة ، فلجأ صلاح الدين الى الحرب النفسية ليصيب نفوس الصليبيين بالخوف والوهن وبعث من أشاع في المدينة ان المسلمين دخلوا البلد قهرا من الناحية الأخرى ، فاضطرب أهلها ، وتفرقوا من على أسوارها ، ووقع

(١) راجع ما ذكره ابن الاثير في هذا الصدد بتفصيل في المرجع نفسه ص ٥٤١ .

(٢) تبين أو تبنيينا : بلدة في جبال بنى عامر المطلّة على بانياس ، بين دمشق وصور .

(٣) العماد الأصفهاني : الفتح القسى ص ١٠٣ .

الخوف في قلوبهم ، فطلبوا الأمان ، فأمنهم صلاح الدين ، وتسلم المدينة منهم في التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعد حصار دام ثمانية أيام (١) .

عرض صاحب جبيل (هيو الثالث ويعرف باسم هيو أمير باكو) وكان ضمن الأسرى في دمشق ، على نائب صلاح الدين (الصفي بن القابض) أن يسلم المدينة وحصنها الى صلاح الدين ، مقابل الافراج عنه ، فأخطر صلاح الدين وهو على بيروت ، فوافق واستلم جبيل وحصنها ، وفك أسر أميرها الصليبي قبل دخول بيروت بيومين .

فتح عسقلان :

ترك صلاح الدين مدينة صور وثغرها مؤقتا لمناعتها ، ولتأكده من أن حصارها سوف يستغرق وقتا طويلا ، وتوجه الى عسقلان ، وكان قد كتب لأخيه الملك العادل أن يلتقى به وبجيش مصر على عسقلان ، وضربت الجيوش الإسلامية حصارها على المدينة يوم الأحد السادس عشر من جمادى الأخيرة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وامتنع أهلها عن التسليم ، وأصروا على المقاومة ، ومع أن صلاح الدين شدد هجماته على المدينة ، ونصب الجانيق عليها ، وكرر هجماته عليها إلا أنها بقيت تقاوم .

استعان صلاح الدين بالملك « جاي دى لوزجنان » ومقدم الداوية ووعدهما باطلاق سراحهما ان هما أقنعا أهل عسقلان بتسليم المدينة ، ويبدو أن أهل عسقلان رأوا ازدياد ضعفهم ، وتناقص أعدادهم ، لأنهم اذا قتل منهم رجل لا يجدون له عوضا ، ويئسوا من وصول نجدة لهم بعد أن سقطت المدن الأخرى في يد صلاح الدين ، فاضطروا الى قبول نصيحة « جاي دى لوزجنان » ومقدم الداوية ، ولكنهم اشترطوا على صلاح الدين بعض

(١) ابن خلدون : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٨ ، العماد الاصفهاني : نفسه ص ١٠٣ .

الشروط ، فقبلها (١) واستلم المدينة منهم ، ولم تلبث معاقل وحصون الفرسان الداوية أن أذعن ، فاستسلمت الرملة ، والداروم (البطرون) ، وغزة ، وبيت لحم ، وبيت جبريل ، والخليل والنطرون ، وبذلك استولى صلاح الدين على جميع مراكز الصليبيين الداخلية والساحلية في الجنوب ماعدا صور على الساحل ، والشوبك والكرك جنوب بحيرة طبرية اذ بقى هذان الحصنان وحصون كوكب وصفد وشقيف أرنون على المقاومة (٢) .

فتح بيت المقدس :

أرسل صلاح الدين الأيوبي ، وهو على عسقلان ، أوامره للأسطول المصرى أن يبحر بجميع وحداته ، وبكامل قواته ، بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وأن يقف على مقربة من الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ويقضى على أى سفينة تابعة للصليبيين .

تقدم صلاح الدين بقواته فوصل الى بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وكان الصليبيون قد استفادوا من الفرصة التى أتاحتها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمتهم بعد حطين مباشرة فأعدوا أنفسهم للحرب ، وحصنوا مدينتهم ونصبوا الجانيق فوق أسوارها ، ورفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين بتسليم المدينة ، وكان بلدوين الإلبنى ، وبطريق بيت المقدس ، ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية على رأس جموع الصليبيين ، الذين بلغ عددهم ستين ألفا .

صمم صلاح الدين على دخول المدينة عنوة ، فنصب الجانيق ، ورتب الجنود وأعدهم للهجوم من الجهة الشمالية للمدينة (عند باب عمورا وكنيسة صهيون) وبدأ القتال غنيفا بين الجانبين فالصليبيون مستميتون فى

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٤٥-٥٤٦ .

(٢) ابن واصل : مفروج الكروب : ج ٢ ص ٢٠٩-٢١٠ .

Baldwin, op. cit., p. 615.

الدفاع عن عاصمة مملكتهم ، وآخر معقل لهم ، ورمز انتصارهم في الحروب الصليبية الظالمة ، التي استباحوا فيها حرمة المسلمين وديارهم ، والمسلمون مندفعون كالسهام لاسترداد أرضهم المقدسة ، وتطهير بلادهم من أدران الصليبيين ، ومسح العار عن جبينهم ، فحملوا حملة رجل واحد ، فازالوا الصليبيين عن مواقعهم (١) وأدخلوهم المدينة ، ووصلوا الى الخندق ، واجتازوه الى السور ، فنقبوه وحشوه بعبوات مدمرة ، واحكم رماة المجانيق الرمي المتوالى على الصليبيين ، الذين أدركوا عندئذ أنهم أشرفوا على الهلاك ، فطلب رؤسائهم من صلاح الدين الأمان ، فتمنع عن اجابتهم وقال انه يريد أن يأخذ القدس عنوة ليفعل بالصليبيين مثلما فعلوا بالمسلمين عندما تملكوه سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٩م . عندئذ هدد الصليبيون بحرق المدينة ، وتخريب قبة الصخرة ، وقتل أسرى المسلمين ، واتلاف أموال وممتلكات الصليبيين ، ثم الاستمرار في الحرب حتى لا يبقى منهم أحدا ، فجمع صلاح الدين مجلس امرائه وقواده واستشارهم ، فاستقر رأيهم على المصالحة وتسلمهم المدينة بدون تخريب .

شروط التسليم :

تزيدت رسل الصليبيين تعرض شروط التسليم ، وتلح في طلب الأمان ، ولأن صلاح الدين كانت تتجسد في شخصيته الأخلاق الإسلامية فقد وافق على شروط الصلح التي تدل على تسامحه واعتداله وكريم خلقه . وأهم هذه الشروط أن يدفع الصليبيون الفدية على كل رجل عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ، وعلى كل ولد أو بنت دينارين ، فمن دفع في ظرف أربعين يوما سمح له بالخروج من المدينة آمنا بماله ، ومن لم يدفع أخذ مملوكا ، وسمح صلاح الدين للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين بالبقاء كرعيا ومع كل ذلك فقد كان صلاح الدين كريما الى أقصى حدود الكرم ، فقد أطلق سراح كثير من الفقراء بدون دفع الفدية المقررة ، وقبل ثلاثين ألف دينار

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٤٨ .

دفعها باليان بن بيرزان (بلدوين الإليني) صاحب الرملة وطرابلس ،
فدية عن ١٨٠٠٠ رجل (١) وأكثر من هذا أطلق صلاح الدين للملكة بيت
المقدس ، زوجة الملك جاي أموالها وخدمها ، وكذلك فعل مع كثيرات غيرها
من زوجات أمراء الصليبيين ، مثل الأميرة Etienne Arnette أرملة أرناط نفسه
وبعث بهن في حماية جنوده الى مدينة صور التي اخترنها ، وأكرم رجال
الكنيسة ، فخرج البطريرك بأمواله الهائلة وتحف الكنيسة دون أن يتعرض
له انسان، ولم يدفع غير عشرة دنانير مثله مثل أى فرد آخر ولم يسأل عن فقراء
قومه ممن لا يملكون الفدية ، وأخيرا دفع صلاح الدين الفدية لعدد كبير من
فقراء الصليبيين ، فقد دفع من جيبه الخاص نحو عشرة آلاف دينار ، ومع
كل هذا فقد كان عدد الذين استرقوا ، ولم يقدرُوا على دفع الفدية ستة
عشر الفا (٢) من الرجال والنساء والصبيان .

ومن مآثر صلاح الدين ان أحد الأمراء الصليبيين استوهبه ما يقرب
من ٥٠٠ أرمنى زعم انهم جاءوا ليحجوا وأنهم معدمون ، فوهبهم له وتم
اطلاق سراحهم ، بل أكثر من ذلك أنه كان يمنح فقراء الصليبيين ما يساعدهم
على الحياة من ماله الخاص (٣) .

وكان صلاح الدين قد رتب عدة دواوين ، فى كل منها مجموعة وكل
اليها استلام مبالغ الديات ، واعطاء ما يثبت السداد حتى يمكن الخروج
بواسطة من البوابات ، ولكن للأسف الشديد استغل بعض من وكل اليهم
الأمر نفوذهم ، وأعماهم الطمع ، ودفعهم حب المال ، فكانوا يأخذون
الرشوة من الفرنجة ويقدمون اليهم الافراج (ايصالات السداد) التي يخرجون
بواسطة ، وقد عبر العماد الكاتب عن أسفه بقوله : « ولو حفظ هذا المال
لحق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه لكنما تم التفريط ، وعم

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٥ .
(٢) يتراوح هذا العدد فى المصادر العربية ما بين ١٥ ألف ، ١٨ ألف
من الذين دخلوا فى عداد الرقيق لفقرهم ، راجع ، أبو شامة : ج ٢ ص ١١٥ .
(٣) العماد الاصفهاني : الفتح القسى ص ١٣٣ وما بعدها .

التخليط ، فكل من رشا مشى ، وتنكب الأمناء نهج الرشدا بالرشا ، فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حمل تخفيا في الرحال . الخ (١) .

دخول بيت المقدس :

دخل صلاح الدين بقواته الى بيت المقدس يوم الجمعة ٢٦ رجب سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وكان القدر قد اختار له هذا اليوم بالذات ليعيد الى المسلمين مسجدهم الأقصى بعد أن ظل حبيسا في أيدي الكفرة ٨٢ عاما ليذكرهم باليوم الذي أسرى فيه بالرسول الأعظم محمد ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى منذ أقل من ستة قرون . بدأ صلاح الدين باصلاح ما أفسدته أيدي الصليبيين في مبنى المسجد الأقصى أثناء اقامتهم بهذه المدينة المقدسة ، فأعاد المسجد الى حياته الأولى حيث رمم المسجد وأصلحه ، وجمله ، وفرشه بالبسط ونقل اليه المنبر الذي كان نور الدين محمود قد صنعه في حلب قبل عشرين سنة ، لأنه كان يرى ان المسلمين لابد سيستعيدون بيت المقدس (٢) ، كما أزيل الصليب المذهب الذي نصبه الصليبيون فوق قبة الصخرة (٣) ووضع مكانه هلال كبير من الذهب ، وأمر صلاح الدين بهدم جميع أماكن العقيدة النصرانية في هذه البقعة المقدسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى صلاح الدين الى أن يقضى على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق (٤) وكعادة صلاح الدين بدأ في اصلاحاته الداخلية المعروفة ، فأنشأ المدارس السنية ، وأقام المستشفيات ، وفي الجمعة التالية أقيمت بالمسجد الأقصى خطبة الجمعة (٥) بعد توقفها ٨٢ سنة ، وقد بلغ مجموع ما وزعه من أموال وهو

(١) العماد الأصقهانى : نفسه .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٥١ ، راجع كذلك ص ٥٥٢ حيث الوصف الشيق للمنبر الذى صنعه النجارون في حلب لنور الدين محمود ، العماد الكاتب : مصدر سابق ، ص ١٣٦ .

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥٧ .

(٥) تلمذ القاضى محيى الدين أبو المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى إمامة المسجد الأقصى ، وكان قبل ذلك قاضى قضاة دمشق ، توفى سنة ٥٩٨هـ وعمره ٤٨ سنة . ابن تغرى بردى ج ٦ ص ١٨١ .

على بيت المقدس ما يزيد عن ١٠٠ ألف دينار حتى أن أخاه الملك العادل
ألح بالقول عن ذلك الإفراط (١) .

صور ومقاومتها للحصار :

خرج صلاح الدين بقواته يوم الجمعة ٢٥ شعبان وصحب معه أخاه
الملك العادل ليستعين به في حصار صور - وكان قد سبقه إليها بأيام ولده
الأفضل وبعض الأمراء ومعهم جموع من العساكر - ، فوصلها الجميع يوم
الجمعة ٩ رمضان وبدأت القوات في ضرب الحصار على المدينة واكتمل لها
يوم ٢٢ رمضان . وكان الصليبيون الذين تركهم صلاح الدين يخرجون آمنين
بأموالهم من المدن التي استولى عليها قد تجمعوا في مدينة صور ، وساعدت
الظروف هذه المدينة بأن تولى أمرها المركز « كونراد مونتفرات » ، بعد
وفاة أميرها ، فقام كونراد بتحسينها وحفر الخنادق التي تتصل بالبحر
حولها ، فأصبحت كالجزيرة الحصينة ، ولهذا فشلت جميع محاولات صلاح
الدين في الاستيلاء عليها على الرغم من وصول ابنه الملك « الظاهر غازي »
من حلب ومعه جيش كبير من النقابين والمحاربين (٢) .

وجد صلاح الدين أنه لا بد من الاستعانة بالأسطول من جهة البحر ،
فاستدعى الأسطول المصري الموجود في عكا ، ثم تبع هذا الأسطول مجموعة
أخرى قادمة من بيروت وجبيل ، وشدت الأساطيل الإسلامية الحصار على
أسطول الفرنجة الراسي داخل ميناء صور ، لدرجة أنه لم يستطع أن يتحرك
في أول الأمر ، وما كاد رجال الأساطيل الإسلامية يشعرون بتفوقهم وخلو
البحر من سفن العدو حتى آمنوا واغترؤوا بالسلامة فنعسوا وغاصوا في بحر
من النوم .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) العماد الكاتب : مرجع سابق ص ١٥٨-١٥٩ .

ووجد الاسطول الصليبي الفرصة سانحة له ، فانقض مهاجما سفن المسلمين ، واخذها على غرة ، فاغرق بعضها ، واسر البعض الآخر . ويرجع بعض المؤرخين سبب هذه الهزيمة الى عدم خبرة بعض ربانيتها هذه السفن وجنودها الذين حشدوا ثم حشروا في الاسطول على عجل دون خبرة في البحر ، أو تجارب في السفر ، ولكنى أرجح ان سبب الهزيمة يرجع للأسباب الآتية :

١ - تعدد الاساطيل مصرية وشامية ، وكل أسطول بل كل سفينة لها قائدها وجنودها المحاربون ، ومن الطبيعي أن لكل قائد وجنوده أسلوب خاص بهم في الحرب ربما يختلف عن أسلوب الآخرين .

٢ - عدم وجود قيادة موحدة لهذه الاساطيل للتنسيق فيما بينها جعل لكل قائد وكل سفينة تعتمد على الأخرى في حراسة الشاطئ ومراقبة العدو ، مما أوجد نوعا من التراخي والاستهتار وهما سبب هزيمة أى جيش في ميدان الحرب .

٣ - اعتماد المحاربين المسلمين على ما أحرزوه من انتصارات متوالية بقيادة صلاح الدين الأيوبي أوكلتهم الى شيء من احتقار قوة عدوهم والاستهانة به ، فناموا حتى باغتتهم هذا العدو بأسطوله ، وأنزل بهم الهزيمة واستولى على خمس سفن من الاسطول المصري .

٤ - حرك هذا الانتصار في نفوس الصليبيين الرغبة في مهاجمة جيوش صلاح الدين الأيوبي لينزلوا ضرباتهم بهم ، ولكن سرعان ما تصدت جيوش المسلمين لهذا العدو ، وأمطرت جنودهم بوابل من النبال والحراش بعد أن احاطت بهم من كل جانب ، فقتلوا منهم أعدادا لا تحصى وأجبروهم على الفرار منهزمين الى صور ليحتموا بها .

ولكن اليأس كان قد أصاب بعض جنود صلاح الدين الأيوبي نتيجة

لمناعة صور من جانب ، ولوقوع خمسة من قطع الأسطول المصرى فى أيدى الصليبيين نتيجة استهتار مقدميها ورؤسائها الذين سهروا طوال الليل ثم استغرقوا فى النوم ، وانتهزت سفن الصليبيين هذه الفرصة وانقضوا عليهم وركبوهم ونكبوهم ، فأمر صلاح الدين ببقية الأسطول أن يسير الى بيروت . لهذه الأسباب رغبت جموع كثيرة من الجنود فى عدم حصار المدينة لحصانيتها وعدم الرجاء فى استسلامها ، فتألم صلاح الدين لهذا الموقف فأخذ يستميلهم ويرغبهم فى النصر ، ويخوفهم مسئوليتهم أمام الله عز وجل عن تخليهم عن الجهاد ، ويرهبهم من مساءلة الشعب لهم حتى عادوا وانضموا الى زملائهم وشاركوا فى حصار المدينة من جديد ، ولكن كان فى نفوسهم شئ ، لأنهم لم يصدقوا القتال كما يتضح من تسلسل الأحداث .

فى أثناء مداومة الحصار على صور وصلت أنباء باستسلام حصن هوتين (١) ، فارتفعت الروح المعنوية بعض الشئ لجنود صلاح الدين ، فتدافعوا على صور والتحموا بالفرنجة فى قتال عنيف حيث سقط منهم أكثر ممن استشهد من المسلمين ، ومع ذلك كان عدد الجرحى من المسلمين كثيرا .

اشتد برد الشتاء فآثر فى تحركات الجند ، وكاتب الأمراء صلاح الدين بوجوب فك الحصار عن صور ، والعودة اليها فى وقت لاحق ، وكان صلاح الدين قد زود هذه الجيوش بمعدات كثيرة ، فخشى أن هو تركها استغلها الفرنج وتحصنوا بها ، واستعملوها ضد المسلمين ، فأمر بفك بعض أجزاءها ونقله الى عكا أو صيدا ، أما ما تعذر فكه أو نقله فيجب أن يحرق ويدمر حتى لا يفيد العدو منه شيئا .

والمتمعن فى استراتيجية الانسحاب التى وضعها صلاح الدين لا يملك إلا أن يحتنئ الرأس تبجيلا وتعظيما لهذا القائد الفذ ، لأنه لا يسمح بترك أى شئ من أسلحة جيشه ، حتى لا يحصل عليه العدو فيفيد منها ، أو يقف

(١) هوتين : بلدة فى جبال تطل على نواحي مصر الغربية . ياقوت

على أسرار استعمالها فيسارع بايجاد أسلحة جديدة لتبطل مفعولية هذه الأسلحة ، وهذا القانون الحربى لايزال سائدا فى جيوش العصر الحديث .

عادت جيوش صلاح الدين من صور الى عكا فى آخر شوال سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م على أن تعود لمحاصرتها فى بداية الربيع ، وعاد الأمراء الى بلدانهم ، فعاد الملك الظاهر بن صلاح الدين الى حلب ، ورجع الملك العادل الى مصر ، بينما بقى الملك الأفضل فى عكا مقيما مع والده .

أصبحت صور مركزا لحياء مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد ، الأمر الذى جعل جمهرة من المؤرخين المسلمين وعلى رأسهم ابن الاثير (١) يوجهون اللوم لصلاح الدين باعتبار ان سياسة التسامح والمروءة التى اتبعها مع أعدائه الصليبيين ، هى التى أدت الى هذا التجمع فى صور ، وحشد هذه الجموع الكثيرة فى مدينة واحدة فأصبحت بذلك دار هجرة لهم ، يحتمون بها ، ويلجأون اليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والدفاع عنها ، ولذلك تمكنت المدينة من أن تقاوم ، وتظل على مقاومتها مدة طويلة ، وتصبح بالتالى مصدر خطر كبير على صلاح الدين نفسه ، وعلى المدن الاسلامية فى المنطقة .

لأنه كان ينبغى على صلاح الدين أن يزحف على بيت المقدس فور الانتهاء من موقعة حطين لأن المملكة الصليبية غدت بدون جيش يدافع عنها ، ولأن الصدمة التى زلزلت نفوسهم ، وهدت كياناتهم بعد تحطيمهم فى موقعة حطين ، كان أثرها لايزال باقيا وقتذاك ، وكان من السهل على صلاح الدين فتح بيت المقدس دون عناء . ولكنه أخطأ حين توجه الى فتح مدن الساحل ، ولكننا لو درسنا الموقف دراسة تفصيلية ، نجد ان صلاح الدين لم يكن مخطئا فى استراتيجيته العسكرية لأنه أراد أن يقطع عن بيت المقدس

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٥٥-٥٥٦ ، عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١١ وما بعدها .

وصول أى مدد من هذه المدن ، وأن يؤمن مواصلاته البحرية بين شطرى دولته فى الشام ومصر (١) ، لأن مدن الساحل كانت حاجزا يحول دون هذا الاتصال .

ومن جانب آخر فإن سياسته التى سمح فيها بخروج الصليبيين من المدن التى فتحها ، قللت جدا من عدد الصليبيين فى هذه المدن ، وبذلك أمن ألا تعاود هذه المدن الحرب ضده مرة ثانية أو تعلن التمرد والعصيان ، فتسبب لتحركاته العسكرية الارتباك والاضطراب ، ثم انه جمع كل القوى الصليبية فى المملكة فى مكان واحد قرب الساحل ، لأن وجودها فى الحصون الداخلية التى تتخلل دولته أشد خطرا من وجودها فى حصن على الساحل ، لأن الحصون الساحلية يمكن حصارها من البحر بجانب حصارها من البر ، وهى مع ذلك لا تستطيع الاستمرار فى المقاومة دون نجدات تصلها من الخارج ، ووصول النجدات أمر لا يمكن أن يستمر طويلا ، لان حماسه الصليبيين فى أوربا سوف تخبو وتتلاشى مع الزمن ، ولو قضى صلاح الدين هذا الوقت الطويل كله فى حصار صور ، ولم يتجه لفتح المدن والحصون الداخلية والساحلية ثم بيت المقدس . ووصلت الحملة الصليبية الثالثة لتغير مجرى الأحداث التاريخية فى ذاك الوقت ، خصوصا وان الموعد الذى حدده صلاح الدين لاطلاق سراح الملك « جاي دى لوزجنان » ومقدم الداوية كان سيحل وهو محاصر لصور ، وكان لابد وأن يفى بوعده ويطلق سراحهما ، ولنا أن نتصور ماذا يمكن أن يحدث من هذين الشيطانين ، لو لم يقض صلاح الدين على كل الجيوب الصليبية فى الداخل ، ومدن الساحل ، ويكفى الإشارة الى أن صلاح الدين اشترط عليهما ألا يشتركا فى أى حروب ضده ، ومع ذلك فقد خنثا بوعدهما كالعادة ، ولم يوفيا بتعهداتهما وذهبا الى صور وانضموا الى الصليبيين هناك .

ومهما وجه المؤرخون من نقد الى صلاح الدين بسبب استراتيجيته الحربية ، فانى ارى ان اى تحليل تاريخى للمعارك الحربية بعد ان يخمد صليل سيوفها ، وينقشع غبارها ، لا يكون هو الرؤية الحقيقية التى رآها وعاشها قائد هذه المعركة الرهيبة أو تلك ، لأن المؤرخ يكتب تحليله ويبنى رأيه وهو هادئ الأعصاب ، متزن التفكير ، يمعن النظر فى الخطط القتالية والتحركات العسكرية على مائدة ثابتة فى جو الطمأنينة والأمان ، بينما القائد العسكرى يضع هذه الخطط ويرسم تلك التحركات وهو يعبر ساحة الوغى ، تحيط به السيوف وتلاحقه النبال ، فتأتى خطته متفقة تماما مع قدرته الفكرية ، ورؤيته العسكرية وملائمة للظروف والعوامل التى تحيط به ، ومدى ما عنده من معلومات عن قوة عدوه وتعداد جنده ، ولذلك يمكن القول ان صلاح الدين لم يخطئ ، وانما بنى استراتيجيته العسكرية على رؤية خاصة به ، لا على أساس ما ينبغى أن يكون .

1. The first part of the document is a list of the names of the persons who have been named in the proceedings.

2.

3. The second part of the document is a list of the names of the persons who have been named in the proceedings.

4.

5.

6.

7. The third part of the document is a list of the names of the persons who have been named in the proceedings.

8.

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا ثانية

أحدثت موقعة حطين وما لقيه الصليبيون فيها من هزيمة مرة ، وما تبعها من سقوط بيت المقدس في أيدي صلاح الدين الأيوبي دويا هائلا في الغرب الأوربي ، وذعر العالم المسيحي في الغرب من هول هذه الكارثة التي أصيب بها اخوانهم في المشرق الاسلامي ، وأدركوا ان ملك الصليبيين في الشام الى زوال ، فقد سقطت الرها من قبل في سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وها هي معظم مدن الشام الساحلية والمدن الداخلية ينفرط عقدها في أيدي صلاح الدين ، الذي أنزل بالصليبيين في الشام ضربة قاصمة في حطين ، وختمها باسترداد بيت المقدس من أيديهم سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بعد أن ظل في أيديهم أكثر من ثمانين عاما . وتراءت الصورة للبابوية وللصليبيين الأوربيين ان الأمور عادت من جديد الى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى تقريبا ، وانهم ملزمون بالتعجيل بارسال حملة صليبية جديدة للانتقام من المسلمين وقائدهم صلاح الدين ، وللاستيلاء على بيت المقدس مرة أخرى .

ويعتبر كونراد مونتفرات المحرك الأول لتكوين هذه الحملة ومجيئها الى المشرق الاسلامي . فقد أرغمته ظروف جريمة ارتكبها على ترك البلاط البيزنطي في القسطنطينية ، ولم يجد مكانا يتوارى فيه سوى الاراضي المقدسة ، فوصل الى مدينة عكا عن طريق البحر بعد سقوطها في أيدي المسلمين بعدة أيام (١) ، وكاد يقع أسيرا لولا انه أسرع بالابحار في مركبة الصغير وهرب الى مدينة صور ، فوجد ان الصليبيين الذين نجوا من هول الكارثة (حطين وبيت المقدس) احتشدوا فيها ، ويعيشون داخل أسوارها مذهولين مذعورين . وكان وصول كونراد مونتفرات في هذا الوقت بالذات

(١) يحددها بيكر (الحروب الصليبية ، ص ٨٦) بثلاثة أسابيع .

بمثابة المنفذ لهم ، نظرا لما اشتهر به من نشاط لا يكل ولا يرحم ،
فاخذ يشجعهم ، واتفق مع زعمائهم على ارسال رئيس اساقفة صبور
(جوسياس) ليخطر البابا أوربان الثالث وملوك الغرب الأوربي بما أصاب
الصلبيين في الشام على يد صلاح الدين والمسلمين ، ويطلب منهم المساعدة
العاجلة .

ولكى يثير حماس البابوية وملوك الغرب الأوربي أرسل مع أفراد
البعثة المسافرة بلوحة كبيرة ابتكر تصميمها ، تمثل القبر المقدس للمسيح
- عليه السلام - وقد لوثته خيول المسلمين (١) . وطلب من هؤلاء المندوبين
أن يطوفوا مدن أوربا بهذه الصورة .

كانت أخبار سقوط القدس (الكارثة كما يسميها المؤرخون الأوربيون)
قد وصلت الى بعض ملوك أوربا ، وكذلك الى البابا إيربان الثالث ، الذى
كان مريضا ، ولم يستطع تحمل الصدمة فمات كمدا فى ٢٠ أكتوبر سنة
١١٨٧م (٢) ، وخلفه البابا جريجورى الثامن الذى مات هو الآخر فى ١٧
ديسمبر من نفس العام فى بيزا ولم يمكث فى البابوية سوى شهرين لم يحتمل
فيهما مشقة ما هو مطلوب من جهد ، ثم خلفه البابا الجديد وهو كليمنت
الثالث .

حركت هذه الأخبار عددا من البطارقة والملوك الذين تناسوا خلافاتهم
واتفقوا على نجدة الصليبيين وحماية المسيحية فى المشرق الاسلامى ، وقرر
هؤلاء الملوك فرض ضريبة أطلقوا عليها (أعشار صلاح الدين) . وتقدر
بـ ١٠% من الدخل لمساعدة الصليبيين الموجودين فى الشام . وكان امبراطور

(١) يذكر أن الأثير (الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢) ان الصورة كانت
تمثل المسيح - عليه السلام - وهو يضرب بيد رجل عربى زعموا كذبا انه
النبي محمد ﷺ .

(٢) Annales Romani in Watterich, Pontificum Romanorum :

Vitea, II, pp. 682-683.

وكذلك رئيسان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٢٢ .

المانيا فردريك بريروسا أول من خرج من هؤلاء الملوك متجهًا إلى
صور .

حملة فردريك والصعوبات التي واجهته :

خرج الامبراطور فردريك بريروسا من ألمانيا في أوائل مايو ١١٨٩م
وفي صحبته ابنه الثاني فردريك دوق سوابيا ، على رأس جيش ضخم يعتبر
أضخم جيش مستقل خرج إلى حرب صليبية ، اشتهر بجودة سلاحه ، وحسن
نظامه ، إذ قدرته بعض المصادر المعاصرة بحوالى ٥٠ ألف فارس ، ١٠٠
ألف من المشاة (الرجالة) (١) بينما يذكر المؤرخون الألمان أن عدد
الجيش كله لم يزد عن ١٠٠ ألف . وكان الامبراطور فردريك قد أرسل كتبًا
إلى الملوك الذين سيمر من أراضيهم يستأذنهم في ذلك ، فقد كتب إلى ملك
المجر (بيلا) وإلى امبراطور بيزنطة (اسحق انجيلوس) ، وإلى السلطان
السلجوقي (قلعج أرسلان) ، كما أرسل إلى صلاح الدين الأيوبي يطلب منه
أن يعيد كل فلسطين للصليبيين ، ويتحداه للنزال في ساحة (صوعن) (٢)
عند وصوله في نوفمبر ١١٨٩ .

وصل فردريك بجيشه إلى بلجراد (عاصمة يوغسلافيا حاليا) وعبر
نهر الدانوب في شهر يونيه ، ونفذ إلى داخل الأراضي البيزنطية ، حيث
واجهته المتاعب . فقد تعرض قطاع الطرق من الصربيين والبُلغار لجنوده
وهاجموهم ، وأبدى أهالي الريف من البيزنطيين عداوتهم للألمان ، مما
أساء ظن فردريك بامبراطور بيزنطة واتهمه أنه المحرض على هذه
الاضطرابات ، ومما زاد في سوء العلاقات بين الرجلين أنه عندما احتل
الامبراطور فردريك مدينة فيليوبوليس ، وأنفذ منها الرسل إلى الامبراطور

(١) Arnold of Lubeck; Chron-Slav. pp. 130-131.

(٢) (Soan) هي صان الحجر الآن في محافظة الشرقية ، وهي التي
التقى فيها موسى (عم) بفرعون مصر .

البيزنطى اسحق انجليوس لتنظيم أمر انتقال جنود الجيش الى آسيا الصغرى ، قبض انجليوس على هؤلاء الرسل وسجنهم (١) .

وكان رد فردريك على هذا التصرف أن طلب من ابنه هنرى فى المانيا أن يرسل اليه أسطولاً ليقا تل به بيزنطة ، وأعلن أنه لا سبيل لنجاح أى حركة صليبية ما لم يستولى الغرب على المنافذ البحرية (البسفور والدردنيل) التى توصل الى فلسطين ، ومع ذلك انتهت هذه القلاقل ، وعبر فردريك بجيشه الدردنيل ، واصل السير حتى بلغ الطريق البيزنطى الرئيسى المرسوف حالياً ، وفى مدينة فيلادلفيا تعرضت جنوده الى السلب والنهب ، ولكنه سرعان ما أنزل العقاب بأهلها ، ثم واصل السير حتى دخل الأراضى السلجوقية ، ولم يجد مقاومة من قلج أرسلان فدخل الى (قونية) فتصدى له قطب الدين بن قلج أرسلان ، ولكن فردريك لم يمكث طويلاً داخل المدينة اذ أنه كان يلتمس مكاناً للراحة فقط .

خرج فردريك بجيشه من قونية بعد ستة أيام وسار عبر دروب جبال طوروس وهو طريق مشئوم اندحرت فيه معظم قوات الحملة الصليبية الأولى ، فوصل الى سلوقية على الساحل الجنوبى ، وكانت بيد الأرمن فكتب الجاثليق اصطفان بن ليون الأرمنى الى صلاح الدين يخبره بوصول الحملة الصليبية ، وان كان قد أمدهم بالاقوات والعلوفات وأظهر الطاعة لهم .

واذا أمعنا النظر فى موقف السلطان المسلم قلج أرسلان بن مسعود بن سليمان وبين موقف الجاثليق الأرمنى والامبراطور البيزنطى نجد أن موقف الأول كان مخزياً لأنه انسحب من طريق باربروسا ولم يبد أى مقاومة ضده أو ضد جنوده ، ولولا ان الحملة دخلت قونية ما تعرض لها ولده كذلك ، كما ان السلطان المسلم سمح لفردريك أن يتزود بما تحتاجه الحملة من

ماء وطعام من بلده (١) ، بينما امتنع الامبراطور البيزنطى عن ذلك ،
واثار المتاعب والاضطرابات لجنود الحملة فى كل مكان يعبرون منه داخل
بلادهم وكتب بذلك الى صلاح الدين الايوبى ليتقرب اليه ، وان كان فى الحقيقة
عجز عن ذلك (٢) .

ويبدو لنا ان قلج ارسلان اقدم على هذا الموقف نتيجة لمشكلاته
الداخلية (٣) والخارجية ، وللعداء الذى كان قائما بينه وبين الامبراطورية
البيزنطية من جانب ، وبينه وبين صلاح الدين الايوبى من جانب آخر .

وفاة فردريك بربروسا ١١٩٠م :

هبط الجيش الالمانى الضخم الى سهل سلوقيه (قيليقية) فى ١٠ يونيه
سنة ١١٩٠م (٥٨٦ هـ) ، وأراد الامبراطور أن يبرد جسمه من حرارة الجو
السائدة ليستعيد نشاطه فأسرع مع حرسه الخاص الى حافة مياه النهر
(كالكادنوس Calycadnus) ويبدو ان فرسه جفل به فאלقاه فى الماء فغرق
بسبب ثقل ما عليه من أسلحة ، أو انه لم يحتمل تيار النهر لكبر سنه
(كثر من ٧٠ سنة) ، ولم يستطع المقاومة فغرق (٤) .

وبموت الامبراطور فردريك بربروسا انتهت حملته بالفشل الذريع نتيجة
لتبعثر جيشه ، حيث عاد بعض الأمراء بجنودهم الى أوربا ، وتعرض
البعض ممن عبروا سهل قيليقية للأمراض التى تفشت فيهم نتيجة شدة حرارة

(١) ينفى رنسمان (نفس المرجع ص ٤١) ان قلج ارسلان كان يساعد
فردريك سرا وان صلاح الدين اعتقد ذلك خطأ . ويبدو لنا ان قلج ارسلان
بعدما كتب الى فردريك بتقديم المساعدة ، وقف موقفا سلبيا واكتفى بترك
الحملة تمر من اراضى دولته وتتصرف بما تريد .

(٢) ابن الاثير : ج ١٢ ، ص ٤٨-٤٩

(٣) يذكر ابن الاثير (ج ١٢ ص ٥٠) ان قلج ارسلان كان يكاتب
صلاح الدين بأخبارهم ، فلما عبر الالمان بأرضه كتب يعتذر لصلاح الدين
بعجزه ، لأن أولاده حجروا عليه ، وحكموا البلد ، وتفرقوا عنه ، وخرجوا
عن طاعته .

(٤) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٤٩ .

الصيف وارتفاع درجة الرطوبة ، فأخل الجنود بالنظام ، وأعلنوا التمرد ، وتخطفتهم الأيدي وأصابتهم الخسائر الفادحة أثناء اجتياز الدروب السورية فلم يصل منهم الى انطاكية (يونيو ١١٩١) الا الرعاع والشراذم .

وبذلك أضحت الحاجة أشد ضرورة من كل زمن مضى ، الى وصول فيليب أوجست الثانى ملك فرنسا ، وريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا (١) الى المشرق الاسلامى ، ليسهم كل منهما بقواته فى درء النزاع المرير الناشب على الساحل الشمالى لفلسطين .

لعبت المسائل السياسية دورها بين ريتشارد وفيليب أوجست فدب الخلاف بينهما وهما فى صقلية لقضاء فصل الشتاء بها ، وانقسمت عرى المصاهرة بينهما (٢) وأبحرت سفن ريتشارد قلب الأسد فجنحت احداها على شاطئ قبرص - وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية - وأسرها حاكم الجزيرة ، مما جعل ريتشارد يتجه الى قبرص لغزوها (٣) ، واعتبرها داخلة فى دائرة الحروب الصليبية ، وفعلًا تملكها مما زاد من قوته الحربية .

وقد ساعد على اشتراك أعداد ضخمة من مسيحي الغرب رجالا ونساء فى الحملة الثالثة ، ان لويس السابع ملك فرنسا ، كان قد فرض ضريبة (عشور صلاح الدين) (٤) على كل من لم يشترك فى الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى ، كما فرض فيليب أوجست ، وريتشارد قلب الأسد ضريبة مماثلة على رجال الكنيسة وعلى العلمانيين جميعا ، اسهاما منهم فى الحروب

-
- (١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٥٧ .
(٢) كان ريتشارد قلب الأسد خطيبا لشقيقة فيليب ، فتركها وخطب برنجاريا أميرة نافاريا التى أبحرت فى السفينة التى جنحت على قبرص . فأخذت أسيرة .
(٣) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٦ وما بعدها .
(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١٤١ .

الصليبية ، ولم يجد مسيحيو الغرب مقرا من دفع هذه الضرائب الا بالاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة .

وصل فيليب أوجست ملك فرنسا بجنوده الى صور في ربيع الاول سنة ١١٩١م/٥٨٧هـ ومنها الى عكا حيث هاجمها ، وقد انضمت اليه بقايا حملة فردريك الثاني ، بالإضافة الى الصليبيين الموجودين في الشام ، ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد أن وصل بأسطوله (٢٥ سفينة كبيرة) الى مدينة صور في شهر يونيه في نفس العام ورفضت حاميتها أن تستقبله ، فاستكمل مسيرته الى عكا ، حيث اكتملت أعداد الصليبيين وازدادت أعدادها بوصول جنود ريتشارد ، وساء موقف المسلمين فيها - ويرجع السبب في ذلك الى مخالفة الجنود لرأى صلاح الدين ، الذي كان يرى ضرورة مهاجمة هذه النجيدات الصليبية وهى في طريقها من صور الى عكا ولكن الجنود أصروا على مقاتلتهم عند عكا حتى يمزقونهم جميعا في ضربة واحدة (١) فاضطر صلاح الدين الى موافقتهم .

طوق الصليبيون عكا ، واحكموا الحصار حولها ، وحفروا خندقا يحيط بمعسكرهم ، الذى أحاط بالمدينة وأوصلوه من البحر الى البحر (٢) وأقاموا تلا ترابيا (٣) وقف الرجال فوقه ليصيبوا مهاجميهم من المسلمين ، فسدوا منافذ الطرق الى عكا على المسلمين ، كما أحكم الصليبيون الحصار من جهة البحر (٤) حيث أغلقت أساطيل فيليب ، وريتشارد مدخل الميناء ، فمنعت كل مساعدة يمكن للأسطول المصرى أن يقدمها الى أهالى عكا (٥).

(١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٤ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٤٠ .

(٣) راجع ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٦٥ ويبدو لى ان فكرة خط بارليف على الضفة قناة السويس مأخوذة من الحروب الصليبية ، للتشابه الكبير بين الحالتين .

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥٧ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤١-٤٧ .

والحامية العسكرية الموجودة بها ، كما أقام الصليبيون على مدخل المدينة ثلاثة أبراج عالية بارتفاع ستين ذراعا ومكونة من خمسة طوابق بكل منها جنود ورماة وتوالت المساعدات والامدادات على الصليبيين من المدن الاسكندrinaوية ، والانجليزية ، والنورمانية في جنوب ايطاليا .

وبذلك أصبح الصليبيون في وضع افضل من وضع القوات الاسلامية ، واضطرت مدينة عكا - وكان حاكمها الأمير قراقوش - الى الاستسلام (١) في ١٢ يولييه ١١٩٢م / ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ ، وكان الذى خرج للصليبيين وعرض عليهم تسليم عكا هو « الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكاري » المعروف بالمشطوب وصحبه « حسام الدين حسين بن باريك » وعقد الصلح بين الفريقين ، ومن أهم ما تضمنه هذا الصلح من شروط :

- ١ - أن تسلم المدينة للصليبيين بما فيها من آلات وعدد وأسلحة .
- ٢ - أن يدفع لهم مائتى ألف دينار فدية عن أسرى المسلمين في المدينة ، في خلال شهرين ، وعشرة آلاف دينار للمركيز كونراد موننتفرا (٢) وأربعة آلاف لحجابه .
- ٣ - أن يطلق صلاح الدين سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى ، وخمسمائة فارس معينين (٢) .
- ٤ - أن يرد صليب الصليبيات الذى أخذه المسلمون في موقعة حطين .
- ٥ - أن يخرج جميع المسلمين الموجودين في المدينة بأموالهم آمنين سالمين (٤) .

-
- (١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٧١ ، وابن واصل : مقروج الكروب ، ج ٢ ص ٣٦٢ .
- (٢) قتل كونراد بيد رجلين من الاسماعيلية في يوم ١٣ ربيع الآخر ٥٨٩هـ / ١١٩٣م كانا قد ارتدا عن الاسلام قبل ٦ شهور فوضعهما على قتل كونراد ملك إنجلترا ، وبلدوين . راجع العماد الكاتب : ص ٥٨٩ .
- (٣) في العماد الكاتب : ص ٥١٣ مائة أسير من المعروفين .
- (٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١١٩ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٦٧ .

كان موعد تقديم الفدية بعد شهرين من الاتفاق ، ولكن في خلال هذه المدة بدأ سوء تفاهم بين الفريقين ، فالصليبيون لا يريدون اطلاق سراح أسرى المسلمين الا بعد استلام الفدية المقررة والمسلمون لا يثقون في عهودهم ، ولا يريدون دفع المال الا اذا تأكدوا من اطلاق سراح الأسرى ، ومع ذلك عرض المسلمون دفع نصف الفدية مقدما ، والنصف الآخر عندما يتم اطلاق سراح الأسرى وطلبوا ضمانا من مقدم الداوية الذي كان سفير الصليبيين ، وتهرب مقدم الداوية من اعطاء الضمان وأصر الصليبيون على استلام مبلغ الفدية أولا ، ولهم الحرية بعد ذلك في اطلاق سراح من شاءوا وان يحتفظوا بمن شاءوا ، فتأكد الشك عند صلاح الدين في نياتهم ، وأدرك انهم يريدون الحصول على هذه الأموال الكثيرة ليتقوا بها ، ثم يطلقون سراح بعض الفقراء من الأسرى ويحتفظون بالأمراء والقادة والفرسان ليلتزموا المسلمين بهم ، ويصيبوا من ورائهم مالا كثيرا ، ولذلك رفض صلاح الدين أن يدفع الفدية قبل اطلاق سراح جميع الأسرى ، فتجدد القتال ، وأصيب المسلمون بالدهشة عندما رأوا جثث أسرى المسلمين ، بعد أن قتلهم الصليبيون غدرا ، تملأ جوانب عكا ، وكانوا نحو من ثلاثة آلاف ، ولم يبق الصليبيون الا على الأمراء والفرسان وهكذا تثبت الأحداث ان الصليبيين يغدرون وينكثون بالعهد دائما ولا يحترمون ما يوقعون عليه من الاتفاقيات .

ومع ما أحرزه الصليبيون من انتصار في عكا ، الا أن أمراءهم كانوا على خلاف مع بعضهم ، فقد كان الخلاف كبيرا بين كونراد مونتفرت ، صاحب صور ، وبين الملك « جاي دى لوزجنان » على عرش مملكة بيت المقدس ، لدرجة أن كونراد غادر عكا ، وعاد الى امارته في صور ، كما ان النزاع بين فيليب ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ازداد حدة عما كان عليه من قبل ، وترك فيليب عكا هو الآخر وعاد الى بلاده ، وترك ريتشارد ملك انجلترا يتحمل المسؤولية كلها بمفرده حسب ما تمليه الظروف السياسية والحربية ، وهكذا نجد ان الحملة الصليبية الثالثة قد أسهمت في

زيادة الخلافات بين قادة الصليبيين ، وعلى ذلك يرى بعض المؤرخين (١) أن الحملة الثالثة قد فشلت بسبب هذه الخلافات الحادة بين الملوك والأمراء ، الذين لم يحملوا السلاح دفاعا عن عقيدتهم ، وإنما كملوك يعملون لأجسادهم الخاصة ، لاسيما وأن بعض هؤلاء المؤرخين وصفوا ريتشارد قلب الأسد بأنه من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلقون بسجايا رفيعة وأن ما أطلق عليه من وصف باعتباره أحد أبطال المصروب الصليبية فإنه لا يمكن اعتباره إلا في حدود تفكير العصور الوسطى .

صلاح الدين يطلب المساعدة من المغرب سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١ م :

أرسل صلاح الدين إلى خليفة المغرب المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على عدو الدين ، فلما سقطت عكا في أيدي الصليبيين أرسل صلاح الدين مبعوثه شمس الدولة عبد الرحمن بن منقذ يكرر الطلب في المساعدة (٢) ، ولكن ابن عبد المؤمن تغافل عن الطلب ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أن صلاح الدين كان قد أرسل حملة إلى بلاد المغرب العربي ليشغل بعض عساكره الأكراد بها ، بينما يقرر أبو شامة (٣) أن سبب فلك راجع إلى عدم مخاطبة صلاح الدين لأبي يوسف يعقوب في خطابه بالتعبير المتبع في بلاد المغرب وهو (أمير المؤمنين) وإذا صح ذلك ، فهذا يدل على عدم الفهم الصحيح للأخلاق الإسلامية ، التي توجب النجدة على القائد لأخيه المسلم طالما كان يملك المساعدات المطلوبة منه .

موقعة أرسوف وهزيمة المسلمين ٥٨٧هـ / ١١٩١ م :

اتجه ريتشارد قلب الأسد بقواته نحو أرسوف ، يريد الاستيلاء على مدن

(١) Emerton, Mediaeval Europe, p. 340.

(٢) راجع نص الرسالة مطولة وفيها يشرح صلاح الدين موقف المسلمين الصعب أمام كثرة الإمدادات التي وصلت إلى الصليبيين في الشام ومجىء الأساطيل الصليبية وسدها مياه البحر أمام الأساطيل الإسلامية . أبو شامة : ج ٢ ص ١٧١-١٧٣ .

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٧٤ .

الساحل التى فى أيدى المسلمين ، فاذا تم له الاستيلاء عليها اتجه نحو بيت المقدس . وفى أرسوف دارت بين الفريقين معركة رهيبة فى ١٤ شعبان (سبتمبر) ، أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا وأوشكوا على النصر بقيادة الملك العادل سيف الدين (أخى صلاح الدين) ، ولكن انقلبت الموازين بسبب صمود ريتشارد وشجاعته ، وأصيب المسلمون بهزيمة مؤلة لأول مرة فى تاريخ حروبهم منذ أن تولى صلاح الدين الأيوبي مسئولية القيادة للمعارك الحربية .

ولولا ثبات صلاح الدين ، وتأثيره الشخصى فى إثارة حماس جنده ، وتماسكهم ، لكانت الموقعة مأساة كبرى للمسلمين ، ومع أن هزيمة المسلمين فى أرسوف كانت موجعة ، إلا أن صلاح الدين استطاع أن يمتص هذه الهزيمة وتماسكت قواته ، وأمر بتدمير استحكامات المدن الساحلية مثل يافا وأرسوف وقيصرية وصيدا وجبيل (١) حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين ، كما دمت استحكامات طبرية ، ثم أمر صلاح الدين بتخريب عسقلان كذلك .

فقد جمع صلاح الدين أكابر امرائه وشاورهم فى أمر عسقلان ، فاتفق رأيهم على تخريبها لعدم القدرة على حفظها ، لاسيما وأن الفرنجة قد نزلوا فى يافا وأستقروا بها بعد سقوط عكا فى أيديهم ثانية ، ولا يمكن لعساكر المسلمين حفظ عسقلان وبيت المقدس ، لأنه يخشى على عسقلان من الوقوع فى أيدى الصليبيين وعندئذ يتقوون بها ويعيدون ترتيب صفوفهم ويهاجمون بيت المقدس لاسترجاعها من أيدى المسلمين .

وافق صلاح الدين على هذا رأى وأمر بتخريب المدينة فى ١٩ شعبان سنة ٥٨٧هـ. وأخذ يدعو الناس من الأسواق ليشتركوا فى هدم سورها ، وفعلا تم هدم معظمه وكان سورا عظيم البناء بلغ سمكه حوالى عشرة أذرع ، وكان سمك جدار الحصن مقدار طول رمح (حوالى ٣ أمتار) ، ثم أحرقت المدينة والبرج (٢) ، ولم يترك صلاح الدين حصن الاسبتارية الواقع مباشرة على

(١) Wiet; op. cit., p. 327.

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ٢ ص ١٩١-١٩٢ .

البحر الا بعد أن أضرهم فيه النار ، وهدم بعض أركانه . وبذلك خربت عسقلان ، وخرج أهلها المسلمون منها بعد أن باعوا كل غال ونفيس بأحط الأثمان ، وتفرقوا في المدن الأخرى .

ثم توجه صلاح الدين الى بيت المقدس ، وأعد خطة محكمة للدفاع عنها ، وحمائيتها والحفاظ عليها ، فقسم سور البلد الى مناطق دفاعية ووزع قواده ومقاتليه عليه ، وحفر خندقا عريضا وعميقا ، على غرار ما عمله الفرنجة في عكا ، وشارك القائد العظيم صلاح الدين بنفسه مع أولاده وقواده وجنوده والعلماء والقضاة في هذه الأعمال (١) التي تدخل في نطاق من الجهاد في سبيل الله .

وامام هذه التحصينات القوية على بيت المقدس تراجع ريتشارد عن عزمه ، وأدرك أنه لن يستطيع الاستيلاء على القدس ، فارتد الى الرملة ، ومنها توجه الى عسقلان ١١٩٢م ، حيث مكث بها أربعة شهور ، أعاد خلالها ما كانت عليه عسقلان من تحصينات ، حتى أصبحت أقوى الحصون الساحلية وقد يبدو غريبا ان صلاح الدين لم يهاجم ريتشارد في عسقلان وتركه يقيم هذه التحصينات ، ولكن الحقيقة هي ان صلاح الدين كان مضطرا للانتظار حتى تصله الامدادات من الموصل والجزيرة (٢) .

ومن ناحية أخرى كان عليه أن يمنح أمراء العساكر والجنود قسطا من الراحة بعد هذا الجهاد المتواصل ، خاصة وأن بعضهم طلب ذلك صراحة من صلاح الدين الأيوبي .

صلح الرملة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م :

وصلت حدة الخلاف ما بين كونراد وريتشارد أن لجا كل منهما الى طلب الصلح ، وان يكون حليفا للمسلمين ضد خصمه الآخر ، ولم يقبل صلاح الدين بما عرضه كل منهما من شروط ، وأدرك ريتشارد أن الحرب

(١) أبو شامة : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ٣٨٨ وكذلك :

Runciman; op. cit., vol. 3 p. 62.

قد استنفذت طاقات وامكانات كثيرة لقواته ، وان غيبته عن وطنه قد طالت ، وبدأت فيه منافسات خطيرة على العرش ترمى الى عزله عن الملك وان الامور الداخلية تستوجب منه العودة الى انجلترا بسرعة لمعالجة ما نشأ فيها بعد ان اغتصب أخوه العرش ، بالإضافة الى أن المرض قد حل به - فعاود المفاوضات بشأن الصلح في ٢٠ مارس وكان « بلدوين » الذي كان صاحب الرملة ونايبلز مندوب ريتشارد لصالح الدين وكانت لجنة المفاوضات تضم مجموعة من الأمراء المشهود لهم بالكفاءة السياسية ، والقيادة الحربية ، في مقدمتهم الملك العادل أخو صلاح الدين ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر والملك المنصور (١) وغيرهم .

شروط صلح الرملة :

وفي ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ / ٢ سبتمبر ١١٩٢ م ، وقعت المعاهدة بين الطرفين وكان من أهم شروطها :

- ١ - أن تسرى الهدنة وشروط الصلح لمدة خمس سنوات (٢) .
- ٢ - أن يحتفظ الصليبيون بالبلاد الساحلية ما بين صور شمالا ويافا جنوبا .
- ٣ - أن يسلموا للمسلمين عسقلان بعد تدمير استحكاماتها (٣) ويحتفظ المسلمون بالبلاد الواقعة جنوب عسقلان ، أى بقية فلسطين بما فيها بيت المقدس .
- ٤ - أن تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين .

(١) كانوا أولاد صلاح الدين ، وقد أنجب صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا ، وابنة واحدة . راجع :

- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٥ .
- العماد الكاتب : ص ٦٢٩ وما بعدها .

(٢) في بعض المراجع ثلاث سنين وثلاثة أشهر أو ثمانية أشهر (ابن شداد : النوادر ص ٢٣٥ ، ابن الاثير : ج ١٢ ص ٨٥) وما أثبتناه عن ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ٤٠٣ ، وأبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ ، و Runciman, p. 63.

(٣) Runciman, p. cit. III p. 63.

٥ - أن يسمح للمسيحيين بالحج والزيارة الى بيت المقدس (١) ،
دون أن يدفعوا ضريبة ما للمسلمين ، وأن يكون للمسلمين والمسيحيين الحرية
في أن يجتازوا أرض بعضهم بعضا .

٦ - أن يسمح صلاح الدين لنفر من رجال الكنيسة اللاتينية بالبقاء في
كنيسة يوم القيامة وبيت لحم والناصرة لأداء العبادة والطقوس للحجاج
القادمين من أوربا وأن يعاد اليهم صليب الصلبوت .

وبهذه المعاهدة أخذت الأمور في منطقة الشرق الاسلامى في الاستقرار ،
وانتهت أعمال الحملة الصليبية الثالثة دون تحقيق شئ يذكر ، فقد خيبت
آمال المسيحيين الأوربيين والشرقيين على حد سواء ، وتحولت الآمال الكبار
التي عقدت عليها الى ياس وتبادل الاتهامات الحادة بين ملوك الصليبيين
وزعمائهم ، فقد ارتحل ريتشارد قلب الأسد الى عكا ، وعندما عاد الى بلاده
(إنجلترا) وجد أخاه قد اغتصب العرش ، فدخل معه في صراع ، كما
وقع النزاع بينه وبين فيليب أوجست ملك فرنسا . ولم تدم له الحياة طويلا
حيث لقي مصرعه في ٢٦ مارس سنة ١١٩٩م (٢) .

أما في الجانب الاسلامى فقد مكث صلاح الدين الايوبي في القدس الشريف
شهر رمضان حيث أحكم سور المدينة ، فقد أرسل اليه صاحب الموصل خمسين
رجلا من الحجارين لتعميق الخندق ، ورأى صلاح الدين أن يحفر خندقا
جديدا ، وأن يحدد السور ويقويه ، فاستخدم حوالى ٢٠٠٠ من أسرى الفرنجة
في هذا العمل الذى جدد به تحصينات بيت المقدس (٣) ، كما أنه رتب أمورها
الداخلية ، وأسند أمارتها الى الامير جورديك من المماليك النورية . ثم
رجع عائدا الى دمشق ، حيث مرض بها وتوفى فيها يوم الأربعاء السابع
والعشرين من شهر صفر عام ٥٨٩هـ / ٤ مارس ١١٩٣م وكان عمره
خمسا وخمسين سنة ، بعد أن دام حكمه لمصر خمسا وعشرين عاما (٤) .

(١) عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) Runciman; op. cit., p. 74.

(٣) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ٥٦٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ٤١٩-٤٢٠ .

الفصل السابع

الايوبيون بعد صلاح الدين

عندما توفي صلاح الدين وأصبح في ذمة التاريخ ، كانت الظروف التي أفرزته لاتزال قائمة ، وكانت الأمة الاسلامية في ميسس الحاجة الى شخصيته الفريدة ، وعبقريته العسكرية الفذة ، لأن الصليبيين - وان كانت أعدادهم قد نقصت الى حد كبير جدا ، ومعظم اماراتهم ومراكز تواجدهم قد استعاده صلاح الدين قبل موته - كانوا لايزالون موجودين على الأرض العربية . وخطر مجيء حملات صليبية جديدة لايزال قائما . وثمرة ما بذله صلاح الدين من جهود مضيئة في تأسيس دولته على مبادئ دينية ، واحياء المذهب السنى ، كانت لاتزال في دور الطفولة . لأن صلاح الدين لم تطل مدته في الحكم منذ أصبح وزيرا في مصر الى أن انتقل الى رحاب الله سوى خمس وعشرين سنة وهى مدة قصيرة جدا في عمر الدول وتكوين الشعوب . في هذه الظروف ظهر خلفاء صلاح الدين الايوى على مسرح الاحداث التاريخية وكانوا مختلفين عنه سلوكا وخلقا وكان مستواهم العسكرى والسياسى لا يرقى الى مستواه ، ومن هنا ترك موت صلاح الدين الايوى فراغا سياسيا كبيرا في منطقة الشرق الادنى .

وربما يكون صلاح الدين قد شارك - بدون قصد وبدون أن يدري - في اضعاف دولته ، وذلك بتقسيمها بين أولاده وأخواته وأبناء عمومته ، وامرائه ، مما أدى بخلفائه الى مشاحنات ومنازعات بل وحروب داخلية ، مما أعاد منطقة الشرق الاسلامى الى الضعف والتفكك .

فالملك الأفضل وهو أكبر أبناء صلاح الدين كان تحت يده ملك دمشق ومدن الساحل وبيت المقدس ، وبلبك ، وصرخد وبصرى وبانياس وهوتين وتبينين وجميع الاعمال الى الداروم (١) .

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ٦٣٢ .

وكانت مصر في حكم الملك العزيز عثمان الذي حاول أكثر من مرة أن يأخذ دمشق من أخيه الأفضل ، وكان الظاهر غازي على حلب وجميع أعمالها أى المدن الواقعة في محيطها مثل حارم ، وتل باشر ، واعزاز ، ومنبج وغيرها (١) . وكان حماة الأمير محمود بن تقى الدين عمر شاهنشاه - ابن خال صلاح الدين - وكان بحمص شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه (حفيد عمه) وكان الملك العادل - أخو صلاح الدين - بالكرك حيث امتنع فيه . بينما كان في اليمن الملك العزيز سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ابن أيوب (أخو صلاح الدين) وكانت بصرى تحت حكم الملك الظافر خضر (وهو أحد أبناء صلاح الدين) بالإضافة الى بعض الأمراء الذين كانت في أيديهم بعض البلدان مثل الأمير ابن الداية على شيزر ، والأمير منكورس ابن خمارتكين على حصن صهيون وحصن برزيه - بالقرب من الملاحية - والأمير دلوروم بن بهاء الدين ياروق على تل باشر ، والأمير ابراهيم بن شمس الدين ابن المقدم على حصن بعرين وكفر طاب وأفاميه (٢) .

وقد طمع كل هؤلاء في أن يستقلوا بما في أيديهم من امارات فتمزقت الدولة الأيوبية الى دويلات تتنازع فيما بينها . ولاشك ان موت صلاح الدين يعتبر خسارة فادحة للأمة الاسلامية ، لانها فقدت رجلا بأمة (٣) وتكفى الإشارة الى ما كتبه عنه المؤرخون المعاصرون له من أمثال ابن شداد ، وأبو شامة وابن واصل ، وابن الاثير ، وعلى رأس هؤلاء جميعا العماد الكاتب الأصفهاني وغيرهم من مؤرخي الحروب الصليبية اللاتينيين من أمثال وليم الصوري William of Tyre ومتى الرهاوى Mathew of Edessa وميخائيل السريانى Michael the Syrian الذين اعترفوا رغم عداوتهم له بسجاياه وبطولاته وعظمة قيادته وحكمة سياسته ... الخ .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٩٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ٤ .

(٣) عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى في وصف ابراهيم عليه السلام « ان ابراهيم كان أمة في قومه » .

الخلاف بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز :

استحكم الخلاف بين الأفضل وأخيه في العام التالي لوفاة أبيهما صلاح الدين ، ويرجع أسباب ذلك الى تحريض الأمراء في مصر للملك العزيز عثمان لضم دمشق وأعمالها الى ملكه في مصر ، وأغروه بالخروج حيث ضرب الحصار على دمشق سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م متعللا برغبته في الحفاظ على قوة الدولة التي أقامها صلاح الدين ، بعدما ظهرت بوادر الضعف ، وتمكن الصليبيون من استعادة ثغر جبيل عن طريق بذل المال لحاكمه الكردي الذي يقوم بأمره منذ فتحه صلاح الدين (١) .

فاستنجد الأفضل بعمه الملك العادل الذي صحب معه بعض أبناء صلاح الدين وذهبوا الى دمشق واتفقوا جميعا على عدم تمكين العزيز عثمان من الاستيلاء عليها حرصا منهم على أماراتهم .

ولما رأى العزيز عثمان اجتماع كلمتهم ، وعدم قدرته على مواجهتهم قبل بالصلح على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من المدن في حوزة العزيز عثمان ، وأن تبقى دمشق وطبرية والغور للملك الأفضل (٢) . ولكن أنصار الفرقة وحاشية السوء من أصحاب المصالح الخاصة الذين يحيطون بالحاكم في كل وقت وفي كل عصر أخذوا يحرضون الأفضل على قتال أخيه العزيز ، وكان على رأس هؤلاء جميعا وزير السوء للملك الأفضل وهو ضياء الدين ابن الاثير شقيق مؤرخنا الكبير .

لم يقنع الملك العزيز (سلطان مصر) بالصلح الذي فرض عليه ، فأخذ يستعد لغزو دمشق وضمها اليه ، فلما سمع الأفضل بهذه الأخبار عاود استنجاهه بعمه الملك العادل ، وطلب منه أن يبقى معه في دمشق ليقف معه أمام مطامع أخيه العزيز عثمان ، ونجح اذ دخل العادل دمشق في

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ٢٦ ، ابن تغرى ، مرجع سابق ،

ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ١٠٩ .

التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م (١) ، ثم اتصل الأفضل بأخيه الملك الظاهر - صاحب حلب - ووعدته بتسليم جبله واللاذقية له مقابل مساعدته له ضد العزيز عثمان ، وهكذا اتصل الأفضل بأمرأه آخرين وطلب منهم المساعدة ثم عاد الى دمشق وبها عمه الملك العادل الذى تظاهر بتأييده ومؤازرته .

لم يلبث الملك الظاهر أن وقف على حقيقة ما خدعه به الأفضل الذى لم يوف بوعدته ويعطيه جبله واللاذقية ، فأسرع بالكتابة الى أخيه العزيز عثمان وحرضه على ضم الشام اليه ، ووعدته المساعدة والوقوف معه .

خرج العزيز عثمان فى عسكره ولما اقترب من دمشق أفسد الملك العادل الأمراء عليه ووعدهم ومناهم وفى نفس الوقت ضرب الأمراء الصلاحية بالأمراء الاسدية مستغلا ما بين الفريقين من تنافس ، ثم غرس الوقيعة والنفور فيما بين العزيز والأمراء الاسدية لدرجة ان كل فريق كان يرتاب فى الامر ويخشى من غدرة ، وأخيرا رحل أمراء الاسدية والاكراد المهرانية فى جوف الليل فى الرابع من شوال سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥ وهم لابسون عدة الحرب ، وبذلك تخلى معظم جنود الجيش عن العزيز عثمان الذى لم يظهر عليه أى ارتباك أو خوف ، وتركهم يرحلون الى حيث يريدون ، وعاد هو شبه مهزوم الى مصر بمن بقى معه من الجنود .

اتفق العادل والأفضل على تتبع العزيز عثمان وأخذ مصر منه وأن يتولاها الأفضل ، ويترك دمشق لعمه الملك العادل . وخرجت كل العساكر بما فيهم الاسدية والاكراد ، وكاتب الملك العادل والأفضل نائب العزيز عثمان فى القدس ، فخضع لهما وسلمهما المدينة . وفى أثناء مسيرهما الى مصر وجد العادل انضماء الجنود كلهم الى الأفضل وأنهم مجتمعون عليه ، فخاف

ألا يعطيه دمشق ، فراسل العزيز عثمان سرا وطلب منه الثبات وأن يجعل على مدينة بلبيس من يحفظها ، وتكفل له بعدم الدخول معه في قتال .

وصلت عساكر العادل والأفضل إلى بلبيس ، وبدأت في منازلة حاميتها وتمنع العادل عن القتال هو وعساكره ، وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر السلطنة للأفضل ، ولا يرى بتقدمه على العزيز عثمان (١) . ثم ظهر بمظهر المصلح الخائف على مصالح الدولة والحريص على حياة الجنود ، وتمت المحادثات واللقاءات التي انتهت بالصلح ، والتي خرج العادل منها فائزاً حيث أعيد إليه أقطاعه القديم في مصر ، وأن تكون أقامته فيها ، وأن يعفوا العزيز عثمان عن العساكر الذين خرجوا عليه ، وبذلك عادت الأمور - في الظاهر - كما كانت وبدأ العادل يظهر وكأنه هو السلطان الفعلي لمصر .

انقطع الملك الأفضل للتعبد ولزم الزهد والقناعة وترك أمور الدولة لوزيريه ضياء الدين بن الأثير ، فاختلفت الأحوال . وكثرت الشكوى منه (٢) وكتب أعيان الدولة في دمشق إلى العادل في مصر يخبرونه بما أصاب دمشق من تدهور الأحوال بسبب هذا الوزير ، فكتب العادل إلى الأفضل بأن يقلل هذا الوزير الأحقق السوء التدبير القليل التوفيق ، ولكن الأفضل لم يفعل شيئاً . فاتفق العادل مع العزيز عثمان على الخروج إلى دمشق .

خرج الرجلان بالعساكر من مصر في مستهل ربيع الأول سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م وتدخل الوزير وحرص الأفضل على قتال أخيه وعمه ، وزين له ذلك وأغراه بحصانة دمشق ومئات أسوارها ، وانضم الملك الظاهر - صاحب حلب - إلى رأي الوزير وأمر أخاه الأفضل أن يحصن دمشق ويقاوم أخاه العزيز مع عمه العادل ووعدته بالمساعدة .

تمكن الملك العادل والملك العزيز عثمان من الدخول إلى دمشق يوم

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ١٢٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ١٢٩ .

٢٧ رجب عن طريق بعض الامراء الذين كانوا يكتبوهما (١) ، وحضر
الافضل اليهما فطلب الملك العزيز منه أن ينتقل الى صرخد ، فأخرج وزيره
ضياء الدين بن الاثير في غسق الليل مع الصناديق التى تضم محتوياته ،
وذلك خوفا عليه من القتل ، وجمع الوزير أموالا طائلة أخذها معه وهرب
بها الى بلده الموصل (٢) وبذلك فقد الافضل ملكه فى دمشق .

الملك العادل فى دمشق :

سلم العزيز عثمان دمشق الى عمه الملك العادل (٢) ، ورحل عائدا يوم
٩ شعبان ٥٩٢هـ / ١١٩٦م ، ثم قرىء فى الجامع المنشور بتفويض دمشق
وأعمالها اليه (٤) . وبذلك أصبحت اقطاعا له ، وليس للعزيز عثمان سوى
الخطبة والسكة (٥) .

الملك العادل والصليبيون :

ارتاح الصليبيون لما يحدث فى البيت الايوبى من تفكك ، وأخذوا
يراقبون ما تاتى به الظروف بين هؤلاء الاخوة أصحاب هذه الدويلات
المتنازعة ، وأعدوا أنفسهم فى الغرب الأوروبى بعد اتصالهم باخوانهم فى مدن
سواحل الشام للقيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، والانتقام
من صلاح الدين الايوبى متمثلا فى المسلمين . وساعدتهم ظروف الهدنة التى
عقدوها مع صلاح الدين من قبل على تجميع جنود وامدادات كما أتاح
تجديد هذه الهدنة التى تمت بين العزيز عثمان وبين ملك الصليبيين هنرى

(١) ذكره ابن الاثير (ج ١٢ ص ١٢٢) باسم العز بن أبى غالب الحمصى .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ٦٢ وما بعدها .

(٣) يذكر ابن الاثير ان العزيز عثمان كان قد أفرط فى الشراب ،
وأخذ يهذى ويقول انه يعيد البلد الى أخيه الفاضل ، فنقل هذا القول
لوقته الى الملك العادل ، الذى حضر توا واستلم دمشق من العزيز ، (ج ١٢
ص ١٢٣) .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ٩٢ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ١٣٦ .

دى شامبانى بسبب الظروف السيئة التى أحاطت بخلفاء صلاح الدين (١)
الفرصة لتنظيم صفوفهم .

أخذ الصليبيون يتدفقون من الغرب الأوربي على مدن الشام لدعم
الصليبيين وأخذ أمير بيروت ويسمى (أسامة) يتصدى لهم بواسطة الاسطول ،
واشتكى الصليبيون للملك العادل بدمشق ، وللملك العزيز عثمان فى مصر ،
ولكن دون جدوى . عندئذ أرسل صليبيو الشام يستنجدون بأمراء الغرب
الأوربي ، فأمدهم بأعداد وفيرة من الفرسان والجنود ، وكان معظمهم من
الألمان (٢) .

تكاثر عدد الصليبيين فى المدن الساحلية بالشام ، وكثرت اعتداءاتهم
على أطراف المدن الإسلامية ، على الرغم من وجود الهدنة ، فلما وصلت
أخبارهم الى العادل أرسل يطلب الجنود من الملك العزيز عثمان فى مصر ،
كما أرسل الى ديار الجزيرة والموصل ، فوصلت اليه العساكر ، واجتمعت
عليه فى عين جالوت حيث عسكرت شهر رمضان وجزء من شوال (٥٩٣ هـ /
١١٩٧ م) .

تحركت عساكر الصليبيين لقتال المسلمين ، فالتقى الجمعان عند تل
العجول بالقرب من غزة ، وقتل المسلمون منهم جموعا ، ورجعوا بغنائم
كثيرة (٣) ، عندئذ أرسل ملك الصليبيين هنرى دى شامبانى الى ملك الألمان
هنرى السادس يستعجل قدومه لنجدة الصليبيين فى الشام . ولم ينتظر
الملك العادل فأسرع بالهجوم على مدينة يافا ودخلها عنوة ، فقتل من بها
من أعيان الفرنج ، وغنم المسلمون الكثير وامتلات أيديهم بالسبايا (٤) وأسروا

(١) فيما نقله أبو شامة (ج ٢ ص ٢٣٣) عن العماد الكاتب فى هذا
المقام قوله : « فان المسلمين اشتغل بعضهم ببعض ولها عن كل سنة
وفرض » .

(٢) ابن الأثير : ج ١٢ ص ١٢٦ .

(٣) ابن واصل : ج ٣ ص ٧٤ .

(٤) أبو شامة : ج ٢ ص ٢٣٣ .

سبعة آلاف نفس ما بين ذكر وأنثى (١) . ولم يتمكن الصليبيون من نجدة زملائهم في يافا ، بسبب وفاة ملكهم هنرى دى شامبانى على أثر سقوطه من مكان مرتفع في عكا (٢) (١٠ سبتمبر ١١٩٧ م) .

تولى عمورى الثانى دى لوز جنان (٢) ملك قبرص عرش المملكة الصليبية ، وتزوج بامرلة هنرى دى شامبانى (ايزابيل) وتوحدت قبرص مع مملكة الصليبيين في الشام .

بدأ عمورى الثانى بالهجوم على بيروت ، وأخذها الصليبيون في ذى الحجة سنة ٥٩٣هـ / أكتوبر ١١٩٧م تعويضا لهم عن يافا بدون أى قتال (فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة) بعد أن هزب أميرها أسامة (٤) وذهب الى مصر ولذلك هجاه الشاعر بقوله :

سلم الحصن ما عليك ملامة

ما يلام الذى يروم السلامة

فعطاء الحصون من غير حرب

سنة سنهها ببيروت أسامة

وقد ترتب على ضياع بيروت أن فقد الاسطول الاسلامى ثغرا كان قاعدة له يتزود منها بما يحتاج اليه من ميرة وذخائر وامدادات . وأحكم الصليبيون سيطرتهم على سواحل الشام فيما بين عكا وطرابلس . وتجراً بوهيمند الثالث أمير أنطاكية الصليبية وأبدى رغبته في الاستيلاء على اللاذقية وجبله .

(١) المقربرى : ج ١ ق ١ ص ١٧٠ .

(٢) ابن الاثير : نفسه ص ١٢٧ .

(٣) هو شقيق جاي دى لوزجنان ، وقد ذكره ابن الاثير (ج ١٢ ص ١٢٨) بقوله : وهو أخو الملك الذى أسر بحطين .

(٤) أبو شامة : ج ٢ ص ٢٣٣ ويذكر ابن الاثير (ص ١٢٧) ان أسامة منع عساكر المسلمين من تخريب بيروت وتكفل بحفظها من الفرنج .

ولكن محاولته هذه فشلت لأن الملك الظاهر صاحب حلب كان قد اهتم بهاتين المدينتين وقام بتحصينهما (١) .

سمع الملك العادل بأن الصليبيين يعدون أنفسهم للتحرك نحو صيدا ، فأرسل بعضا من جنده خربوا المدينة وما بقى من أسوارها لأن صلاح الدين كان قد خرب جزءا منها (٢) ، حتى لا يفيد الصليبيون منها بشيء ، فلمّا وصلت هذه الأخبار للصليبيين رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا عليها ، ثم غادروها وهاجموا حصن تبنين في أول صفر ٥٩٤هـ / نوفمبر ١١٩٧م ، وضربوا عليه الحصار .

وأرسل الملك العادل الى العزيز عثمان يستعجله في الخروج اليه ، فسار العزيز عثمان مجدا اليه مع عساكره (٣) . وكان أهل الحصن صامدين في مقاومتهم ضد هجمات جنود الملك العادل المشرس علىهم . ووصل العزيز عثمان بجنوده الى عسقلان في ربيع الأول ٥٩٤هـ / ١١٩٨م .

فلما وصلت هذه الاخبار الى الصليبيين . ورأوا اجتماع كلمة المسلمين على التصدي لهم ، أثروا الانسحاب الى صور ، ومنها الى عكا ، وكانت فرصة للقوات الاسلامية التي هاجمت مؤخرة الصليبيين وأخذوا الكثير منهم أسرى ، وغنموا أشياء كثيرة منهم (٤) . وأمر الملك العزيز عثمان بإرسال المؤن الى تبنين ، وإصلاح ما تهدم من أسوارها ، وأبقى بجنوده عند عمه الملك العادل ليستعين بهم ، وجعل اليه أمر الحرب وعقد الصلح وعاد الى مصر (٥) .

ويرجع السبب في عودته الى مصر الى أن بعضا من الامراء وعلى

-
- (١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٢٢ .
 - (٢) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٢٧ .
 - (٣) ابن واصل : ج ٣ ص ٧٥ وما بعدها .
 - (٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ٩٣ وما بعدها .
 - (٥) ابن الاثير : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

رأسهم ميمون القصرى وابن المشطوب تأمروا على قتله وفخر الدين جركس مدبر دولته ، ويذكر ابن الاثير (١) ان ذلك بتحريض من العادل . فلما سمع العزيز عثمان بذلك عاد الى مصر .

واصل الملك العادل اغاراته وهجماته على الصليبيين حتى سئموا وضجروا فطلبوا الصلح ، وترددت الرسل بينه وبينهم في شعبان ٥٩٤هـ / يونيه ١١٩٨م ، واتفقوا على الهدنة لمدة ثلاث سنوات واشترط الصليبيون على أن تكون بيروت بأيديهم وهكذا استغل الصليبيون انقسام البيت الايوبى والخلاف الواقع بين ورثة صلاح الدين (أمراء البلدان الاسلامية) وتغليبهم المصالح الشخصية والمنافع الذاتية على مصلحة الاسلام ، ومنفعة الاوطان ، وكذلك الظروف السيئة التى آلت بالمسلمين ، وبدأوا يملون شروطهم . وقد أشار أبو شامة الى هذا الوضع بقوله : « اختلت الأحوال وتغيرت بعد موت السلطان » وقوله : « فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ، ولها عن كل سنة وفرض ، فتدافعت الى عكا سفنهم - أى الفرنجة - وتدفق مزنيهم ، وامتلات بهم فى الساحل مدنيهم » (٢) .

عاد الملك العادل الى دمشق ، ومنها سار الى ماردين فى شهر رمضان وهاجم أهلها وقتلهم ، وضرب على المدينة حصارا محكما ، وقطع عنهم الميرة ، وعاشت جنوده فسادا فى أرباضها (أطرافها) ، ومع ذلك لم يتمكن من فتحها ، فرحل عنها فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م (٣) .

وفاة الملك العزيز عثمان :

فى أواخر شهر المحرم سنة ٥٩٥هـ / نوفمبر ١١٩٨م توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب ديار مصر (٤) ، وكان سبب موته انه رأى

-
- (١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٢٩ .
 - (٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢٣٣ .
 - (٣) ابن الاثير : نفسه ، ص ١٣٨ .
 - (٤) ابن واصل : ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها .

ذئبا وهو يصطاد بالفيوم ، فركض بفرسه ورائه ، فسقط من فوق فرسه ، وأصيب بالحمى ، فعاد الى القاهرة الى أن مات بها بعد أيام ، ودفن بجوار مقبرة الامام الشافعى ، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وشهور ، ومدة حكمه لمصر أقل من ست سنين بست وثلاثين يوما (١) .

ومن المعروف ان العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، فهو يمثل أول حاكم من البيت الايوبى يولد بمصر ويتولى حكمها ، وقد أشارت المراجع الى استقامة العزيز عثمان ، وعدالة حكمه فى الرعية ، حتى وصفه ابن خلكان وغيره من المعاصرين لعهدده بأنه كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا الى الناس . . « كان ملكا كريما عادلا رحيمًا ، حسن الأخلاق ، شجاعا ، سريع الانقياد ، مفرط السخاء ، سمع الحديث من السلفى ، وابن عوف ، وابن برى ، . . كانت الرعية تحبه محبة كثيرة » (٢) .

ومع ان مصر بقيت فى عهد العزيز عثمان ، كما كانت على عهد أبيه صلاح الدين الايوبى ، من حيث كونها قلب الامة العربية الاسلامية ، الا انها تأثرت فى أحوالها الاقتصادية الى حد كبير لعدة أسباب من أهمها :

١ - انخفاض فيضان النيل سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٤ وما ترتب على ذلك من نقص فى الغلال ، وكثر الزحام فى الاسواق طلبا للخبز ولكنه كان قليلا .

٢ - فشلت الأوبئة والأمراض ، فهلكت المواشى ، وكثرت الأموات طرحى على الطرقات ، وزاد عددهم فى القاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس ،

(١) المقرئزى : ج ١ ق ١ ص ١٧٤ ، ولكنه يذكر ان العزيز عثمان كان يصطاد فى الاسكندرية ، وما أثبتناه عن ابن الاثير (ج ١٢ ص ١٤٠) بينما يذكر أبو شامة (ج ٢ ص ٢٣٤) انه كان يتصيد فى الفيوم ، وقد أورد بلوش عديدا من أسباب الوفاة

B'ochet; E. : Hist. Egyp. Mwkri. p. 249.

(٢) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ١٧٤ ، وقد ذكر Blochet, op. cit., p. 250. تحليلًا لطيفا لبعض صفات العزيز عثمان .

وبقى بمصر من لم يوجد من يقوم على كفنه ودفنه ، وكان أكثرهم يموت
جوعا «(١) .

ويبدو لنا ان ما حدث من نزاع في البيت الايوى بين العزيز عثمان
وأخيه الافضل على ، ومكائد ودسائس عمهما الملك العادل التى زادت من
شقة الخلاف بينهما لصالحه الذاتى ، شغلت العزيز عثمان عن وضع حد
لتلك الضائقة الاقتصادية ولم تساعد على تفادى هذه الكارثة التى أثرت
تأثيرا كبيرا فى حياة المصريين اجتماعيا واقتصاديا .

اجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا أمر الملك لناصر الدين محمد بن
العزيز عثمان ولقبوه بالملك المنصور ، وكان عمره لا يتجاوز العشر سنوات ،
وحلف عامة الشعب له ، ولكن مجموعة من الأمراء الاسدية وعلى رأسهم
الامير سيف الدين يازكج عارضوا ذلك ، واحتجوا بصغر سن الملك المنصور
محمد ، وعدم قدرته على تحمل مسئولية الدولة ، وطالبوا بوصى يقوم على
تربيته وتدير شئون الدولة ودواوينها ، وينظر فى القوانين وتنفيذها ، وتم
الاتفاق على استدعاء الملك الافضل من صرخد(٢) . بعد أن أشار بذلك
القاضى الفاضل عبد الرحيم ، ليكون الفاضل وصيا على الملك المنصور
محمد .

خرج الملك الافضل على من صرخد متنكرا فى تسعة عشر رجلا من
أتباعه فى ليلة ٢٨ من صفر سنة ٦٩٥هـ / ١١٩٨م (٢) حتى لا يقف الملك العادل
على أخباره لان نوابه كانوا يراقبون الطرق فى انتظار حضوره الى مصر
ليمتلكها .

أسرع الافضل فى مسيره فوصل الى بلبيس فى ٥ ربيع الاول واستقبله

(١) المقرئى : نفسه ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن واصل : ج ٣ ص ٨٧ - ٨٩ ، المقرئى : ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٤٠ - ١٤١ ، وأبو شامة : ج ٢

ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

أخوته والأعيان ومجموعة من الأمراء المصريين ، ودخل معهم القاهرة بعد يومين فأخذ يرتب أمورها ، واعتمد في ذلك على سيف الدين (١) يازكج كما كان العزيز عثمان يعتمد عليه . وكان فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية قد خرج من بلبيس لسوء ظن ألم به ، وذهب الى بيت المقدس فتغلب عليه وتملكه ، وانضم اليه جماعة من الامراء الصلاحية ، فقويت بذلك شوكتهم واتفقوا على مناهضة الافضل ، وبعثوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبون منه الحضور اليهم ليدخلوا معه مصر ويتملكها ، ولكنه لم يفعل لأن ماردين أوشكت على السقوط في يديه .

الافضل يحاول الاستيلاء على دمشق :

بعدما استقرت الامور في مصر للملك الافضل شجعه بعض الامراء على محاربة عمه الملك العادل واستعادة دمشق منه ، ووصلته رسل أخيه الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه (الثاني) ابن محمد - صاحب حمص - يحثانه على الخروج الى دمشق ، ويطلبان اليه انتهاز فرصة غياب العادل عنها (٢) ، وقدموا له المال والرجال . فخرج من مصر في منتصف جمادى الاولى ، وعسكر في ظاهر القاهرة حتى ٣ رجب ثم وصل الى العباسية وبقي بها خمسة أيام (٣) ثم أخذ يسير على مهل فوصل قريبا من دمشق في ١٣ شعبان ونزل على جسر الخشب على بعد فرسخ ونصف من دمشق .

كانت تحركات الملك الافضل وصلت الى مسامع الملك العادل وهو محاصر ماردين فخلف ولده الملك الكامل محمدا نائبا عنه في حصار ماردين ، وخرج مسرعا فوصل الى دمشق ودخلها قبل وصول الافضل بيومين (٤) ،

(١) ابن واصل : نفسه ص ٩٣ .

(٢) أبو شامة : ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) المقرئزي : ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٤٣ ، والمقرئزي : ج ١ ص ١٧٩ .

وكذلك أبو شامة : ج ٢ ص ٢٣٥ حيث ذكر تاريخ ١١ شعبان .

ولو ان الافضل لم يتباطأ ويتمهل لدخل دمشق وامتلكها قبل وصول العادل ، وهكذا تلعب الظروف دورها لمن يحسن استغلالها ، كما يكون لسرعة تحركات القائد واتخاذ القرارات الحاسمة وتنفيذها بدون تهاون أو تباطؤ دور بارز في كسب الوقت والنجاح والانتصار فيما هو مقدم عليه من أمور الحرب أو غيرها من أمور الدولة .

تمكنت مجموعة من ٥٠ فارسا من اتباع الملك الافضل من دخول دمشق عن طريق التواطىء مع جنوده السابقين الذين يسكنون بجوار باب السلامة حيث فتحوا لهم هذا الباب ، فدخلوا ونادوا بشعار الافضل (يا أفضل يا منصور) فصاحت العامة معهم بهذا النداء ، واستسلم الجند ، ونزلوا عن الاسوار ، وبلغ الخبر الى الملك العادل ، وكاد يستسلم لولا انه تماسك .

عندما وصلت هذه المجموعة الى باب البريد وراهم الملك العادل ووقف على قلة عددهم ، وعدم امكان امدادهم ، أمر جنوده وفرسانه بمهاجمتهم فأخرجوهم من المدينة (١) ، وأمر العادل بقفل الابواب وترتيب الجنود عليها . وبلغت هذه الاخبار الى الملك الافضل فنقل معسكره بعيدا عن باب الحديد ، ونزل بالميدان الأخضر ، فضعت نفوس جنوده ، خاصة بعد أن انضم بعض الفرسان منهم الى الملك العادل فقويت نفسه بذلك ، وأخذ يرسل الى بعض أمراء الافضل ويذكرهم بما كان بينه وبينهم من مودة وصداقة ، ويغريهم بالأموال ومن هؤلاء الامير عز الدين درباس المهراني والامير علم الدين كرجي وغيرهما ، وكانت نتيجة هذا الاغراء أن اقنع هؤلاء الامراء الملك الافضل بالتوقف عن الهجوم على دمشق حتى يصل الملك الظاهر - صاحب حلب - والامير أسد الدين شيركوه (الثاني) - صاحب حمص - بعساكرهما . فلما وصلا اجتمعا على الافضل بعساكرهما ، وهاجموا العادل

وحاصروا دمشق ، وضيقوا على أهلها الخناق حتى غلت الأقوات (١) ،
وشدد الأفضل ومن معه الزحف على دمشق حتى كادت تسقط في أيديهم نولا
ان خلافا وقع بين الاخوين بسبب مملوك كان الظاهر شغف به فتغيرت
موازين الحرب لصالح العادل خاصة وقد وصلته النجدة من القدس (٢) نكاية
في الأفضل من الامراء الصلاحية ومقدمهم فخر الدين جهاركس الذي ناصب
الأفضل العداء من قبل ، كما انه استدعى ابنه الكامل محمد وجميع عساكره
التي كانت على ماردين ، فوصل الكامل في صفر سنة ٥٩٦هـ ومعه ٤٠٠
الف دينار أخذها من نائب قلعة جعبر ، كما لعبت مكائد العادل ودسيسته
بين الاخوين دورا في الخلاف بينهما ، ثم ان شدة برد الشتاء في هذه السنة
(٥٩٦هـ / ١١٩٩م) قد أثرت في الجنود ، فاتفق الامراء على أن يعود كل
منهم بعساكره الى بلده (٣) ، فقوى بذلك الملك العادل قوة عظيمة .

الملك العادل وتوحيد البيت الايوبي :

وصل الملك الأفضل الى مصر ونزل على بلبيس ، فاقام بها ، وكان
الملك العادل يعد نفسه منذ أن ضرب الحصار على دمشق لانهاء هذا التفكك
في البيت الايوبي وأن يأخذ مصر ، وقد واثته الفرصة بعد فشل المحاولة
التي قام بها الملك الأفضل للاستيلاء على دمشق ورحيله عنها ، فخرج في
أعقاب الأفضل مع عساكره وأمرأه المماليك الصلاحية الذين انضموا اليه
خلال النزاع مع الأفضل ، وكانوا قد أخذوا عليه عهدا بأن يعيد ملك مصر
الى الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ، وأن يكون هو الوصى عليه ،
والمدير لشئون ملكه حتى يكبر (٤) .

(١) يذكر ابن الاثير (ج ١٢ ص ١٤٤) ان الملك الظاهر هو الذي منع
الأفضل والعساكر من مهاجمة دمشق مكرًا بأخيه الأفضل وحسداً له . ونحن
لا نميل الى هذا الرأي بدليل خروج الظاهر بعسكره ووصوله الى دمشق
ولأن علاقات الظاهر بعمه العادل لم تكن طيبة ، وللإجماع الذي أورده
المؤرخون من مهاجمة الأفضل والظاهر لدمشق .

(٢) المقرئزي : ج ١ ص ١٨٠ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ٩٦ .

(٤) ابن الاثير : المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .

وصل الملك العادل وعساكره الى مصر ، والتقى بالافضل وعساكره في مكان يقال له السائح بالقرب من بلبيس ، ودارت معركة سريعة انهزم فيها عسكر الافضل وولوا منهزمين لا يلوون على شيء ، حتى دخلوا القاهرة ، وتبعهم الملك العادل وعساكره فنزل على بركة الجب بظاهر المدينة ، وأرسل الى الملك الافضل يقول له : « أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها اعظم معاقل الاسلام ، ولا تحوجنى الى أخذها بالسيف ، اذهب الى صرخد وأنت آمن على نفسك » (١) . فطلب الافضل أن يعوضه عنها بدمشق ، فرفض العادل ، فأخذ الافضل يطلب مدينة بعد أخرى والملك العادل مصر على الرفض ، فلم يجد الافضل بدا من التسليم لتخاذل أصحابه وجنوده عنه ، وتسلم الملك العادل القاهرة ودخلها يوم السبت ١٨ ربيع الآخر ٥٩٦ هـ / فبراير ١٢٠٠ م ، وفي نفس اليوم خرج الافضل منها مهزوما بعد أن حكم مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوما ، فاقام في سميساط (٢) .

استقرت الامور للملك العادل في القاهرة ، وتظاهر بأنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ، وأنه مدبر ملكه ، وحلف له الامراء على مساعدته حتى يكبر المنصور ويستقل بأمور مصر ، ولكن الملك العادل كان عازما على تغيير كل ذلك . فقد أحضر جماعة من الامراء ممن يميلون اليه وقال لهم :

« انه قبيح بى أن أكون أتابك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب . وانه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير انى تركت ذلك اكراما لأخى ، ورعاية لحقه ،

(١) ابن واصل : ج ٣ ص ١٠٨ وما بعدها ، والمقرئزى ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) إحدى المدن التى أقطعها العادل له ، وتقع في طرف بلاد الروم ، على الشاطئ الغربى لنهر الفرات (ياقوت : المعجم ، ج ٣ ص ١٥١) راجع المقرئزى : ج ١ ص ١٨٢ وقد ذكر ابن الاثير : (ج ١٢ ص ١٥٦) انه نزل الى مياقارقين وحانى وجبل جور .

فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى ، فسست الامر الى آخره ٠٠٠ » (١) وطلب منهم أن يكون حكم مصر له ، فحلفوا له ووافقوه على رأيه ٠ ونقضوا ما كان منهم قبل ذلك ، وخلعوا الملك الصبى المنصور محمد يوم الخميس ٢١ شوال ٥٩٦هـ / أغسطس ١٢٠٠م ، وأقيمت الخطبة للملك العادل فى اليوم التالى ، ولم تدم سلطنة الملك المنصور الا سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما ٠

من هذا النص نرى أن الملك العادل لجأ الى تقرير مبدأ خطير يمس نظام الحكم الاساسى فى الدولة لكى يبرر ما أقدم عليه لخلع الملك المنصور محمد حينما خاطب الامراء بقوله : « انه قبيح بى أن أكون أتابك صبى صغير مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالارث وانما هو لمن غلب » ٠ فكان من الممكن أن يفهم قول العادل على انه مناداة بمبدأ جديد يعارض به نظام الحكم الوراثى لو أنه كان يعنى ما يقول حقا ، ولكننا نلاحظ انه لم يستشهد بهذا الرأى الا لخدمة مصالحه الخاصة ، بدليل انه جعل الحكم من بعده وراثيا فى أبنائه ، بل لقد ظل الحكم فى مصر بوجه خاص وهى اهم اقسام الدولة فى سلالة العادل حتى نهاية هذه الدولة ٠

أخذت الامور تستقر للملك العادل فى مصر ، وأمر بتعميم الخطبة له فى مصر والشام وحران والرها وميافارقين ، وضربت السكة باسمه ، وتلقب بالسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وأرسل الى ولده الكامل محمد يستدعيه فحضر الى القاهرة ونصبه نائبا عنه بالديار المصرية ، وأقطع أعمال الشرقية التى كان أقطعها صلاح الدين الايوبى الى العادل نفسه ، وجعله (أى الكامل) ولى عهده ، وأقسم الامراء له يمين الولاء ٠ كما أناب العادل عنه بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وجعل

(١) راجع النص كاملا عند المقرئى : ج ١ ص ١٨٣ ، وابن واصل : ج ٣ ص ١١٠ وما بعدها ٠

ابنه الفائز نائباً عنه في بلاد المشرق ، وأقر ابن أخيه الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين على حلب ، كما أقر الملك المنصور بن تقي الدين عمر على حماه (١) .

ولكى يضمن استمرار الأمور في مصر أخرج الملك الصبي المنصور بن العزيز عثمان ومعه أخوته وأخوانه ووالدته إلى الرها ، فهربوا منها إلى حلب ماعدا الملك المنصور فظل في الرها (٢) إلى أن مات سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٤ م .

ومع ذلك لم تهدأ بذور الفتنة ، فقد تحرك بعض الأمراء من أصحاب الميول إلى الأفضل ، ممن يرفضون سلطان الملك العادل ، وخبثت نياتهم في طاعته ، فراسلوا الملك الظاهر بحلب ، والملك الأفضل بصرخد ، وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم ، واتفقوا على مهاجمة دمشق وانتزاعها من يد السلطان العادل . وصلت هذه الأخبار إلى العادل فخرج بعسكره من مصر ووصل إلى نابلس حيث أرسل بمجموعة من جنوده إلى دمشق ، فدخلوها قبل أن يصل الأفضل والظاهر إليها .

هاجمت جنود الأفضل والظاهر دمشق ، وحاصروها وضايقوا أهلها وشددوا هجماتهم عليهم ، وتكررت هذه الهجمات حتى أوشكت المدينة على السقوط في أيديهم . وتغلبت روح الطمع والأنانية عند الملك الظاهر فأرسل إلى أخيه الملك الأفضل يقول له : « إذا فتحت دمشق تسلمتها أنا ، وسيرت العساكر معك إلى مصر ليفتحوها لك » وحاول الأفضل أن يحرك عاطفة أخيه كي يترك دمشق ليسكنها أفراد البيت الأيوبي المشردون والذين أخرجوا من مصر ولكن دون جدوى ، ولجأ السلطان العادل إلى الوقيعة بين الأخوين كعادته فدب النزاع بينهما وتمكن الخلاف منهما ، لدرجة أن الأفضل أذن

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ٦٤٦-٦٤٧ ومعه (١) .
(٢) يذكر أبو الفداء : (نفس المرجع ص ٨٢٤) أن المنصور أقام عند عمه الملك الظاهر في حلب .

لجنوده بالذهاب الى السلطان العادل والدخول في خدمته ، ورحل كل من الظاهر والافضل عن دمشق في أول المحرم سنة ٥٩٨هـ / أكتوبر ١٢٠١م ، ودخلا في طاعة السلطان العادل ، الذي أصبح له ملك مصر ودمشق ، والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو في يده ويده أولاده من بلدان الشرق (١) .

لم تكن حالة مصر السياسية فقط على هذه الصورة السيئة ، بل تردت حالتها الاقتصادية الى أقصى منازل السوء ، فقد تعذرت الأقوات ، وتزايدت الاسعار ، وعظم الغلاء ، حتى أكل الناس الميتات ، واكل بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء عظيم ، فقد بلغ عدد من كفنهم الملك العادل ٢٢٠ ألف شخص في مدة قصيرة ، ولجأ الناس الى قتل الاطفال وذبحهم واكلهم ، وخرج من مصر أعداد كثيرة من الأسرات متجهين الى الشام ، ولكنهم ماتوا من الجوع في الطرقات (٢) .

ولكن على الرغم من هذه المآسى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فقد انتظمت البلاد في حكم الملك العادل ، واستقرت أمورها في يده ، وعادت وحدة الدولة الايوبية اليه ، وأعيدت الحياة الى الجبهة الاسلامية في منطقة الشرق الأدنى ، وأخذ يعد نفسه لقيادة الامة الاسلامية في جهادها ضد الصليبيين .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٩١ .
(٢) المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٨٨-١٩١ .

1

الفصل الثامن

السلطان الملك العادل وجهاده ضد الصليبيين

راقب الصليبيون ما يحدث في الدولة الايوبية بحرص ، وترقبوا فرصة تواتيهم ليستعيدوا بيت المقدس الذى استرده صلاح الدين الايوبي منهم ، لأنهم لم ولن ينسوا لصلاح الدين هذا العمل الذى حطم به كبريائهم ، وأذل أطماعهم في بلاد المسلمين . ولذلك تكررت محاولاتهم وهجماتهم على القدس الشريف وغيره من المدن الاسلامية القريبة منه لاستردادها منتهزين فترة الصراع بين أبناء البيت الايوبي ، وما أصاب دولة بنى أيوب من ضعف .

ففى أواخر سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٤م بدأ الصليبيون يفسدون من الغرب الأوربي ومن المدن الصليبية الباقية في المشرق الاسلامى الى عكا ، وقد بلغ عددهم ٧٠ ألفا ، وكان غرضهم عقد صلح مع الأرمن والتكتل سويا لقتال المسلمين لاسترجاع بيت المقدس ، وعندما وصلت هذه الاخبار الى السلطان العادل خرج اليهم من دمشق سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ، وطلب النجدة من سائر البلاد الاسلامية ، ونزل بعساكره قريبا من عكا ، وعسكر الصليبيون بمرج عكا ، وأغاروا على كفر كنتا (١) وأسروا من كانوا به وقتلوا ونهبوا وسبوا (٢) ، والعادل فى عسكره لا يحرك ساكنا .

ويبدو ان العادل امتنع عن الدخول فى حرب مع الصليبيين فى هذا الوقت لانه لم يمض على انتهاء الصراع الذى كان قائما بينه وبين أبناء صلاح الدين سوى وقت قصير . ولم يكن يأمن جانبهم ، وكان يخشى من مؤيديهم واتباعهم فربما وثبوا على ملكه أثناء حربه ضد الصليبيين ، كما انه كان يخاف تدفق الامدادات من مؤن ورجال وعتاد على هؤلاء الصليبيين من الغرب الاوربي ان هو دخل معهم فى حرب ، ولذلك أثر التريث وتمهل

(١) بلد بين طبرية والناصرية - ياقوت : ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٩٤-١٩٥ .

حتى تقرر الصلح وعقدت الهدنة بينه وبين الصليبيين سنة ٦٠١هـ / سبتمبر ١٢٠٤م لمدة محددة ، واشترط الصليبيون أن تكون يافا لهم ، مع مناصفات جميع دخل اللد والزملة (١) ووافق الملك العادل على ذلك ، ثم تفرقت العساكر ، وعاد العادل الى القاهرة واخذ يرتب أمورها ، بينما استمر ابنه الكامل بقلعة الجبل .

ويبدو أن سياسة الملك العادل تجاه الصليبيين كانت لينة الى حد الضعف وخاصة في بداية سلطنته ، فقد خرج اسطول للصليبيين في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م واتجه الى مصر ، وعبر النيل من جهة رشيد ، فوصل الى (فوه) وأقام بها خمسة أيام يذهبون ويسلبون ، وعساكر مصر تقف تجاههم في البر ، لا يستطيعون الوصول اليهم ، لعدم وجود الاسطول العادلي (٢) .

٩ كذلك قام الصليبيون سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م بمناوشات ضد المدن الاسلامية فأغاروا على حمص ، فقتلوا وأسروا من اهلها ، فخرج العادل بجيش من القاهرة وعسكر على بركة الجب ، ولكنه عاد للقاهرة ثانية ، ويبدو أن الصليبيين كانوا قد انسحبوا من حمص بعد الاغارة ولم يمكثوا فيها .

وفي رمضان من نفس العام هاجم صليبيو طرابلس وحصن الاكراد مدينة حماة ، طمعا فيها ، وكان صاحبها الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر شاهنشاه ، الذى خرج في قلة من جنوده ، وزحف الصليبيون الى مكان قريب من باب المدينة الغربى يعرف باسم (الرقيطا) ، وهزموا تقى الدين ومن معه (٣) ، فخرج الاهالى لقتالهم ، فقتل الصليبيون منهم جماعة ثم عادوا .

(١) ابن واصل : ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٩٥ .

لم ينته طمع الصليبيين ولم يقف عند حد ، فكلما هاجموا مدينة ولم يتمكنوا من أخذها عنوة عقدوا هدنة مؤقتة ومشروطة مع أميرها ، واستفادوا من شروط هذه الهدنة ، وعلى ذلك خرج الصليبيون من طرابلس ، وأغاروا على جبلة واللاذقية في ذى القعدة سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م ، ووضعوا كميناً لأهلها ، واستعملوا الخداع في حربهم ، فلما خرج عساكر جبلة انقض الكمين عليهم ، وقتل الصليبيون منهم أعداداً كثيرة ، وأسروا أعداداً أخرى ، كما سبوا وغنموا (١) .

ويبدو لنا أن الصليبيين قاموا بهذه الاغارات للحصول على المغانم ليتقووا بها ، وجسا لنبض القوات الاسلامية - كما يقولون في التكتيك العسكرى - وللوقوف على أماكن الضعف والقوة التى يمكن لها مقاومة الصليبيين ، ومن ناحية ثانية كانت هذه الاغارات نوعاً من الحرب النفسية لانزال الرعب والخوف في نفوس المسلمين ، ولاشاعة القلق والاضطراب بين عساكرهم وذلك تمهيداً لمجىء حملة صليبية يمكنها استرداد بيت المقدس .

التفكير في الحملة الصليبية الرابعة :

فكرة ارسال هذه الحملة نبتت في قلعة تيبالد كونت شامباني في نوفمبر سنة ١١٩٩م (٥٩٦ هـ) عندما دار حديث بينه وبين بعض أصدقائه ، انتهى باستدعاء فولك أسقف نيللى (٢) ، وهو من دعاة الحروب الصليبية ، ليتحدث الى هؤلاء الضيوف . وتمكن فولك بفصاحته أن يثير حماس الحاضرين ، الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وبعثوا برسول

(١) ابن واصل : نفسه ، ص ١٦٦ وما بعدها ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) يعتبر فولك نيللى أكبر مبشر للبابا في فرنسا ، واشتهر بأنه لا يخشى الأمراء ، ومن الأدلة على ذلك أنه طلب من ريتشارد قلب الأسد أن ينبذ كبريائه ، ونهمه وشهوته ، رنسيما : ج ٣ ص ١٩٩ .

Villehardouin : op. cit. PP. 2-6

الى البابا انوسنت الثالث ليعرض عليه مشروع الحملة ، وليعطى القرار
الصالح السليم (١) .

كان البابا انوسنت الثالث قد أعرب علنا عن رغبته فى الدعوة الى
حرب صليبية جديدة ، فكتب فى سنة ١١٩٩م الى ايمار بطريرك بيت المقدس
يطلب منه تقريراً مسهباً عن مملكة الفرنج (٢) وعن احوال المسلمين وقوتهم
فى بلاد الشام ومصر . ولذلك أبدى ارتياحه وترحيبه الحار لمشروع الحملة
التي اقترحها كونت شامبانى . وتزعم بنفسه الدعوة لقيام هذه الحملة
الصليبية الرابعة .

وكان من أهم الأسباب التي دعت البابا انوسنت الثالث لقيام هذه
الحملة ، رغبته ورغبة الاوربيين فى محو العار الذي لحق بهم فى الحرب
الصليبية الثالثة على يد صلاح الدين الايوبي ، وذلك باسترداد بيت المقدس
من أيدي المسلمين . ولذلك حشدت البابوية كل امكاناتها لتوجيه الصليبيين
الى مصر لاحتلالها ، لانها أكبر عدو للصليبيين ، ولانها مركز الثقل فى
العالم العربى الاسلامى ، ولن يتمكن الصليبيون من استرداد بيت المقدس
طالما ظلت مصر بعيدة عن أيديهم .

ولكى يمهّد لنجاح هذه الحملة أصدر مرسوماً يحرم على التجار
الاوربيين التعامل مع المسلمين ، وحرّم عليهم تزويد المسلمين بكل المواد
التي تعينهم على قتال المسيحيين وخصوصاً مواد الحديد والخشب وما يستعان
به فى الحروب (٣) .

قيام الحملة الصليبية الرابعة ونتائجها :

استعادت البابوية سلطتها فى جنوب ايطاليا ، بعد ما أدى اليه تشابك

(١) رنسمان : ج٣ ص ١٩٥ .

Villehardouin; I.a Conqu. Constan. vol. I, p.p. 2-6

Rohricht. op. cit. pp. 202-203. (٢)

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ٦ .

المصالح من نزع بين ملوك أوروبا العظام ، وأخذ انوسنت الثالث يمهد لهذه الحملة ، فبدأ بأجراء المفاوضات مع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية (١) وأعطى تعليماته الى فولك أن يطوف بالبلاد ، ويحث أهل الريف على الانخراط فى الحرب المقدسة وحمل السلاح لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين ، واحتلال مصر . انضم عدد كبير من البارونات للاشتراك فى هذه الحملة بغرض امتلاك أراضى جديدة بعيدة جدا عن أوروبا وليس بدافع من الدين . قبل جميع البارونات أن يتولى تيبالد كونت شامباني قيادة الحملة الصليبية ، ولكنه مات فجأة فى مارس سنة ١٢٠١ فتولى بونيفاس ماركيز مونترفرات قيادتها سنة ١٢٠١م/٥٩٨هـ (٢) .

واجه بونيفاس أول مشكلة من المشاكل التى واجهت الحملة وهى عدم وجود سفن عند أمراء الحملة من الصليبيين ، فاتفقوا على أن ينوب عنهم جفرى هاردوين فى الاتفاق على تأجير سفن لنقل جنود الحملة الى سواحل الشام (٣) . وسافر جفرى الى جنوه وفاوض المسئولين فيها لمساعدتهم فى نقل ٤٥٠٠ فارس بمعداتهم وحوالى ٣٠ ألف راجل بأسلحتهم وآلاتهم ، ولكن الجنوبيين أبدوا أسفهم لعدم قدرتهم . فتوجه جفرى الى البندقية وخاطب حاكمها الدوق هنرى داندلو الذى استشار حاشيته وقبل ذلك ، وطلب مائة ألف مارك ايجارا للسفن ، ثم شرط عليهم أن يمضى معهم بنصف أهل البندقية القادرين على حمل السلاح ، وأن يكون لهم النصف فى جميع الغنائم ، وسوف يكون لأهل البندقية مراكبهم الخاصة بهم (خمسين غرابا) يتولى البنادقة الاتفاق عليها . وسوف يتم نقل جنود الحملة فى مدى عام من اليوم الذى نحدده الى أى بلد شئتم (٤) .

(١) رنسيमान : ج ٣ ص ١٩٩ .

(٢) كلارى : نفسه ، ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) رنسيमान : نفسه ص ٢٠١ .

(٤) كلارى : نفسه (ص ٤٠ - ٤٢) ولكنه بالغ فى عدد الجنود

فجعلهم مائة ألف وما أثبتناه هنا عن رنسيमान (ج ٣ ص ٢٠٥) .

تم الاتفاق بين الطرفين على تخفيض المبلغ الى ٨٥ ألف مارك فضية كولونية ، وأقسم دوق البندقية وجفرى هاردوين على تنفيذ هذه الاتفاقية التى عقدت بينهما فى يونية ١٢٠٢م ، ثم شرع الصليبيون فى المجئ الى البندقية لى تنقلهم السفن الى المشرق ، فلما اكتملت اعدادهم وطلبوا من البندقية أن تبخر السفن بهم ، طلب الدوق داندلو المبلغ الذى اتفق عليه قبل رحيل السفن ، وعجز الصليبيون عن دفع كل المبلغ المحدد . عندئذ ظهرت بعض المصاعب والمشاكل التى أثرت فى سير الحملة من أهمها :

١ - اشتد ضجر مجموعات من الصليبيين لتأخرهم هذه المدة الطويلة فى البندقية دون الرحيل الى الأراضى المقدسة ، وخاصة عندما علموا ان وجهة الحملة هى مصر وليس بيت المقدس .

٢ - غمّل أهل البندقية على تشجيع هذا التذمر بين الصليبيين ، لان البنداقية لم يكن فى نيتهم تقديم مساعدة ما لمهاجمة مصر . نظرا للامتيازات الكثيرة والجليلة التى منحها الملك العادل للتجار الايطاليين فى مصر .

٣ - أوفد الدوق هنرى داندلو حاكم البندقية (١) سفراءه الى القاهرة فى نفس الوقت الذى كان يساوم الصليبيين حول نقل الحملة ، وتم عقد اتفاق تجارى فى ربيع سنة ١٢٠٢م/٥٩٨هـ مع نائب الملك العادل ، وقد اكد الدوق داندلو لمبعوث الملك العادل انه لن يساند أى حملة تتجه الى مصر (٢) .

استغل دوق البندقية هذه الظروف لصالح بلاده ، فعمل على توجيه

(١) يذكره ريسيمان (ج ٣ ص ٢٠٨) انريكو داندلو Anriero Dandolo
(٢) رنسيما : نفسه ، ص ٢٠٦ وقد ذكر Villhardouin (ص ٥٢ - ٥٤) بعض العيوب والمآخذ التى نجمت عن هذه الحملة ، وتشير بعض المراجع الى ان العادل أرسل الى الدوق هدايا عظيمة وألف مارك من الذهب ، وقدم الكثير من الامتيازات لتجار البندقية وانه طلب من الدوق تحويل مسير الحملة عن مصر . راجع ، شارل ديل : البندقيّة جمهورية استقراطية ، ص ٥٩ .

الحملة ضد ملك المجر لتخليص مدينة زارا عاصمة الساحل الدلماشى من يده
والتي استمرت الحروب من أجلها عشرات السنين بين جمهورية البندقية
والمجر (١) . واعلن الصليبيون في سبتمبر ١٢٠٢م قبولهم لكل ما تعرضه
البندقية عليهم ، لكى يتم نقلهم بعد ذلك الى الاراضى المقدسة .

أبحر الأسطول من البندقية فى ٨ نوفمبر ١٢٠٢م ، فوصل زارا بعد
يومين ، وهاجمها الصليبيون بعنف ، فاستسلمت بعد خمسة أيام ، واستباحها
العساكر . وبعد ثلاثة أيام وقع القتال بين البنادقة والصليبيين بسبب اقتسام
الغنائم . غير ان الأمور سويت بين الجانبين ، وقرر داندلو مع بونيفاس
قائد الحملة البقاء حتى ينتهى فصل انشاء . وفى خلال هذا الوقت اتفق
زعماء الحملة مع داندلو على توجيه الحملة الى القسطنطينية (٢) . ويذكر
البعض ان فيايب دوق سوابيا أرسل الى قائد الحملة بونيفاس عرضا محددا
من صهره الكسيوس الصغير يطلب فيه ان تتوجه الحملة الصليبية الى
القسطنطينية وتثبتته على عرش الامبراطورية ، وفى مقابل ذلك يقدم
الكسيوس بسداد ديون الحملة الى البنادقة ويمدهم بالمال والمؤن لمساعدتهم
على فتح مصر ، ويرسل معهم فرقة من الجيش البيزنطى قوامها عشرة
آلاف جندي ، ويتولى الانفاق على ٥٠٠ فارس صليبي فى الاراضى المقدسة ،
ويخضع كنيسة بيزنطة الى الكنيسة الام فى روما (٣) . وعلى الرغم من ان
البابا انوسنت الثالث كان قد أصدر قرار الحرمان لأفراد الحملة لمهاجمتهم
ملك المجر فى زارا ، الا أنه عاد وأصدر قرارا بالعفو عنهم ، بل انه ساند

(١) راجع الأسباب الشخصية التى دفعت داندلو لمهاجمة زارا فى
رنسيما ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٧ .
Bury : Comb Med - Hist pp. 415-416.

كلارى : نفسه ، ص ٥٠-٥١ .
Villichardouin; I, op. cit., pp. 76-90.

(٣) رنسمان : نفسه ، ص ٢٠٩-٢١٢ .
Duggan: The Story of the Crusades, p. 205 ff. ; Hodyson: The Early
History of venice, p. 349 ff.

الرأى بذهاب الحملة لمهاجمة القسطنطينية (١) لضم كنيستها وتوحيد العالم
المسيحي تحت سلطانه .

الحملة تبحر نحو القسطنطينية ١٢٠٣م :

وصل الكسيوس الصغير ابن الامبراطور السابق المخلوع اسحق قادما
من المانيا ورافق الحملة التى ستعيد له عرش أبيه ، وتم عقد معاهدة بينه
وبين حلفائه الصليبيين والبنادقة لتأكيد ما سبق أن عرضه بواسطة صهره
فيليب دوق سوابيا ، وفى ٢٤ يونيه ١٢٠٣م/٦٠٠هـ وصلت سفن الحملة
امام القسطنطينية (٢) .

ولم يتخذ الامبراطور الكسيوس الثالث ، الذى استولى على العرش
عن طريق مؤامرة خبيثة ضد أخيه الامبراطور السابق اسحق ، أى تدابير
لمنع وصول جنود الحملة اليه . واعتقد الصليبيون والبنادقة فيما قاله
الكسيوس الصغير من أن بيزنطة كلها سوف تهب للترحيب به . ولكن الدهشة
استبدت برجال الحملة حينما اكتشفوا ان جميع أبواب القسطنطينية اغلقت
فى وجوههم ، وان الجنود البيزنطيين مرابطون فوق أسوارها ، وفشلت
المحاولات الاولى التى قام بها أسطول الصليبيين لمهاجمة الأسوار . وبعد قتال
عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة بالأسوار فى ١٧ يوليو ، وفكر الكسيوس
الثالث فى الفرار مع ابنته التى يكن لها اعزازا خاصا ، ولجا الى مدينة
موزينو فى تراقيا ، فما كان من حاشية القصر الا انهم أخرجوا الامبراطور
السابق اسحق - الذى سلمه أخوه - من السجن وأعادوه على عرشه ، وبذلك

(١) The Novogorod Chronicle, p. 241, ed. Lasonov. ، رنسيان :

نفسه ص ٢١٢ .

(٢) Robert of Clary; pp. 30-40. وكذلك : Villehardouin;

I, pp. 110-128

توقف القتال ، وتم الاتفاق على تنصيب الكسيوس الصغير قسيما لابييه في حكم الامبراطورية (١) وتسمى الكسيوس الرابع سنة ١٢٠٣م .

مارس الكسيوس الرابع شئون الامبراطورية منفردا لان ابيه قد فقد بصره ، وبدأ في تنفيذ وعوده السابقة فحاول ارغام رجال الدين بقبول سيادة بابا روما ولكنه وجد مقاومة عنيفة ، وفشلت محاولته . اغدق الهدايا الوافرة على الصليبيين فاثار نهمهم الى المزيد ، فقل مال الخزانة ولم يتمكن من دفع ديون الصليبيين للدوق داندلو حاكم البندقية (بقية قيمة ايجار السفن) فاضطر الى فرض ضرائب جديدة فغضب عليه البيزنطيون . صادر كميات ضخمة من ممتلكات الكنيسة (ذهب وفضة) وأمر بصهرها وضربها نقودا وتسليمها للبنادقة ، فحقده عليه رجال الكنيسة وغضبوا منه . وزاد من غضب الشعب البيزنطى وتحريك الثورة في نفسه ما ارتكبه الصليبيون من سلب ونهب في القرى المحيطة بالمدينة ، وتدمير حتى باكملة بسبب حماقة بعض الفرنسيين من جنود الحملة الذين حرقوا مسجدا للتجار المسلمين في المدينة ، فامتدت النار منه ودمرت الحى باكملة ، واحترق فيه ناس كثير . بالاضافة الى كل ذلك لم يكن الكسيوس الرابع (الصغير) على مستوى حكم الامبراطورية ، اذ كان مبتذلا في حياته محبا للهو . مما أدى الى وقوع ثورة في القصر الامبراطورى في فبراير سنة ١٢٠٤م / رجب ٦٠٠هـ وتم عزل الكسيوس الرابع والقى به في السجن حيث توفى ، ولحق ابوه به فمات كمدا بعد فترة قصيرة . وتولى العرش مورتسوفلوس ، وتسمى الكسيوس الخامس (٢) .

(١) راجع ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٩٠-١٩١ ،

Villehardouin, I, pp. 154-184.

وتعتبر رواية فيلهاردوين اوفى الروايات التاريخية التى تمثل وجهة نظر الصليبيين ، وانظر كذلك رنسيومان : نفسه ، ص ٢١٣-٢١٥ .

(٢) Robert of Clary, pp. 58-59.

سقوط القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية :

كان الكيسوس الخامس شديد الياس ، ومكروها ، عزل كثيرا من الوزراء ورجال القصر ، ومنهم المؤرخ تكنياس خرنياثس الذى انتقم لنفسه فيما كتبه عنه . كما فشل فى محاولته اصلاح اسوار القسطنطينية للدفاع عنها بسبب استمرار الثورات بالمدينة .

اتفق رأى البنادقة وامراء الحملة الصليبية على ضرورة احتلال المدينة ، وبدأوا هجومهم فى ٦ ابريل ١٢٠٤م ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة ، فعادوا الهجوم بعد ستة أيام وشددوا الزحف ، على قصر الامبراطور وتمكنوا من طريق بذل الاموال للخونة فى داخل المدينة من الوصول الى داخلها ودخول القصر بعد أن هرب الامبراطور الكيسوس الخامس وزوجته .

استبيحت القسطنطينية للنهب والسلب بطريقة ليس لها مثيل فى التاريخ (١) فقد أدرك البنادقة قيمة اعمال الفنة ، وما وجدوه من تحف وآثار وصناعات أبدعتها أيادى مهرة من اليونانيين ، ولذلك نقلوا ما وصلت أياديهم اليه الى البندقية فزينوا به قصورهم وكنائسهم وميادينهم . اما الفرنسيون وغيرهم من الصليبيين فقد دمروا كل ما وقعت انظارهم عليه بدون تمييز ، ولم يفلت من هذا التخريب والتدمير الادبرة والكنائس والمكتبات لدرجة ان وصفهم بعض المؤرخين بالرعاى المسعورة (٢) .

كان لابد من اختيار امبراطور جديد للدولة اللاتينية ، ودارت مناقشات بين البنادقة والصليبيين انتهت باختيار بلدوين التاسع كونت فلاندر الذى تولى عرش الامبراطورية سنة ١٢٠٤م/٦٠٠هـ اما بونيفاس موننفرات قائد الحملة فقد أصبح ملكا على سالونيك ومقدونيا ، كما تم تعيين توماس

(١) رئيسمان : نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٢) رئيسمان : نفس المرجع والصفحة ، وقد اشار المترجم الى رسالة بلدوين كونت فلاندر التى بعث بها الى البابا انوسنت الثالث بتفاصيل ما وقع من مظاهر الرعب فى القسطنطينية .

مؤروسينى وهو من البنادقة بطريركا في كنيسة القسطنطينية ، واقتسم البنادقة والصليبيون المغنم لكل فريق منهم $\frac{2}{8}$ وأعطى الإمبراطور بلدوين التاسع الربع ، وبذلك انتهت الإمبراطورية البيزنطية ، وقامت إمبراطورية لاتينية غربية استمرت من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ م (١) . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة .

أهم نتائج الحملة الصليبية الرابعة :

لا شك ان ما ارتكبه الصليبيون والبنادقة من الجرائم في القسطنطينية يعتبر جرحا غائرا في جبين الانسانية ، فالى جانب القتل والسلب والنهب فقد تم تبديد وتدمير ما احتفظت به بيزنطة من كنوز حضارية من ازمان غابرة .

انتهت الحملة الصليبية الرابعة الدور التاريخى الذى كانت تقوم به بيزنطة فى حراسة أوربا من البوابة الشرقية امام أى هجمات سيواء من المسيحيين الشرقيين أو من المتبربرين القادمين من أقصى الشمال ، فقد قاومتهم بجيوشها ، وروضتهم بمدنييتها وحضارتها .

أضحى الطريق البرى الممتد من أوربا الى سوريا وبلاد الشام بالغ الصعوبة كما أضحى الطريق البحرى غير ميسر ، لان السفن الايطالية كانت تؤثر نقل المسافرين الى البسفور والجزائر اليونانية ، على الابحار الى عكا أو موانى سورية .

كما اجتذبت الدولة اللاتينية فى القسطنطينية كثيرا من العناصر الصليبية فى الشام فرحلوا اليها والى بلاد اليونان ، مما دفع ملك بيت المقدس الصليبي الى تجديد الهدنة مع الملك العادل سنة ١٢١٠م/٦٠٧هـ وكان ذلك فى جانب

(١) سرهنك : حقائق الاخبار ج ٢ ص ١٥٨ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١١٠-١١١ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٨ ، ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٦٠-١٩١ ، رنسيما : نفسه ، ص ٢٢٤-٢٣١ ، وانظر كذلك : Ostrogorsky; geschi. Byzant. Staat. 2. ausg. SS. 337-359.

السياسة الناجحة التى تقوم على الدبلوماسية الهادئة والسلام التى اتبعها العادل فى السنوات الاولى من حكمه مع الصليبيين .

تحطمت وحدة العالم البيزنطى بضياح القسطنطينية ، وأصبح من الصعب جدا اصلاح ما تحطم ، وأخذت بذور الكراهية بين العالمين المسيحى فى الشرق والغرب تنمو ، وقضى تماما على آمال البابا انوسنت الثالث الرائعة ، وما زعمه الصليبيون من مفاخرات خادعة ، بخصوص توحيد الكنيستين . وأصبحت الكراهية مستقرة فى الصدور لانه كان من الصعب جدا أن ينسى البيزنطيون ما حل بهم فى الحملة الصليبية الرابعة .

حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢م :

فى أحد أيام شهر مايو سنة ١٢١٢م/ذى الحجة ٦٠٨ هـ ظهر فى سان دينيه حيث كان فيليب أوجست ملك فرنسا يعقد محكمته ، صبي صغير من الرعاة ، يسمى ستيفن Steven ، وكان فى جملة الثانية عشر من عمره ، دخل على الملك وقدم له رسالة زعم انها من السيد المسيح نفسه ، وقد أمره بأن يدعوا الى حرب صليبية ، فلم يعره الملك فيليب التفاتا ، وطلب منسه الانصراف .

خرج ستيفن من أمام الملك ، وذهب الى مدخل دير القديس دينيه وأخذ يدعو الى حملة صليبية من الأطفال يقودها لانقاذ العالم المسيحى . وسوف تجف أمامهم البحار ويجتازونها كما حدث مع موسى - عليه السلام - وكان هذا الصبي فصيحاً مؤثراً عند الحديث ، فهرع اليه الأطفال ، وتأثر بكلامه الكبار . وأخذ يطوف بأنحاء فرنسا يدعو الأطفال ، وواعدهم فى (فندوم) بعد شهر حيث يتحركون منها الى الأراضى المقدسة .

تجمع حوالى ثلاثين ألف طفل من البنين والبنات فى عمر الزهور حيث لا يتجاوز الواحد منهم الثانية عشر ربيعا ، وتحركت حملتهم نحو الجنوب سائرين على الأقدام باستثناء قائدهم ستيفن الذى أعدت له عربة متقنة

الزخرفة فركبها وركب معه بعض أطفال الاسرات النبيلة . وبعد أن لاقى الاطفال كثيرا من متاعب الطرقات وصلوا بحملتهم الى مرسيليا وكان الجو صيفا ، شديد الحرارة ، فماتت أعداد كثيرة منهم .

في مرسيليا انتظر أفراد الحملة أن ينشق البحر ويجف ليسيروا فوق رماله ، ولكن لم يحدث مما حدثهم ستيفن به شيئا ، فهاج أكثرهم عليه ، واتهموه بالخداع . وبعد أيام قليلة ظهر لهم تاجران من مرسيليا وعرضا على هؤلاء الاطفال نقلهم الى فلسطين في سبع سفن بدون أجر من أجل مجد الله ، وفعلا تم نقل هؤلاء الاطفال من الميناء ، واقلعت السفن بهم .

في تلك الفترة شرع صبي آخر اسمه نقولا في بلاد الراين (المانيا) يقلد ستيفن ويدعو للاشتراك في حملة أخرى للاطفال ، وكانت دعوة نقولا تحويل الكفار (ربما يقصد المسلمين) الى المسيحية ، وليست للحرب في الاراضي المقدسة كما كان يدعو ستيفن (١) .

تجمع الآلاف من الاطفال في كولن Kaln وكانت أعمارهم (بنين وبنات) تزيد قليلا عن الاطفال الفرنسيين الذين خرجوا مع ستيفن ، وقد انضم الى حملة نقولا ععدد من ذوى السمعة السيئة من المتشردين والعاهرات .

انقسمت حملة نقولا الى قسمين ، الاول بلغ تعداده عشرون ألفا قادهم نقولا نفسه وتحرك بهم عن طريق الراين فاجتاز جنيف ، ثم عبر جبال الالب في رحلة شاقة فلم يصل منهم الى جنوه في نهاية أغسطس من نفس العام (١٢١٢م) الا الثلث تقريبا ، وكما حدث لأطفال ستيفن حدث لأطفال نقولا ، وانتهت حملة الاطفال ببيعهم في موانئ تونس والجزائر والاسكندرية

(١) رنسيومان : ج ٣ ص ٢٤٩ - ٢٥٢ .

(م ١٣ - صلاح الدين :

حيث أصبحوا في عداد الرقيق (١) ، ومن تخلف منهم أضحي من مواطني البلدان التي عاشوا فيها .

ويروى رنسيما (٢) ان قسا من الشرق وصل الى فرنسا سنة ١٢٣٠م وزعم انه كان أحد أطفال حملة ستيفن في مرسيليا ، وروى انه بعد ان أفلعت السفن بهم في عرض البحر ، تعرضوا لطقس سيء ، وتحطمت سفينتان بالقرب من سردينيا وأما الخمس سفن الباقية ، فقد بيع ما عليها من أطفال الى أسطول اسلامي بناء على اتفاق سابق حيث حملوا وبيعوا في أسواق الرقيق بالمدن الاسلامية . ومما ذكره هذا القس ان السلطان العادل اشترى من هؤلاء الاطفال مجموعة ليكونوا عنده مترجمون ومعلمون وكتابا لانه كان شغوفا باللغات والآداب الغربية ، ولم يحملهم على الاسلام ، وانهم يعيشون في القاهرة عيشة مريحة سهلة (٣) .

مهاجمة الملك العادل للصليبيين :

على الرغم من وجود الهدنة بين المسلمين والصليبيين ، فان الاغارات الصليبية على بعض مدن المسلمين لم تتوقف ، وذلك بسبب كثرة الوافدين من الغرب الاوربي في تلك الفترة - أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ففي سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م اتفق الصليبيون مع فرسان الاسبتارية في حصن الأكراد على مهاجمة حمص ، وتكرر هجومهم عدة مرات بقصد الاستيلاء عليها ، وكان أميرها أسد الدين شيركوه (الثاني) بن محمد ابن شيركوه غير قادر على مجابهة هذا التحالف ، فاستنجد بالملك الظاهر غازي - صاحب حلب - وغيره من ملوك الشام (٤) فلم يتقدم لمساعدته سوى

(١) Gray, G. Z.; The Children Crusades, p. 71.

(٢) الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٣) Rohricht; Der Kinderkreuzzug : in Historische Zeitung.

B. 36 : Winckelmann; gesch. Kaiser Friedrichs des Zweiten, B. I. SS. 221-222.

(٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٧٣ .

الظاهر ، الذى أرسل اليه عسكريا أقاموا عنده ، ومنعوا الصليبيين من الاغارة على المدينة .

وفى نفس العام هاجم صليبيو قبرص أسطولا للمسلمين ، وأخذوا عدة قطع من أسطول مصر ، وأسروا من فيها . ووصلت هذه الاخبار الى الملك العادل ، الذى كان يراقب العدو باستمرار . فكتب الى الوصى على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية حنا دى أبلين يذكره بالهدنة ، ويطلب منه التدخل مع الصليبيين من أهل قبرص ليردوا ما أخذوه من قطع الاسطول وليعيدوا الاسرى ، ولكن الوصى أجابه بأنه ليس له عليهم سلطان ، وان مرجعهم الى الفرنج الموجودين بالقسطنطينية (١) .

ثم أشار فى رده كذلك الى ان الصليبيين فى بلاد الشام ليس لهم حكم على قبرص خصوصا بعد وفاة الملك عمورى الثانى دى لوز جنان سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م ، وانفصال قبرص عن مملكة بيت المقدس الصليبية .

عندئذ رأى الملك العادل ضرورة خروجه بالعساكر فوصل العباسية ، ثم أسرع السير الى الشام ، فأغار على عكا فصالحه أهلها وأطلقوا جميع ما عندهم من الأسرى المسلمين (٢) وأذعنوا . ثم وصل العادل بعساكره الى دمشق ، فاجتمع عليه خلق كثير بالمساجد ، وطالبوه بمواصلة الجهاد ، ويقال ان امرأة مسلمة قطعت شعرها وأرسلته الى العادل وقالت « اجعله قيذا لفرسك فى سبيل الله » (٣) فأثارت بذلك حماسه ، فعقد العزم وخرج على نية الجهاد (٤) .

وصل الملك العادل الى حمص ، ونزل على بحيرة قدس ، واستدعى الملوك من أهل بيته والعساكر ، فجاءوه من كل صوب ، ومنهم الملك المنصور

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ١٩٦ .
(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ١٧٢ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ص ٧٠ .
(٤) ابن واصل : نفسه ، ص ١٧٣ .

صاحب حماه ، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه (الثاني) صاحب حمص ، والملك الأماجد صاحب بعلبك ، ووالده الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ونجدة من ابن أخيه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وعسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد (١) ، وبلغت عساكره حوالى عشرة آلاف فارس (٢) . ولكى يضلل الصليبيين ويبعد أنظارهم عن المكان الذى سيهاجمه أشاع ان عساكره متجهة الى طرابلس ، ولكنه هاجم حصن الأكراد فى شوال سنة ١٢٠٣هـ / ١٢٠٧م وقاتل الاستتارية أشد قتال ، واستولى على قلعة قريبة من الحصن أسماها (أعناز) وأسر منها ٥٠٠ رجل ، وغنم منها أموالا وأسلحة كثيرة .

ثم زحف على طرابلس وهاجمها وحصرها وضيق على أهلها الخناق ، ولكى يصيب الصليبيين بالأضرار سمح لجنوده يخربون البلد وما حولها ، ويتلفون زروعها وبساتينها ، وقطعوا أشجارها ، وهدموا أسوارها فى ظاهر المدينة ، وقطعوا العين الواصلة اليها ، وخربوا الطرق المؤدية لها . وكان قصد الملك العادل من وراء ذلك أن يخضعهم ويجبرهم على الاستسلام . ولكنه اضطر للعودة بعساكره الى بحيرة قدس بالقرب من حمص نظرا لضجر الجنود (٣) وظهور استيائهم . ومع ان مدة الهجوم على طرابلس لم تدم أكثر من اثنى عشر يوما الا انه أنزل الرعب فى قلب أميرها الصليبي بوهيمند الرابع فطلب الصلح ، ويعث للملك العادل بمال وهدية ، وثلاثمائة أسير ، وأبدى خضوعه ، فوافق العادل على الصلح فى آخر ذى الحجة سنة ١٢٠٣هـ / ١٢٠٧م (٤) .

انتهاز الملك العادل فرصة هذه الانتصارات وأراد أن يضيف على حكمه الشرعية فأرسل فى أوائل سنة ١٢٠٤هـ / ١٢٠٧م الى الخليفة العباسى الناصر

-
- (١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٢٧٣ .
 - (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٦٦ .
 - (٣) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ١٧٣ .
 - (٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٠٨ .

لدين الله يطلب منه أن يشرفه بالتقليد والخلق فاستجاب الخليفة له وبذلك أصبح حكمه في مصر والشام شرعيا من قبل الخلافة ، وخطب العادل بلقب شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين (١) .

تغيرت الظروف في عكا مركز الصليبيين في المشرق الاسلامي ، اذ تزوجت الاميرة ماري بالامير حنا دي برين وكان في الستين من عمره ، فاكسب بهذا الزواج الشرعية وأصبح ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م (٢) .

كان الملك العادل في تلك الفترة منصرفا الى المحافظة على ملكه ، ولا يريد الدخول في حرب مع الصليبيين نظرا لالتزامه بالهدنة التي سبق أن عقدها معهم لمدة عشرة سنوات . ويبدو ان بعض المجموعات الصليبية بدأت في مناوشتها ضد المسلمين بعدما وصلت أعداد كثيرة من الصليبيين الاوربيين الى عكا في هذه الفترة (٣) . وشدت من أزر من بها من الصليبيين ، ولأن الهدنة كان انتهى أجلها في يولية سنة ١٢١٠م .

رأى الملك العادل ضرورة خروجه بالعسكر من دمشق لمواجهة هذه الهجمات ولكن الرسل ترددت بينه وبين صليبي عكا وأبرمت الهدنة بينهما لمدة معلومة خمس سنوات تبدأ في يولية سنة ١٢١٢م .

وفي نفس العام توفيت الملكة ماري بعد أن وضعت طفلة اسمها (ايزابيلا) واشتهرت باسم (يولاندا) وانتقل حكم المملكة الصليبية اليها ، وأصبح أبوها يوحنا دي برين وصيا عليها ويحكم باسمها . ثم بدأ في تحريض الغرب الأوربي على ارسال حملة صليبية جديدة ، وكتب بذلك الى البابوية

(١) ابن واصل : نفسه ، ص ١٨٠ وما بعدها ، والمقریزی : نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢) رنسيان : ج ٣ ص ٢٣٧-٢٣٩ وقد ذكر ان تتويجهما تم في صور في أكتوبر .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ٢٠١ .

والى ملوك أوريا ، على أن يكون قدوم الحملة الى مصر قبل انتهاء أجل الهدنة . (١٢١٧ م) .

ولكن الاشتباكات تجددت في العام التالي (٦١٠هـ / ١٢١٣ م) لأن طائفة الاسماعيلية الباطنية قتلت ريموند أكبر أبناء بوهيمند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس في كنيسة انطربطوس وكان شابا في الثامنة عشر من عمره ، ويرجح البعض (١) ان ذلك كان بتحريض من الاسبتارية ثم قتلت الاسماعيلية كذلك (البرت) بطريق بيت المقدس بعد عام ، فعظم ذلك على الفرنج وخافوا واحترزوا لأنفسهم (٢) وقرروا الانتقام من الاسماعيلية ومن المسلمين . وتمت تجمعاتهم من قبرص وطرابلس وعكا وانطاكية وانضم اليهم عسكر الأرمن ، ونزلوا قريبا من حصن الأكراد حيث توجد الاسبتارية ، فخاف ملوك البلدان الاسلامية القريبة وأخبروا الملك الظاهر صاحب حلب ، فأرسل الى الصليبيين يطلب منهم عدم التعرض لمدينة حماه وانتهى الامر بصلح بين الطرفين .

ثم تحول الصليبيون الى حصن الخوابى وضربوا عليه الحصار بشدة ، انتقاما من الاسماعيلية الذين قتلوا ريموند بن بوهيموند ، ولما علم الملك الظاهر خرج بعساكره ليدفع الصليبيين عن الخوابى ، فلما علم الصليبيون بخروجه رحلوا عن الحصن وتوجهوا الى انكاطية . وأخذت الشائعات تتردد عن قدوم حملة صليبية جديدة ، فآدى ذلك الى توحيد العالم الاسلامى ، وأخذ الملك الظاهر يسعى الى صداقة عمه الملك العادل .

أهم الأعمال الداخلية للملك العادل :

بعد أن عقد الملك العادل الهدنة مع الصليبيين في سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م أصبح لديه بعض الوقت للإصلاحات وإقامة منشآت في مصر والشام ، فبدأ بتدبير شئون مصر وترتيب دواوينها ، فقبض على الأسعد أبى المكارم بن مهدي بن مماتى صاحب الديوان في جمادى الآخرة سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م

(١) رنسيما : ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن واصل : نفسه ، ص ٢١٩ .

وعوقب وعذب ، كما قبض على الامير عبد الكريم أخى القاضى الفاضل عبد الرحيم ، وألزم بدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار دفعها توا ، كما غرم آخرون مبالغ مختلفة . كما أسند ديوان الجيش لابن الكعكى ، وتم عزل قاضى العسكر صاحب بن شكر البدر بن الأبيض ، وعين بدلا منه نجم الدين خليل بن المصمودى الحموى .

ووصل تقليد الخليفة العباسى للملك العادل بولاية مصر والشام والشرق و خلاط وكان الشيخ شهاب الدين السهروردى مبعوث الخليفة فى هذا الأمر ، كما بعث الخليفة الخلع لأولاد الملك العادل (الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ، والملك الكامل محمد) ، وقد تسلم الملك العادل هذه الخلع وهو نازل فى دار رضوان بدمشق (١) ، وبعد أن قرئ التقليد وارتدى الملك العادل الخلعة خطب بلقب شاهنشاه خليل أمير المؤمنين .

وفى خلال هذا العام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م أمر الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، ووزع مسئولية أبراجها على الأمراء فعمروها من أموالهم . ولما رأى اتسام مملكته ، واستقرار الأمور فيها قسمها بين أولاده ، فاختص الملك الكامل محمدا بديار مصر ، ورتب عنده القاضى الأعز فخر الدين مقدم ابن شكر ، كما اختص الملك المعظم عيسى بالامارة على البلدان من العريش الى حمص ، وأدخل فى ولايته بلاد الساحل الاسلامية ، وبلاد الغور وأرض فلسطين ، والقدس والكرك والشوبك وصرخد . وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية وهى الرها وتوابعها ، وحران وغيرها . كما أعطى الملك الأوحى نجم الدين أيوب خلاط وميفارقين ومدن تلك النواحي .

وعندما تم بناء قلعة الجبل ، سكنها الملك الكامل وترك دار الوزارة بالقاهرة فكان أول من سكنها من ملوك مصر ، ولكى يامن انقلاب بقايا الخلافة الفاطمية عليه نقل الى هذه القلعة أولاد الخليفة العاضد الفاطمى

(١) راجع تفاصيل هذه الخلع فى المقرئزى : (السلوك ج ١ ص ٢٠١) والاحتفال الذى أقيم بخصوصها .

وأقاربه في بيت منفصل (تحديد اقامة) فاقاموا في هذا البيت الى أن تحولوا عنه سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م .

الدعوة الى حملة صليبية جديدة ضد مصر سنة ١٢١٥م :

نظرا لما أصاب حملة الأطفال من ضياع ، ونظرا لتحول الحملة الصليبية الرابعة الى عاصمة الدولة البيزنطية وعدم استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين وانزال ضربة قاصمة بهم ، قرر البابا أنوسنت الثالث أن يعقد مجمعا دينيا كبيرا سنة ١٢١٥م للنظر في ادماج كنيسة بيزنطة في كنيسة روما ، وتوجيه حملة صليبية الى الشرق الاسلامي ، خصوصا بعدما وصلته مكاتبة يوحنا دي برين في هذا الخصوص . وعقد المجمع الكنسي فعلا في لاتران سنة ١٢١٥م وطلب بطريق بيت المقدس المساعدة وتحدث البابا أنوسنت عن أحوال بيت المقدس ، وأعلن أساتذة جامعة باريس ان كل من وعد بالاشتراك في الحملة الصليبية المقبلة ، ثم حاول أن يتجنب الوفاء بوعده ، يعتبر مرتكبا لجريمة عقوبتها الاعدام (١) ، وأشاعت الكنيسة بعض ما يراه البابا من أحلام عن الصليب . . . لكي يدفع الناس للانضمام للحملة ، ووصلت به الأحلام أن كتب الى الملك العادل يحذره مما سيحل به من الغضب ، ويحثه على تسليم بيت المقدس له في هدوء .

ويبدو أن جيرفاس رئيس دير بريموثريه أحس بأن أحلام البابا من وحي الخيال فكتب اليه في السر وأخبره بأن نبلاء فرنسا أخذوا يتجاهلون آراء أساتذة جامعة باريس ، وقدم اليه نصيحة خالصة بعدم اشتراك الفرنسيين والألمان معاً في حملة واحدة لعدم انسجام الالامتين ، كما أشار الى الاعداد الهائلة من الفقراء المعدمين قد تجمعوا في حماس شديد لحمل شارة الصليب وينبغي ألا تثبط همتهم بتأجيل مسير الحملة (٢) .

(١) رنسيمان : ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٢) Luchaire; Innocent III et la question d'Orient, pp. 281-289

توفى البابا انوسنت الثالث فى ١٦ يولية سنة ١٢١٦م (٦١٣هـ) ولم يحقق حلم حياته فى استرداد بيت المقدس ، وتم انتخاب الكاردينال سافيللى ليصبح البابا هونوريوس الثالث . ولم تمض بضعة أيام حتى كتب هذا البابا الى الملك يوحنا برين فى عكا يخبره بان الحملة الصليبية على وشك القدوم اليه ، كما كتب الى ملوك أوربا لاشتراكهم فى الحملة ، ولكن الاستجابة كانت غير مرضية ، وبذلك لم تتحرك الحملة سنة ١٢١٦م وتأجل مسيرها .

على ان معوقات أخرى لمسير الحملة ظهرت فى الأفق ، وكانت هذه المرة من فلسطين ، اذ أرسل جيمس فيتري أسقف عكا الذى وصل اليها منذ وقت قريب تقريراً شديداً المرارة عن أحوال الصليبيين أوضح فيه ان المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويؤثرون حكم المسلمين ، بينما انصاع اللاتين أنفسهم الى حياة الخمول والبذخ والأخلاق البذيئة ، وغلب عليهم الصفة الشرقية ، وفسد رجال الدين اللاتين ، ونزعوا الى الجشع والتآمر ، كما ان الحسد المتبادل بين المدن الإيطالية الكبرى أمثال البندقية وجنوة وبيزا فى الجوانب التجارية جعلهم عاجزين دائماً عن التعاون معا ، ثم يقرر جيمس فيتري حقيقة واضحة وهى عدم رغبة الفرنج فى الشرق الأدنى الى قدوم حملة صليبية جديدة نظراً لما نعموا به من السلام مدة عشرين سنة تقريباً مما زاد فى رخائهم المادى ، خصوصاً وان المسلمين لم يلجأوا للاعتداء عليهم (على الصليبيين) منذ وفاة صلاح الدين نظراً لازدياد النشاط التجارى وما جنوه من الارباح ، ثم أشار الى ظاهرة البذخ عند الفرنج فى القصر الذى شيده يوحنا ابلين فى بيروت ، وان الجاليات الإيطالية أحست بالرضا والسعادة فى حياتها فأثرت الاستقرار بمصر (١) .

ومع ذلك وصل عدد من ملوك أوربا مع عساكرهم فى سنة ١٢١٧م الى عكا منهم ليوبولد السادس دوق النمسا ، وأندريه الثانى ملك هنغاريا ،

(١) رنسيماى : نفسه ، ص ٢٦١-٢٦٢ وقد اعتمد على (نقلاً عن) James of Vitry; History of Jerusalem pp. 56-91. (Stewart

وهيو ملك قبرص بالاضافة الى أعداد كثيرة من الألمان وشعب هنغاريا
(المجر) (١) .

اتفق الصليبيون على مهاجمة قلعة الطور التي بناها الملك العادل
قريبا من عكا ، والتي كانت بمثابة الخط الاول لمواجهة الصليبيين عند
تحركهم . ووصلت الاخبار الى الملك العادل ، فخرج من مصر بالعساكر
المصرية ، وسار الى نابلس ليقطع الطريق على الصليبيين عند عين جالوت ،
ولكن الصليبيين كانوا يراقبون تحركاته ، فبرزوا من عكا في جموع حاشدة
لم ير مثلها في الحملة الصليبية الثالثة ووصلوا سريعا الى عين جالوت ،
فعاد الملك العادل بجيشه الى بيسان ولكنه انسحب منها حينما تقدمت
الحملة الصليبية بجحافلها نحوه (٢) ، وأرسل الملك العادل ابنه الملك المعظم
عيسى - صاحب دمشق - للدفاع عن بيت المقدس ، بينما انتظر بعساكره في
عجلون ، واتم استعداداته لمنع أى هجوم على دمشق ، ويبدو ان انسحاب
الملك العادل كان مرجعه الى قلة عدد جنوده ، وخوفه من الكثرة التي كانت
لجيش الصليبيين ، واحترازه لعدم المواجهة والهجوم خشية أن يهزم جيشه
فلا تقوم للاسلام قائمة . على أن بعض المؤرخين (٣) أشاروا الى ان خوف
العادل لم يكن له ما يبرره ، نظرا لان الجيوش الصليبية على الرغم من
كثرتها ومظهرها المرعب ، كانت تفتقر الى النظام ، وكانت القيادات مختلفة
مع بعضها مما أدى بعساكرهم بعد أن نهبوا بيسان وعاثوا فيها فسادا وخرابا
أن يسيروا على غير هدى ودون هدف ، فعبروا نهر الاردن ، وساروا على
الضفة الشرقية لبحر الجليل ، ثم تجاوزوه الى الكنيصة راجعين الى عكا ،
وكان جل اهتمامهم هو الحصول على المخلفات الدينية . لدرجة ان الملك

(١) راجع ابن واصل : مرجع سابق ص ٢٥٤ ، وابن الاثير : مرجع
سابق ، ص ٣٢٠ ، وعاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٥٧ .

(٢) راجع ما ارتكبه الصليبيون من حماقات مع أهل بيسان (عند
ابن واصل : مرجع سابق ص ٢٥٥ ، والمقرئى : نفسه ، ص ١٨٧ ، وابن
الاثير : نفسه ، ص ٣٢١) .

(٣) رنسيمان : ج ٣ ص ٢٦٣ وما بعدها .

أندريه الثانى الهنغارى استبد به الفزع عندما حصل على أباريق للماء مما تستخدم فى حفلات الزواج بكفر كانة فى الجليل (١) .

والحقيقة ، وعلى الرغم من افتقار الجيش الصليبي الى النظام ، ان الصليبيين أنزلوا ضربات موجعة بالمسلمين فالمراجع العربية (٢) تشير الى ذلك بوضوح « وقد أنكوا فى المسلمين أعظم نكايه ، وامتلات أيديهم بالأسرى ، والسبى والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يجاوز الوصف » . ومنع ذلك فبعض المؤرخين المسلمين يرون فى احجام الملك العادل عن الدخول فى معارك مع الصليبيين كان للحفاظ على الدولة الاسلاميه ، وعدم المخاطرة فى الوقت الذى تفرق فيه العسكر الاسلامى ، ولذلك وصفوا العادل بالحزم والتبصر فى العواقب « (٣) ولذلك فان العسكريين فى عصرنا هذا يعترفون بأن الانسحاب المنظم والحفاظ على جسم القوة الرئيسية الضاربة فى الجيش ، والاحتفاظ بالاسلحة والمعدات فى أى معركة أمام العدو تكون مساوية لنصر كبير (٤) .

دفع نجاح الصليبيين فى غارتهم على بيسان الى الهجوم على قلعة الطور التى سبق أن أشرنا اليها ، فضربوا عليها الحصار وكادوا يملكوها لولا انهم انسحبوا وتراجعوا عنها بسبب مقتل أحد قواد جيشهم (٥) . وأدرك الملك العادل صعوبة الدفاع عن هذه القلعة ، وخشى أن يعود الصليبيون اليها

(١) Johannes Thivrocz; Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol. I, p. 149 - in Runciman, p. 264).

(٢) راجع ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢١ ، وابن واصل : ج ٣ ص ٢٥٥ ، والمقرئى : ج ١ ص ١٨٧ .

(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٢ ، وابن واصل : ج ٣ ص ٢٥٥ .
(٤) حدث هذا للجيش المصرى سنة ١٩٥٦ عندما انسحب بنظام من سيناء وعاد الى مصر وفوت على قوى التحالف الثلاثية (انجلترا وفرنسا واسرائيل) فرصة ابادة الجيش المصرى فى سيناء بعد عزله عندما يحتلون بورسعيد ومنطقة القنال ، ولكن للأسف فشلت مصر سنة ١٩٦٧ واختل انسحاب الجيش فأصيب بالهزيمة المروعة .

(٥) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٢ ، ورثسيان : نفسه ص ٢٦٤ .

ويستفيدوا منها في هجومهم ضد المسلمين ، فبعث ابنه الملك المعظم عيسى على رأس كتيبة من العساكر فهدم القلعة وسواها بالارض .

وربما كان السبب في فشلهم في تملك قلعة الطور على الرغم من قريها من عكا ، يرجع الى تفكك الجيوش الصليبية وانفراد كل جيش وقائده بالعمل كما يترأى له ، والدليل على ذلك ان قوة من الجيش الهنغارى قامت بمهاجمة منطقة البقاع في مستهل عام ١٢١٨م / أواخر ٦١٤هـ دون أن تحفل بنصيحة أهل عكا من الصليبيين ، وبدون موافقة الملك الصليبي ، وقد صادفت هذه القوة عاصفة ثلجية كادت تهلكها بأجمعها عندما كانت تعبر جبال لبنان (١) . وقد أعقب ذلك عودة الملك أندريه الثانى الى أوربا ، بينما توفى هيو ملك قبرص في يناير ١٢١٨م ، تاركا ملكه الى ابنه هنرى وهو طفل لم يتجاوز عمره بضع شهور ، وأصبحت الوصية عليه أرملته (اليس) ملكة بيت المقدس .

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨م

لا شك ان قادة الصليبيين كانوا يدركون ما لمصر من اهمية ومخانة في العالم العربي المسلم ، فقد سبق للملك انجلترا ريتشارد قلب الاسد ان نصح بمهاجمة مصر والاستيلاء عليها حتى يمكنهم الاستيلاء على بيت المقدس وعلى بلاد الشام ، كما اشار مجمع لاتيران الى ذلك أيضا ، باعتبار مصر هي الهدف الاساسي للحملة . لانها المورد الاساسي لتغذية الجيوش الاسلامية بالبشر والمال ، فاذا أمكن للصليبيين الاستيلاء عليها وطرد المسلمين من وادي النيل ، فان المسلمين لن يفقدوا بذلك أغنى اقليم لديهم فحسب ، بل انهم لن يستطيعوا أيضا المحافظة على اسطولهم في شرق البحر الابيض المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الابقاء على بيت المقدس في أيديهم زمنا طويلا (١) ، وكانت خطتهم في ذلك مهاجمة مزدوجة من عكا ومن السويس . ومن الطبيعي ان الصليبيين قدروا في حالة استيلائهم على مصر مدى ما تمددهم به من موارد اقتصادية يعتمدون عليها ، ويقلل من اعتمادهم على الغرب الاوربي ، ويجنبهم الخوف من بعد المسافة فيما بينهم وبين الغرب الاوربي .

اكتمل وصول السفن الصليبية الى عكا في العاشر من مايو ١٢١٨م (٦١٥هـ) واستقر رأى قادة الصليبيين على مهاجمة مصر من ميناء دمياط فهي المفتاح المؤدى الى النيل (٢) فوصل اسطولهم الى مشارف مصب دمياط في ٢٧ مايو ، ثم لحق به بقية الاسطول بعد يومين وتمكنت القوات الصليبية من النزول على الجانب الغربى للنيل ، وكانت دمياط على بعد حوالى ثلاث

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٦٧ .

(٢) Ernoul, op. cit., pp. 414-415. & James of Vitry; Epistolae (in
Zeitschrift fur Kurchen geschichte, vol. XV, SS 568-57

كيلومترات على الجانب الشرقى ، وكان لابد للصليبيين لكى ينجحوا فى دخولها من الهجوم عليها من البر والبحر معا .

اغلق المسلمون مدخل فرع النيل عند التقائه بالبحر بواسطة المآصر (١) وهى جنزير من الحديد امتد من الجانب الشرقى الى برج ضخيم مقام على جزيرة بالقرب من الجانب الغربى - كما حدث سنة ١١٦٩م - واقيم خلف المآصر جسر من السفن فجعل الصليبيون هدفهم الاساسى تحطيم البرج .

وصلت اخبار الحملة الى الملك العادل وكان قد اضحى شيخا متقدما فى العمر ، وكان يأمل أن يمضى السنوات الاخيرة من حياته فى هدوء ، الا ان المتاعب كانت تلاحقه ، فالملك الظاهر غازى - امير حلب - كان قد توفى سنة ١٢١٦م/٦١٣هـ ، وترك طفلا صغيرا اسمه العزيز تولى الوصاية عليه الطواشى طغرل ، وظهر الافضل شقيق الظاهر على مسرح الاحداث يطالب بان يرث ملك اخيه واستعان بالسلطان السلجوقى فى قونيه وهو (كيكارس) ، وتصدى الاشرف موسى بن العادل للسلاجقة والافضل وهزمهم بالقرب من بزاعة .

ارسل الملك الكامل محمد معظم عساكر مصر الى دمياط فنزلوا عند العادلية (٢) ، كما ارسل العادل عساكر من الشام . وفى آخر يونيه هاجم الصليبيون برج السلسلة (٣) بعنف ، ولكنهم فشلوا . فاقترح اوليفر بادر يورن اقامة برج كبير على سفينتين (٤) يحكم ربطهما معا بالحبال ، وتمت تغطيته

(١) راجع شرح المآصر فى هذا الكتاب ص ٨٥ هـ ٢ .

(٢) العادلية : بليدة أسسها الملك العادل سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م عندما وصلت اخبار تدفق الصليبيين من الغرب الأوربى على عكا وتهديدهم دمياط ، فاقام هذه البليدة لتكون مركز دفاع أساسى عن دمياط .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ج ٢ ص ١٠٩ (ويسمى برج السلسلة الذى يعد قفل الديار المصرية) .

(٤) هكذا فى المراجع الأوربية (رنسيان : ج ٣ ص ٢٧١ ، وأوليفر : تاريخ دمياط ، ص ١٧٩-١٨٢) . بينما ذكرت المراجع العربية ان الفرنجة بنوا برجاً ضخماً على (بطسة) وهى إحدى السفن الكبيرة .

بالجلد ، وتزود بالسلالم ، وبذلك تعرض برج المسلمين للهجوم من البحر والبر معا .

عاود الصليبيون هجومهم بعد ظهر يوم ٢٤ أغسطس على برج السلسلة بضراوة وشراسة للاستيلاء عليه ، واستمات الجنود المسلمون في الدفاع عنه ، وحطموا معظم أبراج العدو ، وأعملوا سيوفهم في جنود الحامية التي ظلت تقاتل حتى آخر اللحظات ، حتى لم يبق منهم على قيد الحياة الا مائة مقاتل ، وعندئذ اضطروا الى التسليم ، فاستولى الصليبيون على ما كان في البرج من مغانم ضخمة نقلوها الى معسكرهم في الضفة الغربية ، ثم حطموا المآصر (الجنزير الحديدى) الذى يغلق المدخل الى فرع النيل ، فأصبح من السهل على سفنهم أن تجتاز النيل الى أسوار دمياط (١) .

كان لسقوط برج السلسلة وقع شديد على نفوس الجميع . ويكفى أن نشير الى ما ذكرته المراجع العربية من أن الملك العادل عندما سمع ووصلته الاخبار وهو بالشام أصيب بصدمة شديدة لم يحتملها لكبر سنه فتوفى يوم ٣١ أغسطس (٢) وبذلك انتقل عبء الجهاد وتحمل مسئولية حكم الدولة الأيوبية الى ابنه الملك الكامل محمد .

أقام الملك الكامل جسرا كبيرا من التراب والاحجار في مدخل النهر ليسد به الطريق أمام أسطول الفرنجة ، وذلك عوضا عن المآصر والبرج اللذان تم تحطيمهما ، ودار القتال فوق الجسر عنيقا ، ومتتابعا بكثرة ، حتى تمكن الصليبيون من قطع هذا الجسر وبطل مفعوله . ولم يستسلم الملك الكامل ولم يتوقف عن صد الصليبيين ومنعهم من الدخول لى لا يصلوا الى دمياط ،

(١) Oliver; Historia Damiatana, pp. 182-184.

(٢) كان معروفا عند الفرنج باسم Saphadin = سيف الدين وعندما توفى كان عمره حوالى ٧٥ سنة ، راجع رنسيماي : نفسه ص ٢٧٣ وابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٤ ، ٣٥٠-٣٥٢ .

فأخذ مجموعة من المراكب وحملها بأحجار واثقال وأغرقها في مدخل النيل (١) ، فمنعت سفن الصليبيين من العبور .

ولكن الصليبيين قصدوا خليجا قديما أطلق عليه ابن الأثير (٢) الأزرق وحفروه وعمقوا مياهه ، ودخلت مراكبهم الى مكان يقال له (البورة) ، ليقاتلوا الملك الكامل الذى كان متحصنا فى العادلية ، وبدأت المناوشات بين الجانبين ، كل ذلك ومدينة دمياط نفسها حصينة قوية ، تحيط بها الاسوار وتحميها ، وأبوابها مفتوحة تصل اليها الامدادات والمؤن باستمرار ، وكان من الممكن أن تستمر طويلا فى الدفاع عن نفسها ، ولكن الشر ذبت فى معسكر الكامل نفسه ، فقد حاول أحد قواده الكبار واسمه عماد الدين أحمد بن المشطوب مع بعض الأمراء تدبير مؤامرة لعزل الملك الكامل وتولية أخيه الأصغر الملك الفائز ليتحكموا هم فى البلاد ويصبح أمر الدولة فى أيديهم (٣) . فلما وصلت الأخبار الى الملك الكامل خشى على نفسه وعرشه وانسحب من العادلية فى جوف الليل بجيشه وعسكر عند مدينة أشموم طنناح (٤) جنوب دمياط . وانتهاز الصليبيون هذه الفرصة التى أتاحها لهم ابن المشطوب بخيائنه وتجريمته التى حاول القيام بها ، وأسرعوا فى الوصول الى البر الشرقى من النيل (بر دمياط) دون أى مقاومة أثناء عبورهم فى أول فبراير سنة ١٢١٩م / ٦١٥هـ ، واحتلوا العادلية .

(١) لجأت مصر الى هذه الطريقة فى حرب سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ إذ أغرقت قيادة الجيش بعضا من السفن الكبيرة التى كانت للسلاح البحرى المصرى عند نشأته وكنت قد صعدت الى احداها فى ميناء الاسكندرية سنة ١٩٤٨ وكان يطلق عليها (البعبعة) وهى حاملة للجنود والمعدات من مخلفات الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية ، فأغرقتها فى مدخل قناة السويس من جهة بورسعيد حتى تمنع أساطيل الدول الثلاث المعتدية من الدخول الى مدن القنال واحتلالها ، وقد نجحت هذه الطريقة فعلا .

(٢) الكامل : ج ١٢ ص ٣٢٤ .

(٣) ابن الأثير : نفسه ص ٣٢٥ .

(٤) كان موقعها على بحر يحمل نفس الاسم ، ويعرف الان بالبحر الصغير .

ضرب الصليبيون الحصار على دمياط بعد أن نهبوا وسلبوا أهل الاطراف وكاد الملك الكامل يترك الديار المصرية للمصمة التي أصابته من ابن المشطوب فافقدته الثقة بكل قواده وامرائه ، ولكن القدر كان رحيمًا به ، إذ وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى بعد يومين ، فتقوى به ، وأخرج ابن المشطوب من مصر (١) ، وأمر بحبسه في الكرك ، كما أخرج أخاه الملك الفائز إلى سنجار (٢) وأخذ الكامل يعد نفسه للهجوم على مؤخرة الصليبيين وضرب معسكره في فارسكور على بعد ستة أميال جنوبى دمياط ، ولكن موقف الجيشين الصليبي والمصرى كان حرجًا لتريص كل منهما بالآخر ، وظلت دمياط تقاوم بما أوتى أهلها من شجاعة ، على الرغم من تناقص أعدادهم بسبب ما أصابهم من أمراض . ولم يجرؤ الصليبيون على دخولها . وأخذت المؤن بالمدينة تنقص وكادت تنفد ، وغلت الاسعار ، وانتشرت الامراض ، وكثرت الموتى ، وكان الملك الكامل على اتصال مستمر بأهالى المدينة عن طريق العوامين ، وقد عرف منهم رجل اسمه (شمائل) لعب دورًا خطيرًا في الاتصال بأهالى المدينة المحاصرين وحمل أخبارهم .

وكان وصول الامدادات للصليبيين من الغرب وخصوصًا من فرنسا ومن قبرص في فبراير ١٢١٩م (ذو الحجة ٦١٥هـ) عاملاً مساعدًا لاستمرار حصارهم لدمياط ولمواصلة حربهم ضد الملك الكامل . بينما كانت الظروف المحيطة بالملك الكامل سيئة للغاية ، أدت إلى إضعاف المسلمين وإحباط معنوياتهم ، فقد وصلت الأخبار بأن التتار هاجموا الدولة الخوارزمية في الشرق ، وبات خطرهم قريبًا من بلاد الشام ، وكان مجبرًا على التفكير فيما يدفع به هذا الخطر عن الجبهة الشرقية من ملكه . خصوصًا بعد أن استولى المغول على بلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس سنة ١٢٢٠م (٦١٧هـ) وبدأوا يتوغلون نحو بغداد (٣) ، بالإضافة إلى ذلك فقد اتصل الفرنج بنجاشى

(١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٧ .

(٢) رنسيما : ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٧ ، ٣٦٠ .

الحبشة المسيحية ليتعاون معهم في غزو الحجاز وهدم الكعبة (١) .

ومن المصاعب التي صادفت الكامل كذلك انه بعد موت والده الملك العادل لجأ الأعراب على اختلاف قبائلهم ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا وبالغوا في الفساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنجة (٢) . فاذا أضفنا الى ذلك مؤامرة ابن المشطوب لوضح أمامنا موقف الكامل الحرج . ولذلك فكر في عقد الصلح معهم ، وعرض عليهم إعادة البلاد التي فتحها صلاح الدين الايوبي بعد موقعة حطين باستثناء حصن الكرك (٣) في مقابل الانسحاب من الديار المصرية . وقبل الملك حنا دى بريين باعتباره ملك الملكة الصليبية ، ولكن حدثت اختلافات كبيرة بينه وبين مندوب البابوية بلاجيوس وانقسم الصليبيون على أنفسهم نظرا لما قام به الملك المعظم عيسى من تدمير لاسوار بيت المقدس واستحکاماتها حتى لا يستفيد بها الفرنجة ، ووقفت المجموعات الإيطالية وامراؤها الى جانب بلاجيوس ورفضت الصلح الذى تقدم به الملك الكامل لانهم كانوا يطمعون أن تصبح دمياط مركزا لتجارتهم (٤) .

لم يجد الملك الكامل طريقا سوى الجهاد . واستمر الصليبيون في الزحف على دمياط ، وشددوا الحصار عليها ، حتى عدت الاقوات ، وامتثلت الطرق بالاموات ، ولم يبق في المدينة من أهلها البالغ ٢٠ ألف نسمة سوى ٣ آلاف رجل سقط نصفهم مرضى وانهكت قواهم .

أحس الفرنج بسوء أحوال المدينة ، وشعروا بضعف المقاومة ، فاقتحم الصليبيون المدينة ، وعرضوا على أهلها التسليم وأعطوهم الامان ، فاستسلمت

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٦٥ .

(٢) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٣) Setton; Hist. of Crus. vol. II, p. 409.

ومعنى ذلك أن الكامل يرد لهم بيت المقدس .

(٤) رئيسمان : ج ٣ ص ٢٨٧ معتمدا على :

Rohricht; Studien zur Geschichte des funften Kreuzzuges, p. 46.

دمياط لهم يوم ١٠ رمضان سنة ٦١٦ هـ / ديسمبر ١٢١٩م بعد حصار استمر ١٦ شهرا و ٢٢ يوما (١) . ومع ذلك غسر الصليبيون بأهل دمياط ولم يحفظوا تعهدهم فقتلوا وأسروا وسبوا الكثير ، حتى الاطفال أخذوهم وأرسلوا بهم لينصروهم وليكونوا في خدمة الكنيسة . كما ارتكبوا الكثير من الفضائح مع البنات والنساء وحولوا مسجد المدينة الى كنيسة (٢) . ولم يلبث النزاع ان وقع بين قادة الصليبيين بسبب اختلاف رأيهم في وضع دمياط فالملك يوحنا دى بريين كان يرى أن تصبح دمياط تابعة لمملكة بيت المقدس ، بينما يرى بيلاجيوس ان تكون تابعة للكنيسة في روما .

اقام الملك الكامل بعساكره في موقع المنصورة العالية وشيد بها مدينة (٣) ليكون قريبا من الصليبيين ليصدhem عن التوغل في الاراضى المصرية ، وبث الصليبيون سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون ، فعظم الخطب ، واشتد البلاء ، وأرسل الملك الكامل مندوبين عنه الى الممالك الاسلامية في الشرق يستصرخون الناس لانقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج (٤) .

استرداد دمياط من الصليبيين :

اثار الفقهاء حمية المسلمين وحرصوهم على الجهاد ، ونشط الامراء في حشد المجاهدين عندما وصلتهم الاخبار بأن الصليبيين جعلوا دمياط اقطاعا لامرائهم ، وانهم يريدون أخذ مصر وبقيّة الديار المصرية ، فاجتمع من المسلمين عالم ليس له حصر . كما توحدت رغبة اخوة الملك الكامل في الشام والشرق على نجده وانقاذ مصر من أيدي الصليبيين ، وأسرع بالقدوم الى مصر الملك الاشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرها ، واستبشر الكامل بقدوم أخيه بعساكره اليه ، ثم وصل بعد ذلك الملك المجاهد أسد الدين شيركوه

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٢٣٨ وابن واصل : مفرج ، ج ٤ ص ٣٣ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠١ ، ورنسيما : ج ٣ ص ٢٩٣ .
(٣) ابن واصل : ج ٤ ص ٣٣ .
(٤) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٢٧ .

(الثانى) صاحب حمص ، والمملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك فى عساكرهما (١) ثم تتابع مجىء العساكر تباعا ، ونزلوا بالمنصورة .

قويت عزيمة الكامل بهذه النجداث ، وانزل قسما من عساكره حوالى ألفى فارس ومعهم أعداد كثيرة جدا من الاعراب عند قرية (شارمساح) ليقطعوا الطريق على الصليبيين فلا يستطيعون الوصول الى دمياط ، ولا يتمكنون من الزحف على المنصورة ، ولا يستطيعون التقدم الى القاهرة . كما قطع الاسطول المصرى الطريق فى النيل على الاسطول الصليبي ودارت موقعة انتصر فيها المسلمون واستولوا على ثلاث قطع (شوانى) من الصليبيين بمن فيها من الرجال وما فيها من سلاح وأموال ، ففرح المسلمون واستبشروا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم (٢) .

على الرغم من الامدادات البشرية والمادية التى كانت قد وصلت للصليبيين فى دمياط من قبل ، حيث وصلت أعداد سفنهم ٦٣٠ سفينة مختلفة الاحجام ، و ٥٠٠٠ فارس ، و ٤٠٠٠ رام ، وأربعين ألف راجل ، بالإضافة الى آلاف لا تعد من المتطوعين المسيحيين (الحجاج) (٣) الا أن الله عز وجل قذف فى قلوبهم الرعب عندما رأوا الجيوش الاسلامية وقد تجمعت كلها فى المنصورة تحت قيادة الملك الكامل ومساعدة أخوته المعظم والاشرف .

ووقفت عوامل الطبيعة الى جانب المسلمين ، ففى يوم السبت ٢٤ يولييه سنة ١٢٢١م (٢ جمادى الآخرة سنة ٦١٨ هـ) أضحى الجيش الصليبي يربط على امتداد البحر الصغير (٤) فى مواجهة الجيوش الاسلامية ، وعبرت قوات المعظم والاشرف واتخذت مواقعها بين الصليبيين وبين دمياط ، فعزلوا

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ٤ ص ٩٣-٩٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٤ ص ٦٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ،

ج ٦ ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٣) رنسيما : ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٤) هو بحر الحلة المتصل بفرع النيل وينتهى عند دمياط .

من بها من الصليبيين ، ولم تلبث المياه ان ارتفعت بشكل ظاهر في النيل وفي البحر ، فامتألت القناة الواقعة جنوبى شرمساح ، فدخلت سفن مصر اليها وقطعت على الاسطول الصليبي سبيل الانسحاب او الهروب (١) .

أدرك الصليبيون مدى تفوق المسلمين عليهم ، وأصبحوا بين فكي كماشة الجيوش الاسلامية ، وقت من عضدهم نفاد التموينات من عندهم ، فلم يكن لديهم منها الا ما يكفى عشرين يوما ، ووقع الخلف بين قادتهم ، وصمم الالمان على خروج الاسطول وارتداده ، وبدأ تدهورهم ليلة الخميس ٢٦ أغسطس سنة ١٢٢١م / (رجب سنة ٦١٨ هـ) ووقع الخلل في صفوفهم ، وازدادت حالتهم سوءا وكربا عندما أمر الملك الكامل بفتح القناطر المقامة على الشاطئ الايمن لفرع النيل ، فغمرت المياه أرض معسكر الصليبيين ، والاراضى التى يجب أن يمشوا فوقها أثناء الانسحاب ، فتحولت كلها الى سبخة طينية موحلة لا يقدر الانسان على اجتيازها مما مكن للجيوش الاسلامية اصطيادهم وهم على هذه الحالة قتلوا منهم آلافا من الرجال (٢) الذين كانوا يترنحون سكارى لانهم شربوا ما كان عندهم فى معسكرهم من نبيذ صعب عليهم تركه .

ومع ان الاسطول المصرى كان قد سد منافذ الهرب على الاسطول الصليبي الا أن سرعة جريان المياه وشدتها دفعت ببعض سفن الصليبيين ومن ضمنها السفينة التى كان على سطحها (بيلاجيوس) قائد الحملة ومندوب البابوية والمتصرف فى شئون الصليبيين ، وتمكن من الهرب وكان هروبه كارثة أخرى أصابت الصليبيين ، نظرا لما كانت تحمله السفينة من الامدادات الطبية اللازمة للجنود ، وقدرها كبيرا من تموين الجيش ، وعدم وجود القيادة مما أدى الى تخطيط قيادات السفن الأخرى وساعد الاسطول المصرى

(١) رنسيومان : نفسه ص ٢٩٨ ، والمقرئزى : ج ١ ص ٢٠٣ ،
وأبو الفداء : المختصر ج ٣ ص ١٢٩ .
(٢) ابن واصل : ج ٤ ص ٩٥-٩٦ .

على الاستيلاء على عدد منها (١) . » واتفق في تلك الحال انه وصل الى الفرنج مركب عظيم يسمى مرمة وحوله عدة حراقات يحمونه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح ، وما يحتاجون اليه . فوقعت عليه شوانى المسلمين وقتلواهم قتالا شديدا ، فظفر المسلمون بالمرمة وما معها من الحراقات فاخذوها» (٢) .

تحقق الصليبيون من أن الهزيمة لاحقة بهم لا محالة ، بعد أن ذلت نفوسهم نتيجة ما حدث لهم . فراسلوا الملك الكامل واخويه الملك الاشرف والملك المعظم يعرضون تسليم دمياط اليهم بدون أى شرط فى مقابل منحهم الامان على أنفسهم . وبعد مشاورة تمت بين امراء المسلمين تم الاتفاق على اجابة الصليبيين لمطلبهم واشترط الكامل ان ياخذ بعضا من ملوكهم وامرائهم رهائن حتى يتم تسليم دمياط اليه حتى لا يخدعوه ، فطلب الصليبيون ابن الملك الكامل مقابل ملوكهم وبعض حاشيته فقبل الطرفان ، وتم الصلح فى ٧ رجب سنة ٦١٨هـ / ٢٩ أغسطس سنة ١٢٢١م (٣) وعقدت الهدنة لمدة ثمان سنوات .

وتم تسليم دمياط الى المسلمين فى ١٩ رجب / ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١م ولما دخلها المسلمون وجدوا أن الصليبيين حصنوها تحصينا عظيما ، لأنهم كانوا يطمعون الإقامة المستمرة فيها ، وقد تولى امارتها شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى (٤) ، الذى رفض أن يرد للصليبيين مجموعة من الصوارى العظام تذكروها بعد انسحابهم ، فاشتكى الصليبيون الى الملك الكامل فكتب اليه ان يرد هذه الصوارى عليهم ، فأصر جلدك على الامتناع وقال : « ان

(١) أورد المقرئزى (ج ١ ص ٢٠٣) أعدادهم وقال : ست شوانى ، وجلاسة ، وبطسة وكذلك ثلاث قطائع = (قطع) .

(٢) ابن واصل : ج ٤ ص ٩٦ ، رنسيما : ج ٣ ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٣٣٠ .

(٤) هو من مماليك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب : أبو الغداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٣٠ .

الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه ، وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم فيأمرهم السلطان الكامل أن يردوا اليها المنبر ، لنرد عليهم الصوارى « (١) فلما كتب السلطان اليهم بذلك عجزوا وأعرضوا عن الكلام في هذا الموضوع . وهكذا اعيدت دمياط الى المسلمين ، ونجح أبناء أيوب في طردهم من الديار المصرية عندما اتفقوا وتوحدوا وتماسكوا في الدفاع عن مصر ، ولم يفقد المسلمون أيًا من بلدان الشام التى كان الكامل قد أعد نفسه لاعادتها للصليبيين في مقابل انسحابهم من مصر . وقد تبارى الشعراء في تسجيل هذا النصر في قصائدهم التى مدحوا بها الملك الكامل واخوته ومن ضمنها تلك الابيات التى اخترناها من قصيدة لشرف الدين بن عنين :

سلو صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة لقينا دون دمياط جحفا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة
ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
★★★

سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الامنا
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرنا
فالقوا بأيديهم اليها فاحسنا

★★★

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
مواقعها فيها فان عاودوا عدنا

منحناهم منا حياة جديدة
فعاشوا باعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم ياتلوا في دمائنا
ولوغا ولكنا ملكنا فاسجنا

★★★

لاشك ان الحملة الصليبية فشلت فشلا ذريعا في تحقيق الهدف الذي جاءت من الغرب الاوربي لتحقيقه وهو احتلال مصر ، للبقاء باستمرار في الاراضى الفلسطينية وامكان استعادة بيت المقدس من ايدى المسلمين بعد ان استرده صلاح الدين الايوبي بالجهاد . ويكاد المؤرخون المعاصرون لهذه الحملة يجمعون على ان اسباب فشلها يرجع الى قيادتها المضطربة وضعف شخصية الملك يوحنا دى بريين الذى تولى قيادة الحملة فى أول أمرها ، فلما تولى بيلاجيوس مندوب البابوية القيادة بعد رحيل دى بريين لم ينجح نظرا لانه كان متغطرسا ومجردا من الكياسة واللباقة مما جعله مكروها من عامة الصليبيين وكان لهروبه باحدى سفن الاسطول اثناء موقعة دمياط اثر بالغ على جنود الحملة وكشف بنفسه عن اكبر اخطائه . بالاضافة الى ذلك انه رفض عرضا من الملك الكامل بان يتنازل لهم عن بيت المقدس وكل المدن التى فتحت بعد حطين فى مقابل خروجهم من مصر ، وكانت هذه فرصة ذهبية نادرة لم ولن تتكرر ولو انه اقتنصها لتغير تاريخ منطقة الشرق الادنى ، الا أنه اندفع وراء غروره وأملا فى مساعدات الغرب المسيحى وطمعا فى أن يحتل مصر بأكملها ويستعيد بيت المقدس ومدن الشام ، ولكن خابت ظنونه كلها امام توحيد كلمة المسلمين بقيادة الكامل واخوته من بنى أيوب .

احوال البيت الايوبي بعد الحملة الخامسة :

لم يلبث ملوك البيت الايوبي بعد رحيلهم الى اماراتهم أن وقع الخلاف بينهم ، فالملك المعظم عيسى صاحب دمشق هاجم حماة لان صاحبها الملك الناصر كان قد التزم له بمال بحمله اليه عندما يؤول اليه حكم حماة ، ولكنه لم يفعل . وبعد قتال يسير تركها المعظم عيسى وهاجم سلمية واستولى عليها

وعين عليها نائبا من قبله ، ثم سار الى المعرة واستولى عليها وعين عليها نائبا كذلك . سار الملك الاشرف موسى الى مصر وأقام عند أخيه الملك الكامل وأنكر الاخوان على أخيهام المعظم عيسى ما قام به وأرسل الكامل يطلب منه العودة الى امارته في دمشق ، فتحملت النفوس من بعضها . عندئذ أرسل المعظم عيسى الى أخيه المظفر غازي صاحب خلاط يزين له العصيان على الاشرف . . فوافقه على ذلك .

وعندما عاد الاشرف موسى الى دمشق أبدى المعظم سرورا عظيما وأكرمه اكراما زائدا ، واستماله الى جانبه ضد الملك الكامل ، والملك المجاهد صاحب حمص والناصر صاحب حماة (١) .

تمكنت الخلافات بين الاخوة من البيت الايوبي ، ولعبت بهم الظنون ، فأرسل الملك الكامل أحد امرائه الى الامبراطور فردريك يشجعه على القدوم الى الشرق ، وأعطاه وعدا بأن يقدم له بعض البلدان الاسلامية على الساحل ، فلما علم المعظم عيسى بما فعله الكامل استعان بالسلطان جلال الدين الخوارزمي على أخيه ، ووعدده أن يدخل في طاعته ويجعل الخطبة له ، ويضرب السكة باسمه ، فبعث السلطان الخوارزمي له خلة لبسها ، وطاف بها احياء دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل (٢) .

عندما علم الكامل بما فعله أخوه المعظم عيسى خرج من القاهرة بقواته سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م ، ونزل على بلبس ، فكتب اليه المعظم يشككه في جنوده ، ويوحى له بأن معظم الجنود ستنضم اليه ، وأنه سوف يهلك نفسه اذا أصر على القدوم اليه ، وتدخلت الاقدار لتخفف حدة هذه الوحشة فتوفي المعظم عيسى صاحب دمشق في آخر ذي القعدة ٦٢٤هـ / نوفمبر ١٢٢٧م فارتاحت نفس الملك الكامل لذلك ، ولكنه جلس للعزاء ، ثم سير الخلة

(١) المقرئزي : ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) المقرئزي : نفسه ، ص ٢٢٢ .

وسنجد السلطنة للملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ، وكان عمره واحدا وعشرين عاما .

أرسل الملك الكامل الى ابن أخيه الملك الناصر يطلب منه أن يترك له حصن الشوبك فرفض ، فوقعت الوحشة بينهما . وعزم الكامل على المسير الى دمشق لأخذها من ابن أخيه متعللا في ذلك بأنه ظلم الناس ، وأخذ أموالهم ، وانغمس في اللهو ، وأعرض عن مصالح الدولة . فاعد نفسه للخروج وأتاب عنه في مصر ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما علم الناصر داود بخروج الملك الكامل في شعبان سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م التجأ الى عمه الأشرف موسى ، ولكن لم يلبث ان تعاطف الأشرف موسى مع الملك الكامل واتفقا على أخذ دمشق منه ، وأعطائه حران والرها والركة ورأس عين من بلدان الأشرف الذي يأخذ دمشق . وأخذ العادل والأشرف يوزعان الممالك بين الملوك والأمراء ، ومع ذلك وقف الأمير عز الدين أيبك أكبر أمراء الناصر داود وتصدى لما أعلنه الأشرف ، ووافق الناصر داود ودخلا دمشق للتحصن بها والدفاع عنها ، وحاصر الأشرف دمشق ، وفي غمار هذا الخلاف بين البيت الأيوبي داهم الصليبيون البلاد بمجيء الحملة السادسة .

الحملة الصليبية السادسة :

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل - كما رأينا - وعاشت الإمارات الصليبية في الشام في أعقابها فترة من القلق والاضطراب ، وأخذت البابوية وملوك الغرب الأوربي يفكرون في ارسال حملة جديدة ترد لهم اعتبارهم ، وتمحوا روح اليأس وتزيل خيبة الأمل التي أصيب بها الصليبيون في الشام . ولكن كيف السبيل الى ذلك والغرب المسيحي يعاني في تلك الفترة (النصف الاول من القرن الثالث عشر) من مشاكل داخلية تجسمت في الخلاف بين البابوية والامبراطورية المقدسة ، التي كان على رأسها الامبراطور الألماني فردريك

الثانى (١) ، الذى كان مدينا للبابوية فى اعتلائه عرش الامبراطورية وتخلّصه من خصمه اتو الرابع فى عام ١٢١٤م (٦١١ هـ) .

ويبدو عدم اهتمام فردريك بغضب البابوية انه بمجرد ان استقر نفوذه فى المانيا ضم اليه صقلية وجنوبى ايطاليا فهدد بذلك مصالح البابوية فى عقر دارها خصوصا عندما حاول أن يمد سلطانه الى شمال ايطاليا ، فخاف البابا على املاك البابوية وزاد من خوفه ما اشتهر به فردريك من سلوك خاص وما انغمس فيه من مبادل شهوانية بجميع انواعها مما يعتبر صدمة عند المستويات المنحلة فى الشرق المسيحى . فالامبراطور فردريك لم يف بوعوده التى سبق أن قطعها على نفسه للبابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٥م / ٦١٢ هـ . من حيث قيامه بحملة صليبية على الشرق ، وعلى الرغم من انه جدد هذا الوعد عندما توج امبراطورا سنة ١٢٢٠م فى كنيسة القديس بطرس بروما فانه لم يفعل ، ثم ان نتائج الحملة الخامسة وما اصبحت به من فشل جعل البابوية توجه اليه النقد باعتباره احد الاسباب التى أدت الى هذه النتيجة لعدم خروجه فى حملة لمساعدة الصليبيين للاستيلاء على مصر .

ومما يشير الى سوء احوال الغرب الاوربى فى تلك الفترة أن يوحنا دى برين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية توجه مباشرة الى روما سنة ١٢٢٢م / ٦١٩ هـ ليعرض على البابا والامبراطور فردريك حقيقة احوال الصليبيين فى الشرق الاسلامى ويحثهما على ارسال حملة صليبية جديدة ، ويطلب ان كل ما تستولى عليه الحملة الجديدة من بلاد ومدن يعطى لمملكة بيت المقدس (٢) ووافق البابا على ما طلبه . كما أرسل فردريك بموافقته ، ثم واصل الملك يوحنا دى برين رحيله الى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوجست وفى أثناء تلك الفترة ظهرت فكرة زواج يولاندا (١٧ سنة) ابنة يوحنا دى برين والملكة الشرعية لمملكة بيت المقدس ، لان اباها يحكم بالوصاية فقط ،

(١) عن حياة فردريك راجع ما ذكره رنسيما ، ج ٣ ص ٣١٠-٣١٥

(٢) رنسيما : ج ٣ ص ٣٠٩

بالامبراطور فردريك الثانى (٣٥ سنة) الذى توفيت زوجته منذ اربعة شهور . وتم هذا الزواج سنة ١٢٢٥م ، وتعهد للمرة الثالثة بأنه سيخرج فى حملة صليبية الى الشرق بعد عامين ، ووضع ضمانا لذلك قدره مائة ألف أوقية من الذهب فى خزانة البابوية بروما (١) ومع ذلك لم يفعل ، فادى ذلك الى وجود توتر بين الجانبين ترتب عليه اعاقه سير الحملة فى موعدها وتأجلت الى حين .

رحيل فردريك الثانى الى الشرق (١٢٢٨ م) :

أخذ الصراع يطفو على سطح الاحداث بين فردريك وبين اللومبارديين ، لانهم لم يقبلوا بسيطرة الألمان عليهم فى شمال ايطاليا ، ولكى يحقق فردريك أهدافه اتجه لارضاء البابوية ، وأظهر حماسا كبيرا للخروج فى حملة صليبية للشرق ، ولسوء حظه فان البابا انوسنت الثالث توفى فى مارس سنة ١٢٢٧م / ٦٢٥هـ واعتلى كرسى البابوية جريجورى التاسع ، الذى كان أشد صرامة وقسوة من ابن عمه انوسنت الثالث ، وكان يكره فردريك لاختلاف طباع كل منهما ، وصمم على خروج فردريك الى الشرق .

كان فردريك قد أرسل جموعا كثيرة من جنوده الى المدن الصليبية على ساحل الشام ، ثم خرج هو على رأس أسطول كبير ، ومعه عدة آلاف من الفرسان المحاربين ، ولكن فردريك أصيب بالمرض فترك الاسطول وذهب للاستشفاء فى العيون المعدنية بمدينة (بوتشولى) ، وأمر الاسطول بالابحار الى عكا تحت قيادة هنرى الرابع دوق ليمبودج ، ولما علم البابا أصدر قرار الحرمان ضد فردريك فى نوفمبر سنة ١٢٢٧م ومع ذلك أبحر فى آخر يونيه ١٢٢٨م فوصل الى عكا فى أوائل نوفمبر ، وكان الملك الكامل يعسكر بجنوده على تل العجول بالقرب من غزة ، ويبدو أنه أحس بالندم لمجىء

(١) رئيسمان : ج ٣ ص ٣١٥ ، عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٩٤ .

فردريك بعد ان توفى المعظم عيسى ، لانه لم يكن راغبا في التفريط في بيت المقدس (١) .

ترددت الرسل بين فردريك وبين الملك الكامل (٢) الذى سبق ووعده بالقدس الشريف وبعض ما فى ايدى الأمراء المسلمين ، ومن الطبيعى أن يضغط فردريك على هذه الناحية النفسية عند الكامل ، فأخذ يردد له فى مكاتباته ان مصلحة المسلمين تقتضى ان يبدلوا كل شئ للصليبيين ، حتى لا يضطر هو الى المجىء ويذكره بأنه سبق له أن بذل لنائبه أثناء حصار دمياط مدن الساحل كله ، واطلاق الحقوق والامتيازات بالاسكندرية . . . ثم يختم كتابه بقوله : ونائبى هو أقل غلمانى ، فلا أقل من اعطائى ما كنتم بذلتموه له (٣) . والمدقق فى معنى هذا الكلام يجد ان فردريك لجأ الى التهديد الخفى ، فى تعبيره ان مصلحة المسلمين . . . ، ثم يذكر الكامل باستعداده لتقديم القدس وغيره عند حصار دمياط الى قائد الحملة الخامسة ، وهو أقل القواد عند فردريك فلا بد أن يكون ما يقدمه الكامل له أكثر مما كان عرضه من قبل ، باعتباره الامبراطور نفسه ، ومعنى ذلك ان فردريك لم يكن فى نيته مطلقا مساعدة الكامل فى نزاعه ضد اخوته ، وانما كان يعمل لمصلحة الغرب المسيحى أولا ، ولإصلاح موقفه مع البابوية على حساب المسلمين ثانيا . ولكى يعزز فردريك موقفه ويلعب بأعصاب الكامل ليخضعه لمطالبه قام بمظاهرة عسكرية فى نهاية نوفمبر سنة ١٢٢٨ م ، سار فيها على رأس حشد كبير من جيشه فدخل يافا ، وأمر بتجديد استحكاماتها (٤) . بالإضافة الى انه أصلح استحكامات صيدا من قبل (٥) .

٩ وربما ساعد فى حرج الملك الكامل وضعف مركزه أمام الامبراطور ما قام

-
- (١) رنسيماں : نفسه ص ٣٢٨ .
 - (٢) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٤٨٢ .
 - (٣) المقرئى : ج ١ ص ٢٦٦ .
 - (٤) رنسيماں : ج ٣ ص ٣٢٩ .
 - (٥) المقرئى : نفسه ص ٢٦٦ .

به الملك الناصر داود ، الذى خرج بجيش من دمشق قاصدا نابلس ، ليقطع خطوط التموين على عمه الكامل ، نظرا لما بينهما من صراع ، وانتهاز الصليبيون الفرصة فسلموا ونهبوا وأشاعوا الفساد فى هذه النواحي ، فاضطر الملك الكامل الى وقف ما بينه وبين فردريك من مفاوضات ومراسلات ، وقبل فردريك بتقديم تعويض عن الخسائر التى نجمت بسبب جنوده ، حتى يرضى الملك الكامل وتعود المفاوضات بينهما ،

ومع ذلك فان الظروف المحيطة بفردريك كانت شديدة القسوة ، وليست فى صالحه ، فقد وصلته الاخبار بأن البابا أصدر قرار الحرمان ضده فى أواخر سنة ١٢٢٨م للمرة الثانية . وسمح لرعايا الكنيسة فى أوربا أن تستولى على ممتلكاته ، وأشاعت البابوية أن فردريك قد مات ، ومن ثم فقد أصبح للبابا جريجورى الحق فى الوصاية على الامبراطورية لحين تنصيب امبراطور آخر . فاضطربت بهذه الاخبار نفس فردريك وفكر فى العودة الى بلاده ، ولكن خشى تضعف مركزه اذا لم يكن قد حقق للبابوية وللعالم المسيحى الغربى شيئا ، فاخذ يسعى جاهدا لاقناع الملك الكامل بتنفيذ ما وعده به من قبل واخذ يستعطفه ويلاحقه ، لدرجة انه أذل نفسه وأبدى خضوعه للملك الكامل فى سبيل أن يأخذ بيت المقدس منه ليكون الهدية التى يقدمها للبابا ولشعبه عندما يعود ، فكتب الى الكامل يقول : « . . . وأنا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تأمر به خروج ، وأنت تعلم انى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس فهو أصل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد خربوه فليس له دخل طائيل ، فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضه والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرفع راسى بذلك بين ملوك البحر » (١) .

(١) عاشور : الحركة ، ج ٢ ص ١٠١٠ مستندا الى :

Setton, op. cit., Vol. 2 p. 454.

راجع كذلك الصفدى : الواقى بالوفيات ، ذيل الباب الثانى والسبعون .

وقع الملك الكامل في حيرة كبيرة وعلم انه وقع في ورطة أكبر بوعوده لفردريك وأخيرا وافق على تسليم القدس فقط بدون مدن الساحل ، بشرط أن يظل على حالته من الخراب ، ولا تجدد أسواره ، ولا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة ، وأن تكون جميع القرى للمسلمين ، وعليها حاكم مسلم يكون مقره (البيرة) في شمال القدس ، وأن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى بأيدي المسلمين ، وشعار المسلمين فيه ظاهر ، ولا يدخلها الفرنج الا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين (١) ، ويقيمون فيه شعار الاسلام من الاذان والصلاة ، وأن تكون القرى فيما بين عكا ويافا ، وبين اللد والقدس بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس (٢) . ولكي يبرر الكامل ما وقع فيه من تفريط في مقدسات الاسلام وتهاونه فيما لا يملك من بلدان المسلمين أخذ يقول : « انا لم نسمح للفرنج الا بكنايس ودور خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الاسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع » . وكان من الطبيعي أن يقبل فردريك بما أحرزه من نصر بدون حرب ، وأن يحصل من الكامل على ما فشلت فيه ثلاث حملات صليبية تكلفت الكثير من الارواح والاموال وهى الحملات الثالثة والرابعة والخامسة . وبذلك تم توقيع الهدنة وبدأ تنفيذها يوم ٢٨ ربيع أول ٦٢٦هـ / فبراير ١٢٢٩م ، ومدتها عشر سنين ، وستة شهور . وقد برر الكامل هذا التهاون من جانبه انه ان لم يف للامبراطور بما وعده به فسوف يفتح عليه بابا للحرب مع الفرنج ، ويتسع عليه الخرق ، ولذلك لجأ الى أن يرضيهم بمدينة القدس خرابا ، ويهادنهم مدة ، ثم انه قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء (٣) .

(١) ابن واصل ، ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) المقرئى : ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) المقرئى : ج ١ ص ٢٦٨ .

ويبدو ان فردريك احس بما في قلوب المسلمين والمسيحيين الصادقين من سكان القدس من مرارة (١) بسبب استيلائه على بيت المقدس ، فأراد ان يخفف على الملك الكامل فقال للامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ - الذى كان يتفاوض باسم الكامل - « انه يعتذر ولولا انه يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، وانه ما له غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » (٢) .

دخل فردريك الى القدس في ١٧ مارس ١٢٢٩م في قلة بالغة من البارونات وعدد محدود من الألمان والايطاليين ، واستقبله عند الباب قاضى نابلس شمس الدين فلسمه مفاتيح المدينة ، وأخذ يتجول في المزارات وشاهد قبة الصخرة والمسجد الاقصى وأبدى شديد اعجابه بهما . وقد وقف على ما دونه صلاح الدين الايوبي من نقش بالفسيفساء على القبة من حيث انه طهر هذا المسجد من الملحدين (٣) . فتبسم متسائلا : من يكون هؤلاء الملحدون ؟ ولكنه أدرك ما فى تساؤله من سخرية وربما احراج لمن معه من المسلمين فعقب بقوله : والان قد بعث الله لكم الخنازير . وهى اشارة لما يستعمله عامة المسلمين على اليهود والكفرة (٤) .

ثم تعاقبت الاحداث الخاصة بفردريك وموقف الصليبيين فى عكا منه لانه توج نفسه فى كنيسة القيامة بالقدس ، ولانه محروم بقرار البابا ، ولانه ليس له الصفة الشرعية فى ابرام اتفاق بدون رضاهم ، ومع ذلك عاد فردريك الى بلاده بعد أن حقق أسمى هدف فى حياته وهو الاستيلاء على القدس وعفت البابوية عنه واسقطت قرارات الحرمان السابقة سنة ١٢٣٠م / ٦٢٨هـ وتم

(١) راجع ما ذكره رنسيما (ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها) فى هذا المصد .

(٢) المقريزى : نفسه ص ٢٦٩ ، وابن واصل : ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) كان فردريك يجيد ست لغات من بينها اللغة العربية التى درس بها الفلسفة . ٩

(٤) رنسيما : نفسه ، ص ٣٣٥ .

الصلح بينه وبين البابا في سان جرمانو وبذلك توقف الصراع بين الجانبين مدة عشر سنوات .

الملك الكامل وتوحيد الدولة الأيوبية ١٢٢٩م :

اطمان الملك الكامل بعد اتمام الهدنة بينه وبين فردريك ، ولم يعبا بما أصاب المسلمين من حزن وأوجاع نفسية ومعنوية ، فاتجه لما يحدث بين افراد البيت الايوبى ، وكان أخوه الملك الاشرف موسى محاصرا لمدينة دمشق التى للملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، فلما وصل الكامل شدد عليها الحصار ، وعظم الخطب على أهلها ، وكان صاحبها الناصر داود لا يملك المال الكافى للاتفاق على جنوده ، فاضطر الى بيع حلى نسائه وملابسهن . ولما لم يجد ذلك نفعا ، خرج الى عمه الملك الكامل ، ووافق على تسليم دمشق له ، وقلعة الشوبك ، على أن يبقى في يده الكرك والغور وبيسان ونابلس (١) .

فتحت دمشق أبوابها فى أول شعبان سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ووضع الكامل نائبا من قبله عليها ، الى أن تسلم من أخيه الملك الاشرف موسى ما كان الاتفاق تم عليه بينهما وهو (حران ، والرها ، والرقه ، وسروج ، ورأس العين من بلاد الجزيرة) فسلم دمشق له فدخلها وأقام بها وارتحل الملك الكامل الى ديار الجزيرة حيث دبر أمورها وقواعدها وأقام العسكر بها لحمايتها ثم عاد الى مصر (٢) .

وفى أواخر شهر رمضان ضم الملك الكامل مدينة حماة اليه ، لان صاحبها الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر كان قد توفى ، وأوصى بملكه لابنه الأكبر الملك المظفر الذى تزوج بالخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل . وابن الابن الثانى وهو قلج أرسلان والملقب صلاح الدين استولى على حماة وعلى

(١) ابن الاثير : ج ١٢ ص ٤٨٤ ، وابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٢) المقرئى : ج ١ ص ٢٧٥ .

(م ١٥ - صلاح الدين)

قلعتها . . . فارسل الملك الكامل اليه أن يسلم البلد الى أخيه الأكبر كوصية والدهما ، فلما رفض ، خرج الكامل بجيشه في ٣ رمضان وضرب عليها الحصار واستولى على المدينة وجعلها في يد الملك المظفر (١) .

خمدت حدة الحروب بين الايوبيين والصليبيين في الشام ، وحرص الايوبيون من جانبهم على عدم اثارتهم في تلك الفترة (١٢٢٩ - ١٢٣٦) التي نحن بصدها ويرجع السبب في ذلك الى تخوفهم من السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه لان الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية في بغداد ، بل دأبوا على محاكاة المغول في تدمير البلاد التي يغزونها أو التي يمرون منها ، حتى ولو كانت هذه البلاد اسلامية .

ويبدو لى أن الملك الكامل حينما استبدل دمشق مع أخيه بمدن الشرق كان يهدف للتصدي للاغارات المتوالية على هذه المناطق من جانب السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، خصوصا انه حاصر خلاط ستة شهور الى أن فتحها واستولى عليها في ابريل ١٢٣٠م/٦٢٧هـ ، وقد اعتدى جنوده على الأهالي بوحشية وفظاظة (٢) ، ويقال ان زوجة الملك الاشرف موسى كانت من بين الاسرى (٢) . ثم تقدم جلال الدين بجنوده ليهاجم السلاجقة .

افزعت سلوكيات الخوارزمية الهمجية حكام المسلمين في البلدان المجاورة ، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر الداهم ، وأسرع الملك الاشرف المسير وتحالف مع عدو الايوبيين السابق علاء الدين كيقيباد الاول سلطان سلاجقة الروم ضد الخوارزمية (٤) . وتجمعت عساكر الحليفين في سيواس ومنها زحفوا على خلاط حيث دارت المعركة بين الفريقين بالقرب من ارزنجان في أغسطس ١٢٣٠م/٦٢٧هـ . واصيب الخوارزميون

(١) ابن الاثير : نفسه ، ص ٤٨٦-٤٨٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٤٦ .

(٣) راجع ما ذكره أبو الفداء (المختصر) ، ج ٣ حوادث سنة ٦٢٨هـ (

عما ارتكبه السلطان نفسه من جريمة نكراء مع هذه السيدة .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٢٧٣ .

بالهزيمة الساحقة ، حيث قتل منهم أعداد كثيرة ، وفر السلطان جلال الدين مهزوما الى تبريز (١) .

نتيجة لهذه الموقعة استعاد الملك الاشرف خلاط ، وبعد زمن قصير تم عقد الصلح مع السلطان الخوارزمي جلال الدين ، ولكنه لم يلبث أن قتل بواسطة الاكراد سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م (٢) ، وبذلك تمزقت الدولة الخوارزمية وتششت شعبها في كثير من بلاد الشرق الاسلامي ، يعرضون خدماتهم على حكام البلدان الاسلامية مقابل ما يدفعونه من أموال .

لم تصف الحياة للملك الكامل على الرغم من اتمام الهدنة مع الصليبيين ، فقد عاد الصراع مرة أخرى بين افراد البيت الايوبي ، وانتهاز الصليبيون فرصة هذا الصراع وغاروا من وقت لآخر هنا وهناك على المدن الاسلامية ، كما صادفت الكامل بعض منغصات الحياة فقد وردت اليه الاخبار بوفاة ولده المسعود يوسف في مكة ، وكان عمره ستا وعشرين سنة وهو آخر ملوك اليمن من بنى أيوب ، وكان أبوه الملك الكامل قد استدعاه من اليمن ليوليه دمشق بعد وفاة المعظم عيسى (٢) ، فلما توفي حزن الكامل عليه حزنا شديدا .

كما انتهاز الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فرصة غياب أبيه عن مصر ، وتواجهه بالركة لمواجهة السلطان الخوارزمي الذي امتلك خلاط ، وحاول نزع أبيه من ملك مصر والاستيلاء على الحكم ، وكان قد مهد لذلك بشراء الكثير من المماليك الاتراك من بيت المال ، واستدان من تجار مصر فاختذ الكثير من الاموال ، فبعثت اليه زوجته أم الملك العادل تشكو اليه من ولده الصالح أيوب وتخبره بما عزم عليه : « ومتى لم تتدارك البلاد ، والا

(١) المقریزی : ج ١ ص ٢٧٧-٢٧٩ .

(٢) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٥١ .

(٣) الخزرجي : العقود ، ج ١ ص ٣٠-٤٤ ، والقلقشندي : صبح ،

ج ٥ ص ٣٠ .

غلب عليها ، وأخرجني أنا وابنك الملك العادل منها « (١) فانزعج الملك الكامل لهذه الاخبار ، وزاد انزعاجه وغضبه عندما وصلتته الاخبار بأن ابنه الصالح أيوب هذا اشترى ألف مملوك ، فرحل مسرعا الى مصر وغضب على ولده وتغير منه وقبض على مجموعة من أصحابه وسجنهم ، والزمهم بدفع الاموال التي فرط فيها وخلعه من ولاية العهد .

واستغل الصليبيون هذه الظروف التي تحيط بالملك الكامل فاغاروا على حماة ، فخرج اليهم صاحبها الملك المظفر محمود بن المنصور والتقى بهم عند قرية يقال لها أفنون (٢) وأنزل بهم هزيمة واسعة ، ودخل المظفر حماة منتصرا في رمضان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م (يولييه) . كما أغار الصليبيون من قبل على بارين ونهبوا ما بها وسلبوا واسروا وسبوا ، وكانت بارين للناصر قلج أرسلان بن أخي الملك الكامل .

لم يكن خطر الخوارزمية هو الذي أقلق الملك الكامل وملوك الايوبيين ، وانما كان هناك خطر أشد تمثل في جحافل المغول حيث بدأ زحفهم سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م وتمكنوا من الاستيلاء على ارمينية وخلاط وكل مدن السلطان جلال الدين الخوارزمي ، وبذلك أصبح الطريق ممهدا أمامهم لغزو العراق والاستيلاء على ملك الايوبيين في الجزيرة وعلى ملك سلاجقة الروم في آسيا الصغرى .

كان الموقف العسكري يحتم على الملك الكامل وملوك الايوبيين أن يتحالفوا مع سلاجقة الروم ليقفوا جميعا ضد الخطر المغولي - كما تحالفوا من قبل ضد السلطان الخوارزمي - ولكن سلطان السلاجقة علاء الدين كيقيباذ (٣) استغل مقتل جلال الدين الخوارزمي لينتزع مدن خلاط والرها وحران (٤) من أيدي الايوبيين . وعندما أدرك الملك الكامل حقيقة نوايا

(١) المقرئى : ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) هكذا وقد ذكرها أبو الفداء (ج ٣ ص ١٤٧) أفيون .

(٣) حكم من ٦١٦-٦٣٤هـ / ١٢١٩-١٢٣٧م .

(٤) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٥٧ .

كيقباز سلطان سلاجقة الروم ، جمع عليه ملوك الايوبيين في الشام وعساكرهم وخرج في رمضان سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٤م لمنازلة السلاجقة في الاناضول ، فلما وصلوا الى (خرتبرت) (١) دخلوا في القتال مع السلاجقة الذين انزلوا الهزيمة بهم ، وحاصروهم كيقباز ، وكان الملك الكامل بالسويدا ، وقد أحس من ملوك الايوبيين بالتقاعس وعدم الرغبة في مواصلة القتال ضد السلاجقة ، لانهم فيما يبدو خافوا عاقبة ازدياد نفوذ الكامل وخشوا ان هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم ان يصبح من السهل عليه أن يقضى عليهم جميعا أو يستبد بهم ، ولذلك تأمروا عليه وانضموا الى عدوه السلطان كيقباز وكتبوا اليه في السر يعلنونه بانضمامهم اليه ضد أخيهم الملك الكامل . ولذلك اضطر الكامل الى الرجوع الى القاهرة في السنة التالية ، كما عاد ملوك الايوبيين كل الى بلده (٢) .

نتيجة لذلك استحكمت الوحشة بين الاخوين الكامل والاشرف في اواخر سنة ٦٣٤هـ ومستهل ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، حيث أصيب الاشرف موسى بمرض الدوسنطاريا وضعفت صحته جدا ، فعهد الى أخيه الصالح اسماعيل بن العادل - صاحب بصرى - ولكن لم ينته شهر المحرم من هذه السنة الا وتوفي الاشرف موسى عن عمر يقارب الستين عاماً ، وكانت مدة حكمه لدمشق ثمان سنوات وعدة شهور (٣) .

نتج عن وفاة الاشرف موسى أن أصبح أخوه الصالح اسماعيل حاكماً على دمشق وأراد أن تستمر حلقة التآمر على أخيهم الاكبر الملك الكامل ، ولكن الملك المظفر صاحب حماة خرج من هذه الحلقة وأخبر الكامل وانضم اليه ، وبذلك قويت جبهته .

(١) اسم ارمنى يطلق على حصن زياد ، من بلاد الروم ، في أقصى ديار بكر - ياقوت : المعجم ج ٢ ص ٤١٩ .
(٢) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٥٥-١٥٩ .
(٣) أبو الفداء : نفسه ص ١٦٠ .

استيلاء الكامل على دمشق ووفاته :

سار الكامل الى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وعساكرهما ، واستعد الصالح اسماعيل للحصار ، ووصلت اليه نجدات من حلب وحمص وأمر الصالح اسماعيل بحرق أسواق ومحلات العقبة ، وضرب الكامل بعساكره الحصار على دمشق في شدة برد الشتاء (جمادى الاولى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م) ولما وجد الصالح اسماعيل انه لا قدرة له على مواجهة الكامل سلم اليه دمشق (١) وعوضه الكامل عنها بعلبك والبقاع وبصرى . وأراد الكامل أن يؤدب أسد الدين شيركوه (الثانى) صاحب حمص لانه كان متزعمًا حلقة التامر ، فأمر عساكره بالمسير الى حمص ، كما كتب الى المظفر صاحب حماة أن يخرج بعساكره الى حمص ، فلما وصلت العساكر الى الرستن خاف أسد الدين شيركوه (الثانى) على نفسه وملكه فأرسل نساءه يتشفعن له عند الكامل فلم يلتفت اليهن (٢) .

ولكن الحياة لم تمهل الكامل اذ أصابه المرض وتوفى يوم ٢١ رجب / ٩ مارس ١٢٣٨م وكان عمره حوالى الستين عاما ، حكم مصر خلالها ٢٠ عاما نائبا عن أبيه الملك العادل و ٢٠ عاما سلطانا على مصر (٣) .

يعتبر الملك الكامل أعظم شخصية فى أسرة بنى أيوب بعد صلاح الدين فالى جانب صفاته الخلقية وحبه للعلم والعلماء . . . الخ فإنه تميز بكرامية للحروب وميله الى المفاوضات لحل المنازعات ، وكان يتجنب العقبات التى تؤدى الى تعثر هذه المفاوضات ومع ان جمعا من المؤرخين وملوك الايوبيين أنكروا عليه ما عقده من اتفاق مع الامبراطور فردريك الثانى ، الا أننا نجد هؤلاء الملوك أنفسهم عقدوا مثل هذه الاتفاقيات مع الخوارزمية ثم مع سلاجقة الروم . على أن قلة من المؤرخين ترى أن شخصية الكامل وشخصية

(١) المقرئى : ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢) أبو الغداء : ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) المقرئى : نفسه ، ص ٢٩٩ .

فردريك كانتا تتفقان في كثير من الفهم والحكم على الاشياء ، فقد كانت تغلب عليهما شخصية الحاكم المثقف الادارى الذى يعنى باصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وانشاء المدارس والمعاهد أكثر من عنايته بالحروب ، وكان كل منهما لا يلجأ الى الحرب الا مضطرا . وقد نتج عن ذلك وجود حالة من السلم لم تكن معروفة من قبل في الحروب الصليبية ، حيث كان يسود في ذلك العصر روح التعصب الدينى والتذمت . . . وعلى ذلك يمكن تقبل القول بأن شخصيتهما وثقافتهما وعقليتهما كانتا تسبقان العصر الذى عاشا فيه . وكما يقول Kantrowitz مؤرخ فردريك الثانى كان الملك الكامل صورة شرقية من الامبراطور ان لم يكن أقرب الى الصحة أن نقول ان الامبراطور كان صورة قريبة من السلطان الملك الكامل (١) . ومع قبولنا لهذا الراى الا أننا نقصره على الجانب العسكرى والسياسى ، لان هناك اختلافا كبيرا بين الرجلين فى سلوكهما ونشاطهما وحياتهما وهذا ثابت فى المراجع التاريخية .

ولم يكن جنوح الملك الكامل الى الجانب السلمى ناتج عن ضعف أو عدم قدرة فى الجانب الحربى ، فقد أثبتت الاحداث التاريخية ان الكامل كان دائما يخرج من معاركه ضد الصليبيين منتصرا وظافرا ، يحدث ذلك كذلك بالنسبة للسلاجقة وملوك البيت الايوبى الذين تأمروا عليه .



الفصل العاشر

ضعف الدولة الأيوبية وسقوطها

تولى الملك العادل الثانى بن الكامل السلطنة باعتباره وليا للعهد ونائبا عن أبيه فى مصر ، أما أخوه الأكبر الصالح أيوب فقد كان نائبا على اقاليم الشرق وديار بكر . وقد رأى الامراء الذين التفوا حول العادل الثانى لصغر سنه ، لانه لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ، أن يكون ابن عمه الملك الجواد يونس نائبا عنه فى دمشق . وقد ترتب على هذا الوضع شرخ فى كيان البيت الايوبى ، نظرا للمصراعات التى ظهرت على مسرح الاحداث ، والتى بدأت فى عهد الملك الكامل . فالملك الناصر صلاح الدين يوسف - صاحب حلب - لم يعترف بسلطان العادل الثانى ، ولم يقبل الصالح أيوب بهذا الوضع فتحرك بعساكره الى دمشق ودخلها فى جمادى الآخرة سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م فخرج اليه الملك الجواد يونس واتفق معه على مقايضة دمشق بسنجار وعانه (١) لان الجواد يونس لم يكن قادرا على ادارة شئون الشام ، كما انه كان يخاف من الملك العادل الثانى أن يأخذ دمشق منه (٢) . ثم ان الملك الصالح أيوب كان يرثى الى الاستيلاء على مصر واخراج أخيه العادل الثانى منها . وطلب من عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك أن يؤيده فى ذلك .

توجه الملك الصالح أيوب الى نابلس واستولى عليها ، كما استولى على الكرك ، فذهب صاحبها الملك الناصر داود الى مصر ودخل فى طاعة وخدمة العادل الثانى ، وكان الناصر داود يطمع هو الآخر فى الاستيلاء على مصر ، والقضاء على العادل الثانى الذى اكرمه واحسن استقباله - وكان الصالح

(١) تقع بين الرقة وحيث ، وهى من أعمال الجزيرة ، وتطل على الفرات ، راجع ابن تغرى بردى : النجوم : ج ٦ ص ٣٠٥ ،
(٢) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٦٣ ،

اسماعيل يطمع هو الآخر في الاستيلاء على دمشق من يد الصالح أيوب ، ولذلك لم يستجب لما طلبه منه من تأييد ضد أخيه العادل الثانى . وقد تمكن الصالح اسماعيل من الاتفاق مع أسد الدين شيركوه (الثانى) صاحب حمص وسارا معا بعساكرهما ودخلوا دمشق في أواخر صفر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م . وعندما وصلت هذه الاخبار للصالح أيوب في نابلس اضطرب امرؤه وخافوا على عائلاتهم ، فأنصرفوا اليها وتركوا الملك الصالح أيوب في قلعة من أتباعه (١) ، وسمع الملك الناصر داود وهو بالكرك بهذه الاخبار ، فنزل على نابلس وقبض على الملك الصالح أيوب وأمر باعتقاله في الكرك ، وبذلك تفرق أتباعه عنه . وقد حاول الملك العادل الثانى أن يأخذ أخاه الصالح أيوب ويدفع للناصر داود مائة ألف دينار فلم يوافق ، وكاتبه بعد ذلك بعض أمراء البيت الايوبى لكى يرسل الصالح أيوب الى مصر لانه كان يخشى منه على ملكه ، ولكن الناصر داود أصر على الرفض ، على ان الناصر داود أفرج عن الصالح أيوب في ١٧ رمضان ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م فاجتمع عليه عساكره ومماليكه الذين كانوا عند الناصر داود .

استرداد بيت المقدس من الصليبيين :

حاول الخليفة العباسى أن يصلح بين أمراء البيت الايوبى ولكن باءت محاولته بالفشل . ولعبت الظروف المحيطة بالدولة الايوبية دورها اذ انتهت مدة الهدنة التى كان الملك الكامل قد عقدها مع الصليبيين في تلك الفترة (١٢٣٩ - ١٢٤٠م) وقد أفاد الصليبيون من صراع أمراء البيت الايوبى ، فاقاموا الاستحكامات في بيت المقدس مخالفين بذلك نصوص المعاهدة التى وقعها فردريك الثانى ، كما طردوا المسلمين من القدس ، وقد انتهز الملك الناصر داود فرصة مخالفة الصليبيين لنصوص المعاهدة فأسرع بدخول بيت المقدس واستولى عليه بحجة نقضهم لشروطها ، وخرب القلعة وبرج داود (٢) .

(١) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٦٥ .

(٢) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة ، ورنسيمن : ج ٣ ص ٣٧٦ وما بعدها .

أحدث تملك المسلمين لبيت المقدس في يناير ١٢٤٠م صدمة للصليبيين ، وبعد مناقشات فيما بينهم استقر رأيهم على التوجه الى عسقلان لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها ، وبعدها يقصدون الى دمشق باعتبارها مركز التجمعات الاسلامية في بلاد الشام (١) .

توجه الصالح أيوب والناصر داود الى بيت المقدس ليحلفا يمين الاخلاص والوفاء على أساس أن يكون الصالح أيوب سلطانا على مصر ، وان يحكم الناصر داود الشام واقليم الجزيرة . كان من نتيجة هذا التحالف أن توثقت علاقات العادل الثاني مع الصالح اسماعيل أمير دمشق ، واستعدا معا لمنازلة خصومهما ، وخشى الصالح أيوب والناصر داود من هذا التقارب ، فلجأ كل منهما الى الكرك حتى لا تقع قواتهما في يد قوات مصر ودمشق (٢) .

خرج الملك العادل الثاني بقواته وضرب معسكره في بلبس ، وانتهاز امراؤه هذه الفرصة ليتخلصوا منه ، بسبب انه أساء السيرة في امرائه وحاشيته ، وتقدم الجنود الأتراك وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه في ٩ شوال سنة ٦٣٧هـ / ٣ مايو ١٢٤٠م ، وأرسلوا الى الصالح أيوب يدعونه للقدوم الى مصر ، فوصل ومعه الناصر داود وبعض الامراء الى بلبس في الرابع والعشرين من ذى القعدة ، ونزل في خيمة الملك العادل الثاني (٢) . ولم يلبث ان دخل الصالح أيوب القاهرة وأخذت أموره في الاستقرار وخاف الملك الناصر داود ان ينقلب الملك الصالح عليه فيعتقله ، فاستأذن وعاد الى امارته في الكرك ، خاصة وان الصالح أيوب أمر بحبس أخيه العادل بقلعة الجبل .

اعمال الملك الصالح أيوب في مصر :

وجد الصالح أيوب أنه في مسيس الحاجة الى الاموال لتستقر أمور

(١) Stevenson; The Crusaders in the East, p. 317.

وكذلك عاشور : الايوبيين والمماليك ، ص ١٢٧ .

(٢) المقرئى : ج ١ ق ٢ ص ٢٩٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٣١١ ، وبو الفداء :

نفسه ، ص ١٦٦ .

دولته ، فلجأ الى مصادرة أموال الموظفين بعد أن اتهمهم بتبديد الاموال العامة ، لأنهم التفوا حول الكامل وأسرفوا في صرف الاموال وتبذيرها في أمور لا تتعلق بمصلحة الدولة ، وبهذه الوسيلة جمع نحواً من ٧٥٠ ألف دينار والفي ألف وثلاثمائة ألف درهم (١) ، ومع ذلك لم يفرج عنهم ، بل ظلوا في الحبس .

قام الصالح أيوب بتطهير الجيش من العناصر التي يمكن أن تنقلب عليه فأمر بالقبض على العناصر التي تمردت على العادل الثاني واعتقلته وعزلته لأن هذه العناصر من السهل عليها أن تعيد المحاولة مرة أخرى مع الصالح أيوب نفسه .

ثم ادخل طائفة من المماليك الاتراك المواليين له في الجيش بدلا من الذين أعفاهم ومع ذلك كان شديد الحرص على نفسه ، وخشى البقاء في القلعة ، فلجأ الى جزيرة الروضة وبنى بها قلعة خاصة له وأقام بها بعد أن حصنها بسور يحيط بها وبقصره ، وقد تكلف بناء القصر والقلعة أموالا طائلة .

دفعت الكراهية الصالح اسماعيل - صاحب دمشق - أن يطلب المساعدة من الصليبيين ضد السلطان الجديد الصالح أيوب في مصر ، والناصر داود في الاردن وتعهد لهم باعادة بيت المقدس اليهم ، واعادة المملكة الصليبية كما كانت عليه من قبل ، ولكي يبرهن الصالح اسماعيل على حسن نيته للصليبيين أسرع بتسليم شقيف أرنون وصفد والقدس وطبرية وعسقلان لهم ، بالإضافة الى بعض الحصون في الشام والتي كانت بأيدي المسلمين (٢) .

وإذن الصالح اسماعيل للصليبيين أن يدخلوا الى دمشق لشراء المؤن والاسلحة لجيوشهم ، فانكر المسلمون ذلك ، وأعلن الفقهاء بأن هذه التجارة

(١) أثبتنا هذا الرقم كما هو من المقرري (نفسه ، ص ٢٩٨) بعد أن وجدناه شائعا في كتب المؤرخين وأن كان البعض منهم حوله الى الرقم الحسابي المعتاد فكتبه ٢٣٠٠.٠٠٠ دينار ولكننا نجد المبالغة واضحة لان مثل هذا الرقم من الدراهم يصبح أقل كثيرا عند تحويله الى دنانير .
(٢) المقرري : ج ١ ص ٣٠٣ ، وأبو الفداء : ج ٣ ص ١٧٢ .

تخالف التشريع الاسلامى ، ونتيجة لذلك التجأ بعض العلماء الى مصر اعلانا عن غضبهم .

وقد خرج الصالح اسماعيل بعساكره ومعه الملك المنصور ابراهيم بعساكر حمص وحلب وغيرها ، وساروا الى البلقاء حيث قابلوا الناصر داود بعساكره ، فأنزلوا الهزيمة به ، واستولوا على أسلحته ، وأسروا جماعة من أصحابه . فقوى مركز الصالح اسماعيل بهذا النصر ، وأراد أن يهاجم مصر ، فرحل حتى نزل على تل العجول (بالقرب من غزة) .

قام الصليبيون بتحصين قلعتى طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بين يافا وعسقلان استعدادا للخطوة التالية ، وقد وعدهم الصالح اسماعيل بأنه اذا تملك مصر أعطاهم جزءا منها ، ففرحوا واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر (١) وانضموا الى عساكر الملك الصالح اسماعيل وحلفائه .

عندما بلغت هذه الاخبار للملك الصالح أيوب استعان بالخوارزمية الذين انضموا الى جيش مصر بقيادة ركن الدين بيبرس مملوك الصالح أيوب ، والتقى الفريقان بظاهر غزة ، وفى بداية القتال انضمت القوات الشامية التابعة للصالح اسماعيل ، والمنصور ابراهيم الى قوات الصالح أيوب ، لان الشاميين رفضوا فكرة طعن اخوانهم المصريين ودارت رحى الحرب على الصليبيين ومن معهم من الحلفاء وهزموا هزيمة منكرة ، وقتل منهم أعداد كثيرة ، وأرسلت أسراهم الى القاهرة ، وانسحب الصليبيون الى عسقلان وعقدوا الصلح مع الملك الصالح أيوب سلطان مصر (٢) (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) .

ترتب على موقعة غزة وانضمام عساكر دمشق الى القوات المصرية وازدياد كراهية أهل دمشق للصالح اسماعيل ، ان أعلن الصالح اسماعيل الخطبة باسم سلطان سلاجقة الروم ، ثم أعادها فى العام التالى باسم سلطان

(١) ابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٢) المقرئى : ج ١ ص ٣٠٥ .

مصر . وتم الاتفاق بين الصالح اسماعيل ، والصالح ايوب على انتزاع امارة الكرك من الناصر داود (١) وأن تضم الى سلطنة دمشق . وأن تكون خطبة الجمعة باسم سلطان مصر وان ينقش اسمه على السكة ، ومع ذلك أخل الصالح ايوب بشروط الوفاق في اللحظات الاخيرة ، لانه حرص الخوارزمية على مهاجمة دمشق .

اغارت الخوارزمية على دمشق وكانت أعدادها تربوا على ١٠ الاف مقاتل وإشاعوا الذعر والاضطراب والخراب والدمار في الأماكن التي مروا بها حتى استولوا على طبرية ونابلس واتجهوا الى بيت المقدس ، وأدرك الصليبيون ما يحيط بهم من الخطر ، فسارعوا ومعهم الداوية والاسبترارية الى تعزيز حصونهم ولكن الخوارزمية اقتحمت هذه الاستحكامات ودخلت مدينة بيت المقدس يوم ١١ يولييه ١٢٤٤ / ٦٤٢هـ (٢) . وطلب الصليبيون النجدة من الملك الناصر داود صاحب الكرك ولكنه لم يفعل لهم شيئا سوى انه توسط لهم في الخروج لمن يرغب منهم من بيت المقدس ، فخرج حوالى ٦٠٠٠ قاصدين يافا في شهر أغسطس ، الا أن الخوارزمية انقضوا عليهم في الطريق فأبادوهم ، ولم يدخل يافا منهم سوى ٣٠٠ شخص (٣) . وبذلك ضاع بيت المقدس نهائيا من أيدي المسيحيين الغربيين ، ولم يقدر لأي جيش صليبي في عصر الحروب الصليبية أن يدخلها بعد ذلك ابدا حتى اندلعت الحرب العالمية الاولى (٤) (١٩١٤ - ١٩١٨) .

(١) ابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٢١ .

(٢) Calien; La Syrie du Nord pp. 648-649.

(٣) ابن تغرى بردى : نفسه ، ج ٦ ص ٣٢٣-٣٢٥ .

(٤) رنسيمان : مرجع سابق ج ٣ ص ٣٩٣ .

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية

بعد أن استعادت الخوارزمية بيت المقدس وبعض المدن الشامية من أيدي الصليبيين توجهوا الى غزة للانضمام الى القوات المصرية التي أرسلها الصالح أيوب باعتبار ما بينهما من تحالف . وفي هذه الأثناء اجتمعت جيوش الصليبيين وقوات دمشق وحمص والكرك قرب عكا ، واتجهوا نحو مصر لغزوها ، ف وقعت معركة عنيفة بينهم وبين الجيش المصري المكون من ممالك الصالح أيوب والخوارزمية في شمال شرقى غزة (في أكتوبر ١٢٤٤م / جمادى الاولى ٦٤٢هـ) وكان الصليبيون في ميمنة جيوش العدو ، وعساكر الكرك في الميسرة ، وعساكر حمص في القلب ، وهجمت هذه الجيوش على الجيش المصري والخوارزمية ، ودارت معركة شديدة العنف بين الجانبين قتل فيها من عساكر الشام والصليبيين ما يزيد عن ثلاثين الفا ، وأسر منهم نحو ثمانمائة رجل (١) .

ومع أن الجيش الصليبي في هذه الموقعة يعتبر أضخم جيش مسيحي اجتمع في ساحة قتال بعد موقعة حطين (٢) ، لدرجة ان المؤرخين أطلقوا عليها اسم (حطين الثانية) (٢) الا أن هذا الجيش قضى عليه خلال ساعات ، وقتل معظم قادته ، وأسر منهم مجموعة ، وهرب من استطاع الى ذلك سبيلا (٤) . وقد حصل الخوارزمية من الأموال والمغانم ما يجل وصفه ، وزينت القاهرة لهذا الانتصار العظيم .

كان الخوارزمية عقدوا الامال على الصالح أيوب بعد احرازهم هذا النصر مع القوات المصرية ، الا أنه أدرك خطورتهم وخاف على نفسه ودولته

(١) المقرئى : ج ١ ص ٣١٧ ، وابن كثير : البداية ، ج ١٣ ص ١٦٥ ، Setton; vol. II, p. 489

(٢) راجع ما ورد عنها في هذا الكتاب ، ص ١٢٤ وما بعدها .

(٣) Grousset; III, p. 415.

(٤) جوزيف : العدوان الصليبي ، ص ٥٠ ، رنسيان : ج ٣

ص ٣٩٥ .

منهم ، فلم يسمح لهم باجتياز الحدود للدخول الى القاهرة ، وتركهم يغيرون على المدن الصليبية حتى وصلوا الى قرب عكا ، بينما زحف الجيش المصرى على دمشق والكرك ، وقد استولى على القدس والخليل والأغوار من الناصر داود صاحب الكرك ، أما دمشق فقد استسلمت فى ٦٤٣هـ / أكتوبر ١٢٤٥م ، وأعطى الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى عوضا عنها (١) .

تحركت نفوس الخوارزمية ضد الصالح أيوب ، فاتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس الصالحى (٢) قائد جيش الصالح أيوب - ووعدوه أن يزوجه منهم - واقنعوه بالانضمام اليهم فقبل ذلك (٢) . وانضم اليهم الملك الناصر داود - صاحب الكرك - وبذلك تكون حلف جديد ضد الصالح أيوب ، ونجحوا فى أخذ نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار (٤) ، ومعنى ذلك أن الصالح أيوب يفقد كل البلاد التى أخذها واستولى عليها فى الشام وخصوصا القدس ، ثم ان دمشق سوف تصبح موطن الخطر عليه اذا قدر لهذا التحالف ان ينجح . وأخذ الصالح أيوب يضرب هؤلاء المتحالفين بعضهم ببعض ، فاتفق مع أهل حلب على محاربة الخوارزمية الذين كانوا يضربون الحصار الشديد على دمشق ، فانهكوا قواها لمدة ثلاثة شهور ، ثم استمال الصالح أيوب اليه الملك المنصور ابراهيم - صاحب حمص - فلما سمع الخوارزمية بذلك تركوا دمشق ورحلوا يريدون محاربة صاحب حمص ليضربوا هذا التحالف . ثم تمكن الصالح أيوب عن طريق الحيلة أن يستدعى اليه قائد جيشه السابق وأكبر مماليكه ركن الدين بيبرس الصالحى ، فلما عاد الى مصر اعتقله ثم أمر بقتله (٥) . وقد هزمت الخوارزمية على يد المنصور ابراهيم هزيمة قضت عليهم ولم تقم لهم بعدها قائمة فى المحرم ٦٤٤هـ /

(١) المقرئى : ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) راجع المقرئى : ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٢٥ .

(٤) المقرئى : ج ١ ص ٣٢٢ .

(٥) فى المقرئى (ج ١ ص ٣٢٣) فاعتقل بقلعة الجبل ، وكان آخر

مايو ١٢٤٦م ، وقتل مقدمهم بركة خان (١) . وانضمت فلول المنهزمين من الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح اسماعيل طريد دمشق ، ونزلوا على حلب ، فأكرم صاحبها الناصر يوسف بن العزيز الملك الصالح اسماعيل ، ولكنه قبض على الخوارزمية (٢) . وعندما وصلت هذه الاخبار الى الصالح أيوب زينت القاهرة ومصر والقلعتان (٣) .

وتم الصلح بين الصالح أيوب ، والمنصور ابراهيم ، والناصر يوسف ، وأصبح الصالح اسماعيل وحيدا ليس له بلد يأوى اليه ولا أهل ولا ولد ولا مال يعيش منه فنزل في ضيافة ابن اخته الناصر يوسف بن العزيز ، ودخلت بلاد الشام في حكم الصالح أيوب ، الذي خرج بالعساكر من قلعة الجبل في شوال ٦٤٤هـ / فبراير ١٢٤٧م وأتاب في مصر حسام الدين بن أبي على ، فوصل الى دمشق ودخلها في ١٧ ذى القعدة ، وكان دخوله اليها يوما مشهودا (٤) .

اتجهت عساكر الصالح أيوب عند عودتها من دمشق الى ما بقى من المدن الصليبية ، فاستولت على عمقلان بعد أن خربتها ، ودخلها جيش مصر في ١٢ جمادى الآخرة ٦٤٥هـ / ١٥ أكتوبر ١٢٤٧م وكانت العساكر قد استولت من قبل ذلك على طبرية ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين الى أبواب يافا (٥) . وبذلك استعاد الملك الصالح أيوب وحدة الدولة الايوبية ، وأصبح سلطانا على مصر ودمشق وبيت المقدس ، وأقام في دمشق خلال عامي ٦٤٦ - ٦٤٧هـ (نوفمبر ١٢٤٨ - أبريل ١٢٤٩م) حيث وفد عليه أمراء

(١) ابن كثير : ج ١٣ ص ١٦٧ ، والمقرئى : نفسه ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

(٢) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٧٥ .

(٣) القلعتان هما قلعة الجبل ، وقلعة الروضة التى انتقل اليها الصالح أيوب بالجزيرة - راجع ابن تغرى : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٤) راجع أعمال الصالح أيوب في دمشق في السلوك : ج ١ ق ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٥) العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٥هـ ، وأبو الفداء : ج ٣ ص ١٧٦ ، ورثسيمان : نفسه ص ٣٩٩ .

البيت الايوى وأعلنوا طاعتهم له ، كما انه زار بيت المقدس بعد أن رجع الى أحضان الدولة الاسلامية ، وأمر بتجديد عمارته وتقوية حصونه وأسواره (١) .

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

بعد هزيمة الصليبيين في معركة غزة في نوفمبر ١٢٤٤م ، ارتحل القس جاليران اسقف بيروت الى الغرب الاوربي ليطلب من ملوك أوروبا وامرائها باسم بطريرك بيت المقدس ارسال حملة صليبية جديدة لتقوية المملكة الصليبية حتى لا تسقط في يد المسلمين . وقد ازداد حماس البابوية لهذا الطلب خصوصا بعدما سقطت القدس في أيدي المسلمين (الخوارزمية والصالح أيوب) وأصبح رد الفعل قويا في الغرب الاوربي كما هو العادة عقب كل كارثة تصيب الصليبيين في الشرق الاسلامي .

وافق البابا انوسنت الرابع وملك فرنسا لويس التاسع على ارسال هذه الحملة وأعلن لويس التاسع أنه سيخرج على قيادتها طبقا لنذر قد نذره بسبب شفائه من مرض أصابه (٢) . واستمر لويس التاسع يجهز لهذه الحملة ثلاث سنوات ، وفرض ضرائب اضافية لكي ينفق منها على الحملة ، وعهد لأمه (بلانش) بالوصاية على عرش فرنسا أثناء غيابه ، ونجح في اقناع ملك انجلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه مع الحملة الصليبية (٣) . كما حمل ملك صقلية على التزام الهدوء والسلام . واتفق مع جنوده ومرسليا أن تقدما السفن اللازمة لنقل جنود الحملة ، ولم يقبل أهل البندقية الانضمام الى هذا الاتفاق ، نظرا لعلاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر ، وخوفا على مصالحهم فيها .

كان الملك لويس التاسع تباحث مع فردريك الثاني بشأن هذه الحملة ،

(١) Clahen; La Syrio du Nord; p. 650.

(٢) دنسيمان : نفسه ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٣) Joinville; Hist. de Saint Louis, Paris 1874, pp. 41-42.

باعتباره والد كونراد الملك الشرعى لبيت المقدس ، وكان من مصلحة فردريك أن تفشل الحملة للحفاظ على ملك ابنه كونراد ، فقام فردريك بنقل أخبار هذه الحملة الى الملك الصالح أيوب وأن كان قد تظاهر بالتعاطف معها (١) وكان الصالح أيوب مريضا في دمشق عندما بلغته هذه الاخبار ، فعاد الى مصر ، ونزل عند أشموم طنحاح ليكون على مقربة من مسرح الاحداث الحربية .

مسير الحملة :

خرجت الحملة من موانى فرنسا الجنوبية في أغسطس ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ وكانت حملة كبيرة وخطيرة بلغ عدد جنودها ٨٠ ألف جندي ، ٨٠٠ سفينة ، وأسلحة وعتاد بكميات لا تحصى ، وأبحرت السفن الى قبرص ، وصحب الملك لويس معه زوجته الملكة واثنان من اخوته هما روبرت أمير أرتوا ، وشارل أمير انجو ، ولحق بهم جموع من الامراء والدوقات الذين سبق لبعضهم الاشتراك في الحروب الصليبية واستقبلهم جميعا هنرى ملك قبرص بمظاهر الود والترحيب في سبتمبر ١٢٤٨م (٢) .

وفي قبرص نوقشت خطة الحملة ، ووافق الامراء جميعا على أن تكون مصر هى الهدف لأنها أخصب أقاليم الدولة الايوبية ، وأسهل منالا عند الهجوم اذ من الممكن ان يتنازل السلطان عن بيت المقدس ومدن الشام الساحلية في مقابل الجلاء عن دمياط كما حدث في الحملة الخامسة .

وفات الصليبيون انهم وقعوا في خطأ عسكرى كبير عندما أبحروا الى قبرص ، ومكثوا بها سبعة شهور تقريبا ، فقد أعطوا الفرصة كاملة للصالح أيوب أن يكمل استعدادات جيوشه لمواجهة هذه الحملة ، بعدما أعلمه بها فردريك الثانى .

(١) العيىنى : مرجع سابق ، ص ٢٠١ ، رنسيمان : نفسه ، ص ٤٤٢ ، والمقرىزى : المواعظ ، ج ١ ص ٢١٩ (ط . بولاق) .
(٢) Joinville, op. cit., pp. 46-47.

ويبدو أن الصليبيين قد استقر في عقولهم فكرة الاستيلاء على مصر باعتبارها الطريق الى احتلال بيت المقدس منذ الحملة الخامسة ، ولذلك كانت وجهتهم مصر كذلك في هذه الحملة السابعة .

كما يبدو لنا ان لويس التاسع أراد أن يقلد التتار في حروبهم بتحطيم نفسية عدوهم بالحرب النفسية والدعاية القوية والرسائل التهديدية والوعيد والمبالغة الى حاكم البلد الذى يفكرون فى غزوه حتى يستسلم بدون حرب .

تحركت السفن بالحملة من قبرص فى مايو ١٢٤٩م فوصلت الى مشارف دمياط فى ٤ يونيه (١) (٦٤٧هـ) ، وكان الصالح أيوب قد عهد الى الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وزيره بقيادة الجيش المصرى والتصدى للصليبيين ، نظرا لان المرض قد اشتد عليه مما يعوقه عن القيادة ، وكان الصالح أيوب قد شحن دمياط بالمؤن الوفيرة ، ورتب بها حامية من عرب كتانة المشهورين بالفروسية والبأس فى القتال (٢) .

بدأت المحلة الصليبية السابعة تنزل جنودها الى البر الغربى لفرع دمياط يوم ٢٠ صفر ٦٤٧هـ / ٥ يونيه ١٢٤٩م . وكان لويس قد أرسل الى الصالح أيوب رسالة شديدة اللهجة يذكره بموقف المسلمين السئ فى الاندلس ، ويطلب منه التسليم فورا ، وقد جاء فى هذه الرسالة : « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسيايف القضاء » فلما وصلت الرسالة الى الصالح أيوب ، وأحس بوطأة المرض عليه دمعت عيناه لعدم قدرته على مواجهة ذلك الغرور بنفسه ومع ذلك بعث رده على لويس التاسع يندد بغروره ، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين ويذره بأنه سوف يندم حيث لا ينفع الندم (٣) .

(١) رتسيمان : نفسه ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ ، Joinville, pp. 52-53.

(٢) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٣٨ .

(٣) المقرئى : نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، عاشور : الحركة الصليبية

ج ٢ ص ١٠٥٨ وما بعدها .

حاول فخر الدين يوسف قائد الجيش المصرى أن يمنع الصليبيين من النزول الى البر الغربى ، وتصدى لهم ، فنشبت معركة ضارية بين الفريقين ، لعب فيها الفرسان المقيمون فى المدن الصليبية بقيادة يوحنا ابلين أمير يافا دورا كبيرا ، وأبدوا من البسالة والاقدام ما أجبر الجيش المصرى وقائده المتقدم فى العمر على الانسحاب بعد أن تكبدوا كثيرا من الخسائر ، وتحت ستار الليل اجتاز المسلمون جسرا من السفن ودخلوا دمياط ، فلما رأهم أهل دمياط أصابهم الذعر ، واضطربت حامية المدينة ، فضعف قائد الجيش فخر الدين يوسف وترك المدينة وهرب ومعه المدنيون من أهلها بعد أن حطموا أسواقها وأشعلوا فيها النيران ، كما هرب بنو كنانة الذين عهد الصالح أيوب اليهم بالدفاع عن المدينة ، وتركوا أبوابها مفتوحة (١) ، وفاتهم عند فرارهم أن يحطموا جسر السفن الذى يربط دمياط بالضفة الغربية (٢) التى يعسكر الصليبيون عليها .

عبر الصليبيون النهر على الجسر الذى تركه المسلمون صباح يوم الاحد ٢٢ صفر ٦٤٧ هـ / ٦ يونيه ١٢٤٩م وساروا الى دمياط ، فلما رأوا أبوابها مفتحة وبدون حماية ، خافوا أن يكون فى الامر مكيدة ، وتمهلوا حتى تأكدوا من خلوها من الجند ومن الناس فدخلوها بدون مشقة ولا عناء ، مما أثار دهشتهم (٣) ، واستولوا على ما فيها من آلات ومؤن وأسلحة وأموال وأمتعة وغير ذلك (٤) .

يرى بعض المؤرخين (٥) ان الحملة وقعت فى خطأ كبير لانها لم تستفد من اخطاء الحملة الخامسة ، وكان ينبغى على الملك لويس التاسع أن يواصل زحفه الى داخل مصر للقضاء على الجيش الايوبى ، وردنا على ذلك أن

-
- (١) المقرئى : نفسه ، ص ٣٣٦ .
 - (٢) رنسيما : نفسه ، ص ٤٥٢ .
 - (٣) رنسيما : نفسه ، ص ٤٥٣ .
 - (٤) المقرئى : نفسه ، ص ٣٣٦ .
 - (٥) عاشور : الايوبيون والمماليك ، ص ١٤١ .

لويس افاد حقيقة من اخطاء الحملة الخامسة بدليل انه رفض ان يواصل زحفه ويبحر بهذا الاسطول الكبير ألا بعد ان تهبط مياه فيضان النيل ، حتى لا تجرف مياه الفيضان هذه السفن وتغرقها ، ثم انه كان مضطرا للانتظار حتى يصل اخيه الفونسو (كونت بواتو) بمدد جديد من فرنسا (١) ، لانه كان يتحسب ويخشى ان يمتد زمن الحملة في مصر ، فعمل على توفير المؤن اللازمة والميرة الكافية لجنود الحملة ، الذين قدرتهم المراجع ما بين ٥٠ ألف و ٨٠ ألف مقاتل . ويمكن القول ان لويس التاسع اخطأ اذ لم يتجه بالحملة الى الاسكندرية وينزل جنوده بها ، ثم يتقدم صوب القاهرة ، لان ذلك أيسر وأسهل ، ويبدو ان نابليون بونابرت تنبه لذلك أثناء الحملة الفرنسية على مصر فنزل بجنوده على الاسكندرية وتقدم منها الى القاهرة ، كما تنبه نلسون وقادة الجيش البريطانى الى ذلك كذلك عندما جاءوا لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢م ونزلوا على الاسكندرية أولا .

وصلت العساكر المصرية الى اشموم طنناح حيث يقيم الصالح أيوب ، فاشتد حنقه على قائد جيشه فخر الدين يوسف ووبخه وعزله ، ثم أمر بشنق الكنانية جميعا جزاء لهروبهم من المدينة وكانت كل امكانات الدفاع متوفرة لديهم بدرجة أكثر مما كانت عليه دمياط أثناء حصارها في الحملة الخامسة ، ومع ذلك صمد أهل دمياط ودافعوا عن مدينتهم ولم يفروا كما فعلوا في هذه المرة .

تحولت مدينة دمياط الى مدينة صليبية منذ الساعات الاولى التى وطئت فيها اقدام الفرنجة أرضها ، فقد حولوا مسجد المدينة الى كنيسة كما حدث سنة ١٢١٩م ، ووزعت عمائرهما على الطوائف الدينية العسكرية الثلاث ، ووزعت الاموال التى وجدوها على كبار رجال الحملة ، واعطى الجنويون والبيازنة سوقا وشارعا لكل منهما ، ووجد اقباط المدينة اليعاقبة من الملك

(١) رنسيما : نفسه ، ص ٤٥٣ .

لويس التاسع معاملة طيبة وعادلة (١) . كما قام الصليبيون بعد ذلك بتحصين اسوار المدينة ، وشحنوها بالمقاتلة .

انتقل الملك الصالح أيوب وحاشيته الى المنصورة ، ودعا عامة الناس الى جهاد الصليبيين ، فاجتمع عنده خلق كثير ، وبدأت العربان تغير على الصليبيين في اطراف دمياط ، ويأسرون منهم في كل مرة أعدادا غير قليلة (٢) . وفي نفس الوقت أخذ يعيد ترتيب جيشه ، وينظم شئون الدفاع عن مصر ، على الرغم من شدة المرض الذي أودى بحياته فيما بعد .

طالت مدة بقاء الصليبيين في دمياط نحو ستة شهور ، فادى ذلك الى ضعف الروح القتالية عند الجند ، وأخذت الاقوات والمؤن في النفاد ، وبدأت الامراض والابوئة تنتشر في معسكرهم . ولكن خفف من حدتها وصول الفونسو (كونت بواتو) الشقيق الثاني للملك لويس بالامدادات في أواخر اكتوبر ١٢٤٩م ، وفي ٢٠ نوفمبر تحركت جنود الحملة من دمياط متجهين الى المنصورة ، وبقي في المدينة حامية قوية ، مع الملكة زوجة لويس ، وبطريك بيت المقدس (٣) .

ويبدو أن الحظ لعب دوره في جانب لويس التاسع ، اذ توفي الملك الصالح أيوب في ٢٣ نوفمبر - بعد خروج الحملة بثلاثة أيام - (١٥ شعبان ٦٤٧هـ) وخسرت مصر والبلدان الاسلامية بفقده قائدا شجاعا في تلك الظروف الحرجة ، خاصة وأنه لا يوجد من يحل محله بسرعة في حكم البلاد وفي التصدي للغزو الصليبي .

(١) رنسيमान : نفسه ، ص ٤٥٣ .

(٢) راجع ما ذكره المقرئزي : ج ١ ص ٣٣٧ ، رنسيमान : نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٣) ابن تغري بردى : النجوم : ج ٦ ص ٣٣٣ وما بعدها .

Wiet: op. cit., p. 377.

كان الصالح أيوب شديد الميل الى العزلة ، كثير التجبر والتعاضم على أصحابه ، لا تتوفر عنده صفات السخاء والكرم ، الا انه كان سلطانا كفئا ذا همة عالية يعتبره المؤرخون آخر سلاطين الايوبيين وأعظمهم وأحسنهم رأيا وشجاعة بعد صلاح الدين (١) .

ومن المآخذ على الملك الصالح أيوب أنه اشتهر بروح التآمر ، ويبذر البعض ذلك الى أقاربه ونضالهم ضده طول فترة حكمه ، فكان مضطرا أن يقابل تأمرهم بمثله .

ولذلك أمر الصالح أيوب بحبس عدد كبير من امرائه دفعة واحدة ، وصادر ممتلكاتهم ومات في السجن ما يزيد على خمسة آلاف شخص ، ولم يعبا بالماليك الذين اتخذهم جندا له ، فأغرق منهم في النيل عددا كبيرا (٢) .

ولم يكن الناس يأمنون سطوته ولا يقدرّون على الاحتراس منه خاصة وأنه أمر بقتل أخيه الملك العادل (٣) ، ويعلل البعض ذلك بأن الصالح أيوب كان يخشى أن يعود العادل الى السلطنة بعد موته ، لاسيما وأنه أدرك قرب منيته بسبب مرضه بالسل ، وان ابنه توران شاه لا يصلح لشئ (٤) . ولكن مع كل ما يوجه الى الصالح أيوب فإنه قام بتشديد المبانى بما لم يقم به سلطان أيوبى قبله ، فمدينة الصالحية بالشرقية تنسب اليه (٥) ، وإذا كان معظم ما شيده الصالح أيوب قد اندثر ، فان جانباً واحداً من أحد هذه الآثار لا يزال باقيا وهو المدرسة الصالحية قرب خان الخليلي ، وهي أول مدرسة أعدت للدراسات الدينية على المذاهب الأربعة ، وقد دفن بها ، والكتابة المدونة على المقبرة يرجع تاريخها الى فترة وجود الصليبيين في المنصورة (٦) .

(١) ابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المرجع والصفحة .

(٣) راجع تفصيل ذلك عند المقرئى : مرجع سابق ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٥) أنه الفداء : ج ٣ ص ١٤٠ .

(٦) Wiet, op. cit., p. 379.

معركة المنصورة ١٢٥٠ :

كان توران شاه هو الابن الوحيد الباقي للصالح أيوب ، وكان نائباً عن أبيه في حصن كيفا وديار بكر (١) وكان أبوه لا يرى فيه خيراً لاستهتاره وعدم خبرته لدرجة انه كان يرى تسليم البلاد الى الخليفة العباسي المستعصم لعدم قدرة توران شاه على تحمل مسؤولية الحكم .

ومع ذلك أرسلت شجر الدر (٢) زوج أبيه الصالح أيوب تستدعيه للحضور ليتسلم الحكم ، وقامت هي بتصريف شئون الدولة والجيش ، وأخفت موت السلطان الصالح أيوب عن الجميع باستثناء الوزير القائد فخر الدين يوسف ، الذي أعاده الصالح أيوب الى عمله قبل موته ، وكذلك الطواشي جمال الدين محسن ، اللذان كتما الامر خوفاً من الصليبيين وأخذت شجر الدر تخرج الكتب والمناشير والمراسم وعليها علامة (توقيع) الصالح أيوب ، كان يكتبها خادم يقال له السهيلي (٢) فلا يشك احد في انه بخط السلطان .

ومع ذلك تسربت انباء عن موت الصالح أيوب ، ورأى الملك لويس التاسع أن يستغل هذه الفرصة السيئة التي تحيط بالبلاد وينزل بالمسلمين هزيمة مرة قبل أن يصل توران شاه ، وبعد مناوشات وهجمات على الصليبيين وسفنهم عبر البحر الصغير تمكنوا بواسطة أحد الأقباط ، الذي دلهم على مخاضة (٤) يعبرون منها مقابل ٥٠٠ دينار ، من عبور هذا البحر الذي وجدوا فوق مياهه الكثير من المصاعب . وتمكن الصليبيون من مهاجمة المسلمين في المنصورة على فجأة ، ولقى عدد كبير منهم مصرعهم قبل أن

(١) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة .

(٢) يقال انها أرمينية الاصل ، وكانت جارية للملك الصالح أيوب قبل أن يتزوجها : رنسيما : نفسه ص ٤٥٦ .

(٣) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٤٠ ، وقد ذكر المقرئ (ج ١ ص ٣٣٩) أن الصالح نجم الدين أيوب (علم قبل موته عشرة آلاف علامة يستعان بها في المكاتبات على كتمان موته) ونحن لا نميل الى هذا الرأي للمبالغة الواضحة ، ولأن الصالح كان المرض قد اشتد به كثيراً .

(٤) تسمى مخاضة سلمون : رنسيما : نفسه ، ص ٤٥٨ .

ياخذوا أسلحتهم ، وقتل قائد الجيش فخر الدين يوسف الذى خرج من الحمام على عجل وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس الدرع الواقى فالتف به جمع من الصليبيين وقتلوه ، وكان ذلك يوم ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ / ١٠ فبراير ١٢٥٠م (١) .

ولكن الصليبيين ارتكبوا حماقة اوقعت بهم هزيمة منكرة ، فقد تسرع فريق منهم بالهجوم والتوغل داخل احياء المنصورة ، ولم يلتفتوا الى أوامر لويس بضرورة التريث والانتظار حتى يأتى باقى الصليبيين ، وكان المسلمون قد قطعوا عليهم الطريق المؤدى الى دمياط بفضل هجمات المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس البندقدارى الصالحى . وتمكن المسلمون من القضاء على الصليبيين الذين هاجموهم وتوغلوا فى دروب المنصورة الضيقة وقتلوا منهم اعدادا كثيرة ، تقدر بالآلاف ، وحتى الذين تمكنوا من الهرب راجلين على الأقدام بعد أن تركوا خيولهم ، وقعوا فى النيل فغرقوا فيه .

اعادت انتصارات المسلمين فى المنصورة الثقة الى نفوسهم ، فازدادت هجماتهم واشتدت على الصليبيين ، وتماسك لويس التاسع أمام هذه الهجمات ، وأخذ يعيد تنظيم جنوده ، بعد أن نقصت أعدادهم كثيرا بسبب المعارك ، وبسبب ما أصابهم من الامراض التى قضت على كثير منهم .

توران شاه والصليبيون ونهاية الدولة :

خرج توران شاه من حصن كيفا مسرعا ، حتى اذا ما وصل الى دمشق نودى به سلطانا ، ثم عاود مسيره حتى وصل الى المنصورة فى أواخر فبراير سنة ١٢٥٠م . فارتفعت الروح المعنوية عند المصريين ، وبعث فيهم الحركة والنشاط فأمر بتصنيع اسطول من السفن الخفيفة على وجه السرعة ، ثم نقلها على ظهور الابل وأنزلها فى فروع النيل ودخلت الى القنوات المتعددة والمتفرعة والمرتبطة بمثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى فرع اشعوم طناح الذى يعرف

(١) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة .

اليوم باسم البحر الصغير ، واخذت سفن المصريين تعترض طريق السفن الصليبية التى تجلب لهم المؤن والاعذية من دمياط الى معسكرهم عند المنصورة ، فاستولى الاسطول المصرى على ما يزيد عن ٨٠ سفينة للصليبيين الواحدة بعد الاخرى ، وحدث يوم ١٦ مارس أن هاجم الاسطول المصرى قافلة صليبية مكونة من ٣٢ سفينة واخذها جميعا بمن فيها وما فيها ، وقد نتج عن عدم وصول المؤن الى الصليبيين أن ضربهم الجوع واصابهم المرض وتفشى فيهم التيفود (١) .

حاول الملك لويس التاسع أن ينقذ جيوشه من وخامة معسكرهم ، وأن يعود الى دمياط ، فارسل الى توران شاه يعرض عليه الجلاء عن دمياط مقابل بيت المقدس ، ولكن المصريين رفضوا المفاوضات ، لأنهم وقفوا على الحالة السيئة التى وصل اليها لويس وجيشه ، ثم انه سبق أن رفض مثل هذا الاقتراح من جانب المصريين ، ودفعته الغطرسة والتكبر على القول بأنه لا يقبل المفاوضة مع مسلم البته .

عندئذ تقرر اخلاء المعسكر الصليبي ، ونقل المرضى منهم فى السفن ، اما الاصحاء من الجند فيسلكون الطريق الذى جاءوا منه ، وفى يوم ٣ المحرم ٦٤٨ هـ / ابريل ١٢٥٠ بدأت رحلة الصليبيين وسار الملك لويس فى مؤخرة الجيش ليشجع جنوده ، وانتهاز الجند المماليك هذه الفرصة النادرة فأحاطوا بهم فى البر والبحر (٢) ، ووقع لويس فى المرض ، ولم يقدر على حفظ توازنه فوق فرسه ، وأدرك الصليبيون أن نهايتهم قربت ، عندما شدد المصريون عليهم القتال ، وعندئذ اصطحب جيفرى سارجينس قائد الحرس الملكى لويس التاسع الى كوخ بقرية ميت الخولى عبد الله الواقعة شمال شرمساح .

(١) يذكرهم المقرئى (ج ١ ص ٣٥٣) ٥٢ مركبا ، وما اثبتناه من ابي الفداء (ج ٣ ص ١٤٠) وكذلك رنسيما : ج ٣ ص ٤٦٣ .
(٢) يذكر المقرئى (ج ١ ق ٢ ص ٣٥٥) أن معظم الحرب كانت فى فارسكور .

ونحاول الصليبيون أن يقنعوا الامراء المصريين بتسليم دمياط مقابل مغادرتهم الاراضى المصرية ، ورفض المصريون للمرة الثانية .

ولم يلبث الجيش الصليبي كله أن ألقى السلاح ، وأمكن للجيش المصرى أن يطوقه ، ويأخذ الجنود كلهم أسرى ، وفى نفس الوقت استسلم الاسطول الصليبي بأكمله للاسطول المصرى (١) . ولم يكن فى استطاعة المصريين حراسة هذه الاعداد الكثيرة ، فتخلصوا من الذين تمكن الوباء منهم وأصبحوا على حافة الموت ، كما نقل لويس التاسع مكبلا بالأغلال الى دار ابن لقمان (٢) فى المنصورة ، وأودع قادة الصليبيين معا فى سجن كبير (٣) ، ووضع الطواشى صبيح المعظمى لحراسة لويس التاسع .

فى هذه الاوقات غلبت حماقة وهوجائية توران شاه على شجاعته ، لانه لم يقدر لشجر الدر زوج أبيه ما فعلته حيث حفظت له عرش أبيه ، ولم يقدر لامراء الممالك جهودهم التى بذلوها ، فأخذ يطالب شجر الدر بأموال أبيه ، وبدأ يضطهد أمراء الممالك ويبعدهم عن مراكزهم ويولى مكانهم من رجال حاشيته وأتباعه الذين قدموا معه من حصن كيفا ، بل يقال انه كان يسكر ويصف الشموع أمامه ويضربها بسيفه ويقول : هكذا أفعل بالممالك البحرية (٤) فسمع بذلك أمراؤهم ، فأخذوا يتآمرون ضده ، وهاجموه فى برج من الخشب بعد انتهاء المعركة عند فارسكور ، وضربه الظاهر ببيرس البندقدارى بالسيف على كتفه ففر الى أعلى البرج ، فاشعلوا فيه النار ، فلما وصل لهيبها اليه ألقى بنفسه من أعلى البرج الى الارض فتتبعوه وقتلوه يوم ٢٩ المحرم ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م (٥) . وتركت جثته على جانب البحر

-
- (١) Joinville, op. cit., pp. 107-110. والعينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٩-٢١٣ .
(٢) هو القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء .
المقريزى : ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) رنسيما : ج ٣ ص ٤٦٦ .
(٤) ابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٧١ ، والمقريزى : ج ١ ص ٣٥٩ .
(٥) أبو الفداء : ج ٣ ص ١٤١ .

ثلاثة أيام ، ولا يتجاسر أحد على دفنه ، الى أن تدخل مبعوث الخليفة ، فدفن ، وكانت مدة حكمه ٧١ يوما .

وهكذا ، وبمقتل المعظم توران شاه انتهت الدولة الايوبية من الديار المصرية بعد أن حكم من ملوكها ثمانية ، امتدت فترة حكمهم لمدة احدى وثمانين سنة (١) .

مصر بعد مقتل توران شاه :

كان لابد لأحد الامراء أن يتولى مسئولية الحكم ليتولى المفاوضات التي كان بدأها توران شاه مع الصليبيين لاسترجاع دمياط ، ولخروجهم من مصر واصلاح ما افسدته يد الصليبيين خلال مدة هذه الحملة السابعة ، وبعد مشاورات بين أمراء المماليك البحرية (ممالك الصالح نجم الدين أيوب) تقرر أن تتولى شجر الدر زوجة وأم ولده خليل شئون السلطنة في مصر والشام نظرا للموقف البطولى الذى وقفته بعد موت زوجها الذى يقدره التاريخ لها ، وأصبح مقدم العسكر الامير عز الدين أيبك التركمانى ، واقسم الامراء يمين الولاء ، ومارست شجر الدر مسئوليتها .

نهاية الحملة الصليبية السابعة :

استقرت الامور في مصر بعد تولية شجر الدر ، وبدأت المفاوضات وكان الامير حسام الدين محمد بن أبى على يمثل مصر ، واختار لويس التاسع اربعة أمراء على رأسهم وليم أمير الاراضى المنخفضة (٢) . وبعد مناقشات طويلة بين الجانبين اتفق على عقد معاهدة الصلح وكان من أهم شروطها ما يلى :

١ - أن يرد الملك لويس التاسع دمياط الى المسلمين .

(١) المقرئى : ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) العيى : عقد الجمان ، ص ٣١٧ ، جوزيف : العدوان الصليبي ،

ص ٢٣٢ .

- ٢ - أن يطلق الصليبيون سراح جميع الأسرى المسلمين الذين في أيديهم .
- ٣ - ألا يشترك لويس التاسع في أى حملة بقصد مهاجمة سواحل مصر والشام .
- ٤ - أن يدفع فدية قدرها ٨٠٠ ألف دينار لاطلاق سراحه ، وقد خفضت هذه الفدية الى النصف فيما بعد .
- ٥ - أن يدفع نصف قيمة الفدية قبل اطلاق سراحه ، ويدفع الباقي بعد وصوله الى عكا .
- ٦ - أن يتعهد المسلمون برعاية مرضى الصليبيين بدمياط والمحافظات على معداتهم واثقالهم حتى يتم نقلها .
- ٧ - أن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات (١) .

وقد تم تسليم مدينة دمياط الى المسلمين يوم الجمعة ٣ صفر ٦٤٨ هـ / ٦ مايو ١٢٥٠م حيث رفعت أعلام مصر على أسوارها بعد أن ظلت حبيسة في يد الصليبيين أحد عشر شهرا وسبعة أيام . وغادر الملك لويس التاسع وأمرأؤه وحاشيته وأسرى الصليبيين دمياط بعد يومين قاصدين عكا ، وهم يحملون مرارة الهزيمة وفشل الحملة السابعة التي أعدوا لها ثلاث سنوات وأكثر لاحتلال مصر حتى يستردوا بيت المقدس فلم ينجح تخطيطهم ، وانتهى بالفشل الذريع هدفهم وخاب قصدهم . وقد حملت البشرى للبلاد الاسلامية ، وانطلق الشعراء بقصائدهم يسجلون ذلك الحدث التاريخي العظيم ، ويحذرون لويس من التفكير في العودة ثانية ، ومن هذه القصائد ما قاله الصاحب جمال الدين بن مطروح :

(١) راجع المقرئى : ج ١ ص ٣٦٣ ، وأبو الفداء : ج ٣ ص ١٤٢ ، وابن تغرى بردى : ج ٦ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، رنسيما : نفسه ، ص ٤٦٦-٤٧٢ وكذلك : Joinville pp. 135-138.

قبل للفرنسيس اذا جئته
مقال نصح من قؤول فصيح
أجرك الله على ما جرى
من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغى ملكها
تحسب أن الزمريا طبل ربح
فساقك الحين الى أدهم
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك اودعتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون الف لا ترى منهم
الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقك الله لامثاله
لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا
فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان اضمروا عودة
لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح (١)

(١) المقریزی : نفسه ص ٣٦٣-٣٦٤ ، ابن تغری بردی : ج ٦ ص ٣٧٠ .



- ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم :
- ١٤- الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، دمشق ١٩٥٣ .
- ١٥- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ابن العبري : جريجور يوس بن أهرون (الملقى) :
- ١٦- تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ .
- ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله :
- ١٧- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان - دمشق ١٩٥٤ .
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحى بن علي بن محمد :
- ١٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) ، القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ابن الفرات الحنفى : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي :
- ١٩- تاريخ الدول والملوك (المعروف بتاريخ ابن الفرات الحنفى) ، مخطوط بمكتبة البرتينا بفينا برقم A. K. 117 - 125 - راجع دراستنا التفصيلية عن هذا المخطوط - الانجلو المصرية ١٩٨٣ .
- ابن القلانسي : أبو يعلى حمزه بن أسد بن علي بن محمد التميمي :
- ٢٠- ذيل تاريخ دمشق - تحقيق أمدرور - دمشق ١٩٥١ .
- ابن كثير : عما الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى :
- ٢١- البداية والنهاية - المعارف - بيروت ١٩٦٦ .
- ابن واصل : جمال الدين سالم :
- ٢٢- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٤ مجلدات) - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ١٩٧٢ .
- ابن الوردي : أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس :
- ٢٣- المختصر في أخبار البشر ، مصر ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .
- أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى :
- ٢٤- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٦٢ .
- ٢٥- الذيل على الروضتين - تحقيق عزت العطار - بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع - القاهرة ١٩٤٧ .
- أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه - صاحب حماة - :
- ٢٦- المختصر في أخبار البشر - بيروت (ب) .
- أحمد الشامى (دكتور) :
- ٢٧- العلاقات بين الشرق والغرب (ط٠ ثانية) - النهضة العربية - القاهرة ١٩٨٥ .

- أحمد كمال الدين حلمي (دكتور) :
٢٨- السلاجقة في التاريخ والحضارة - الكويت ١٩٧٥ .
- ادوارد جيبون :
٢٩- اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ أجزاء) - ترجمة :
محمد سليم سالم (دكتور) - القاهرة ١٩٦٩ .
- ارنست باركر :
٣٠- الحروب الصليبية - ترجمة السيد الباز العريني (دكتور) - القاهرة
١٩٦٠ .
- بامخرمه : أبو محمد عبد الله الطيب :
٣١- تاريخ ثغر عدن (جزآن) - ليدن ١٩٣٦ .
- البغدادى : صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق :
٣٢- مرصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع - المعرفة - بيروت ١٩٥٥ .
- البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد :
٣٣- كتاب الجواهر فى معرفة الجواهر - الهند ١٣٣٥ هـ .
- جمال الدين الشيال (دكتور) :
٣٤- مصر الاسلامية (جزآن) المعارف - القاهرة ١٩٦٤ .
- الجواليقى : أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد :
٣٥- العرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم - تحقيق أحمد محمد
شاكور - القاهرة ١٣٦١ هـ .
- جوانفيل (جان دى) :
٣٦- القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام - ترجمة : حسن
حبشى (دكتور) - المعارف - القاهرة ١٩٦٨ .
- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
٣٧- الأسباب الشخصية للحملات الصليبية - بحث بمجلة كلية الآداب -
اسكندرية ١٩٦٣ .
- ٣٨- العدوان الصليبي على بلاد الشام - مؤسسة الشباب الجامعى -
اسكندرية ١٩٨٤ .
- حافظ حمدى :
٣٩- الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى - بغداد (ب) .
- حسن أحمد محمود (دكتور) :
٤٠- العالم الاسلامى فى العصر العباسى - القاهرة ١٩٨٢ .

- حسن حبشى (دكتور) :
- ٤١- نور الدين والصليبيون - القاهرة ١٩٤٨ .
- ٤٢- الحرب الصليبية الاولى - القاهرة ١٩٥٥ .
- ٤٣- حملة القديس لويس على مصر والشام - القاهرة ١٩٤٩ .
- حسين أمين (دكتور) :
- ٤٤- تاريخ العراق في العصر السلجوقي - بغداد ١٩٦٥ .
- الحسيني : صدر الدين على بن الحسين :
- ٤٥- أخبار الدولة السلجوقية - لاهور ١٩٣٣ .
- الخزرجي : على بن الحسن :
- ٤٦- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية (جزآن) - مطابع الهلال - القاهرة ١٩١١ .
- ٤٧- دائرة المعارف الاسلامية - ترجمة : خورشيد ، عبد الحميد يونس - ط٠ ثانية - القاهرة ١٩٦٩ .
- الذهبي : شيخ الاسلام شمس الدين محمد بن أحمد :
- ٤٨- تاريخ دول الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام - القاهرة ١٩٤٨ .
- الرواندي : نجم الدين أبو بكر محمد بن على بن سليمان :
- ٤٩- راحة الصدور وآية السرور (مترجم من الفارسية) - القاهرة ١٩٦٠ .
- رشيد الجميلي :
- ٥٠- دولة الأتابكة في الموصل (بعد عماد الدين زنكى) - النهضة العربية - بيروت ١٩٧٠ .
- زكى النقاش (دكتور) :
- ٥١- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٤٦ .
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاونلى :
- ٥٢- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - حيدرآباد ١٩٥٨ .
- سعيد عاشور (دكتور) :
- ٥٣- الحركة الصليبية (مجلدان) - الانجلو - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٥٤- العلاقات بين الشرق والغرب - بيروت ١٩٦٧ .
- ٥٥- أوربا العصور الوسطى - الانجلو - القاهرة ١٩٦٧ .
- ٥٦- مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك - بيروت ١٩٧٢ .

- السيد البارز العرينى (دكتور) :
- ٥٧- الشرق الادنى فى العصور الوسطى - بيروت ١٩٦٧ .
- ٥٨- الدولة البيزنطية - بيروت ١٩٨٢ .
- ٥٩- مصر فى عهد الايوبيين - بيروت ١٩٨٢ .
- شمس الدين سامى :
- ٦٠- قاموس الاعلام (بالتركية) استانبول ١٣٠٦هـ .
- عبد الرحيم زلط (دكتور) :
- ٦١- ازدهار الشعر المصرى فى القرن السابع الهجرى - رسالة دكتوراة بآداب عين شمس ١٩٧٤ (غير منشورة) .
- عبد النعيم محمد حسنين (دكتور) :
- ٦٢- سلاجقة ايران والعراق - القاهرة ١٩٧٥ .
- على مبارك :
- ٦٣- الخطط التوفيقية الجديدة - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٨٥ .
- العماد الاصفهانى : عماد الدين محمد بن حامد :
- ٦٤- الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق صبيح) ١٩٦٢ .
- عمارة اليمنى : أبو الحسن نجم الدين :
- ٦٥- تاريخ اليمن - نشره Kay - لندن ١٣٠٩هـ .
- عمر كمال توفيق (دكتور) :
- ٦٦- الدولة البيزنطية - الجامعية للنشر - اسكندرية .
- ٦٧- مملكة بيت المقدس المصليبية - الجامعية للنشر - اسكندرية ١٩٦٠ .
- العينى : بدر الدين أبو محمد بن أحمد :
- ٦٨- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط برقم ١٥٨٤ تاريخ بدار الكتب .
- الفارقى : أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق :
- ٦٩- تاريخ ميفارقين - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٧٤ .
- فايد حماد محمد عاشور (دكتور) :
- ٧٠- الجهاد الاسلامى ضد المصليبيين فى العصر الايوبى - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٨٣ .
- فيليب حتى (دكتور) :
- ٧١- تاريخ العرب (مطول) دار الكشف - بيروت ١٩٥١ .

- ٧٢- القرآن الكريم .
● القلقشندى : أبو العباس أحمد :
٧٣- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء (١٤ جزءا) - القاهرة ١٩١٣ .
● كارل بروكلمان :
٧٤- تاريخ الشعوب الاسلامية - ترجمة : نبيه فارس واخر - ط٠ سابعة -
العلم للملايين ١٩٧٧ .
● كلارى (روبرت) :
٧٥- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة حسن حبشى (دكتور) -
القاهرة ١٩٦٤ .
● محمد فريد أبو حديد :
٧٦- صلاح الدين الايوبى وعصره - القاهرة ١٩٢٧ .
● محمد كرد على :
٧٧- الاسلام والحضارة العربية - القاهرة ١٩٣٤-٣٦ .
● المقرئى : تقى الدين أحمد بن على :
٧٨- اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - تحقيق جمال الدين
الشيال (دكتور) - الفكر العربى ١٩٤٨ .
٨٩- اغاثة الأئمة بكشف الغمة - تحقيق (الشيال) - القاهرة .
٨٠- السلوك لمعرفة دول الملوك - الهيئة العامة للكتاب .
٨١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - الهيئة العامة للكتاب .
● مؤلف مجهول :
٨٢- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - ترجمة حسن حبشى (دكتور) -
الفكر العربى ١٩٥٨ .
● نظير حسان سعداوى :
٨٣- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الايوبى - القاهرة ١٩٥٧ .
● ياقوت الحموى :
٨٤- معجم البلدان (٥ مجلدات) بيروت ١٩٦٧ .
-

ثانيا : مراجع أوربية

Europaesche Hilfesquellen

- * Arnold; Tomas :
 1. The Caliphate, Reprinted. Karachi. 1960.
- * Atiya; Aziz Sourial (Dr.) :
 2. The Crusade in the Later Middle - Ages. London. 1938.
- * Baldwin; M. W. :
 3. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem. Princeton. 1936.
- * Barker; Ernest :
 4. History of the Crusades, London.
- * Blochet, E. :
 5. Histoire du Egypte.
- * Bury, J. B. :
 6. A History of the Eastern Roman Empire. London. 1912.
 7. History of the later Roman Empire. (2 Vols.) London. 1923.
- * Cahen, Claude :
 8. La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades. Beyrouth 1967.
 9. Der Islam. (Fischer) Munchen 1969.
 10. Cambridge Mediaeval History (Bury. B. & Bury, M. A.) vol. 3,4,5. Cambridge 1957.
- * Chalandon, F. :
 11. Histoire de la premeir Croisade Paris 1925.
 12. Essai sur la Regne d'Alexis Comnene, Paris 1900.
- * Comnene, Anna :
 13. The Alexiad « أعمال الكسيوس » Trans. by Elizabeth, A. S. Dawas, London. 1967.
- * Dozy, Reinhart :
 14. Supplement aux Dictionnaires Arabes, (2 vols.) Leiden 1881.

* Emerton :

15. Mediaeval Europe.
16. Enzyklopaedie des Islams (2. Ausg.) 1969.
17. Encyclopedia of Islam.

* Gibb; Hamilton, A. R. :

18. Arabic sources for the life of Saladin.
19. The Damascus Chronicle of the Crusades. London 1932.

* Gottschalk; Hans :

20. Almalik Al-Kamil von Egypten und seine zeit. Wiesbaden 1959.

* Gray, G. Z. :

21. The Children Crusades. London.

* Grousset, René :

22. Histoire des Croisades et du Royaume Franca de Jerusalem. (3 vols.) Paris 1934-1936.

* Hagenmeyer :

23. Anonymi Gesta Francorum. Heidelberg 1890.
24. Die Kreuzzugsbriefe.
25. Peter der Ermit, Leipzig 1879.

* Heisenberg, A. :

26. Neue quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums, Munchen 1923.

* James of Vitry :

27. History of Jerusalem. London.

* Joinville, Jean de :

28. Histoire de Saint Louis. (ed wailly) Paris 1974.

* Kugler :

29. Studien zur geschichte des Zweiten Krouzzuges. Stuttgart 1866.
30. Geschichte des Kreuzzueges. «in Onken's Series».

* Lane - Poole; S. :

31. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. New - York 1898.

* Le Strange :

32. Palestine under the Moslems.

- * Luchaire, A. :
- 33. Innocent III et la question d'orient. Paris 1911.
- * Lewis, Bernard :
- 34. The Arabs in History. Oklahoma.
- * Nicholson; R. H. :
- 35. Tancred Chicago 1940.
- * Oliver, Scholasticus :
- 36. Historia Damiatana. «Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart, CCH. Tübingen 1894.
- * Oman, Charles (Sir) :
- 37. A History of the Art of War in the Middle Ages (2 vols.) 2ed. London 1924.
- * Ostrogorsky, G. :
- 38. History of the Byzantine State «Trans. Joan Hussey» Oxford 1956.
- * Rohricht, R. :
- 39. Geschichte des ersten Kreuzzuges. Innsbruck, 1901.
- 40. Geschichte des Königreichs Jerusalem. Innsbruck 1898.
- 41. Geschichte der Kreuzzüge in Umrissen. Innsbruck, 1889.
- 42. Der Kinderkreuzzug 1212, in historische Zeitschrift, vol. 36, München, 1876.
- هذه المؤلفات من أسلم وأحسن ما كتب عن الحروب الصليبية .
- 43. Studien zur Geschichte des fünften Kreuzzuges.
- * Runciman, Steven :
- 44. Die Kreuzzüge (3 B.) München 1955.
- 45. Der erste Kreuzzug. Beck - München 1981.
- * Ruville, A. :
- 46. Die Kreuzzüge, Bonn 1920.
- * Setton, K. M. :
- 47. The Byzantine Empire. Speculum 1950.
- 48. A History of the Crusades (2 vols.) Pennsylvania, 1958.
- * Stevenson, W. B. :
- 49. The Crusaders in the East. Cambridge 1907.

يعنى هذا الكتاب بالوقائع التاريخية والعلاقات بين الصليبيين
والمسلمين .

* Thompson, J. W. :

50. Economic and Social History of the Middle-ages (2 vols.) London 1959.

* Vasiliev, A. A. :

51. A. History of the Byzantine Empire (2 vols.) Madison. 1961.

* Von Junker, H. :

52. Persisch - Deutsches Woerterbuch Leipzig 1968.

53. Persian English Dictionary.

* Von Kremer, J. :

54. Der Sturz des Koenigreiches Jerusalems - Wissbaden 1952.

* Von Sybel :

55. Geschichte des ersten Kreuzzuges.

اعتمد فون سيبل على ثلاثة مصادر أوربية معاصرة للحملة الاولى
هى :

١ - مؤلف مجهول Gesta Fancorum أعمال الفرنجة .

٢ - ريموند اجيل Roymond of Agiles (الصنجلى)

٣ - فولشر Folcher

ويرى البعض ان ما كتبه سيبل يعتبر ثورة فى كتابة الحروب
الصليبية .

* Wiet, Gaston :

56. L'Egypte Arabe. Paris 1937.

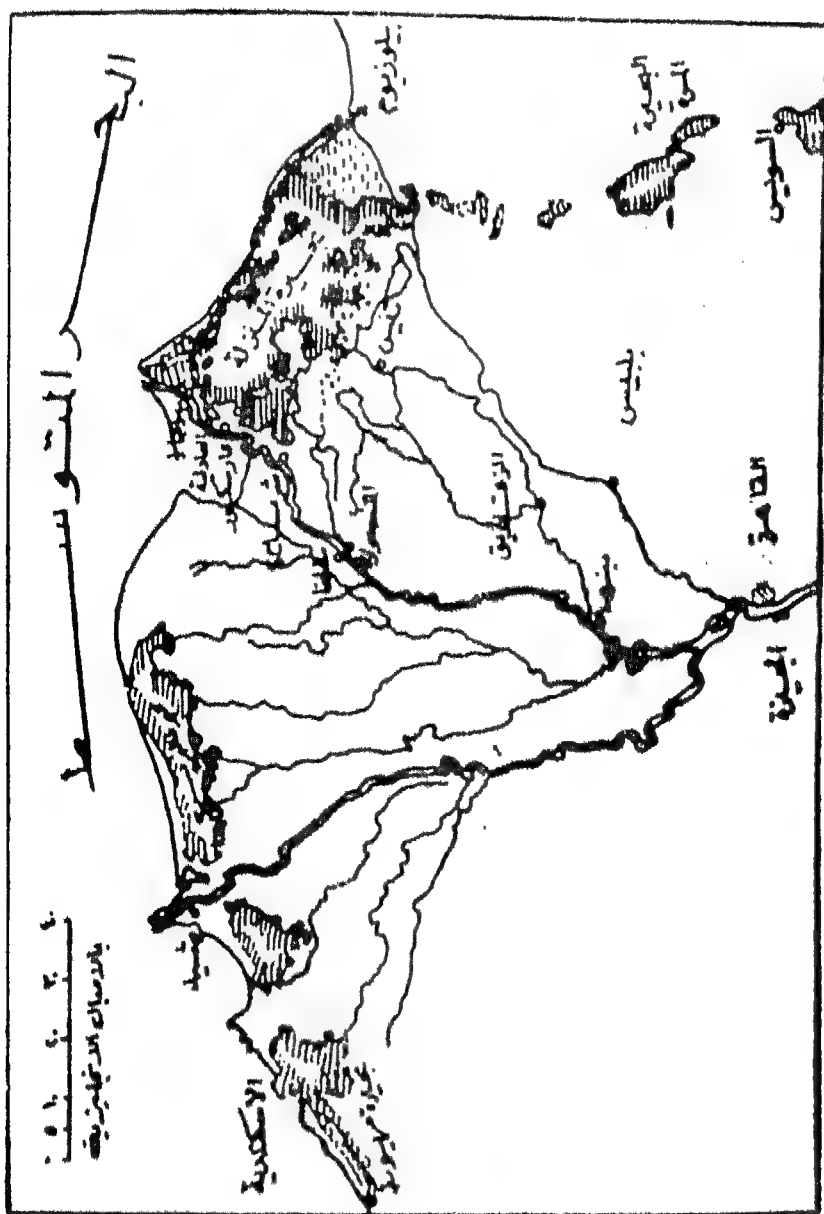
* William of Tyer :

57. History of william of tyre (2 vols.).

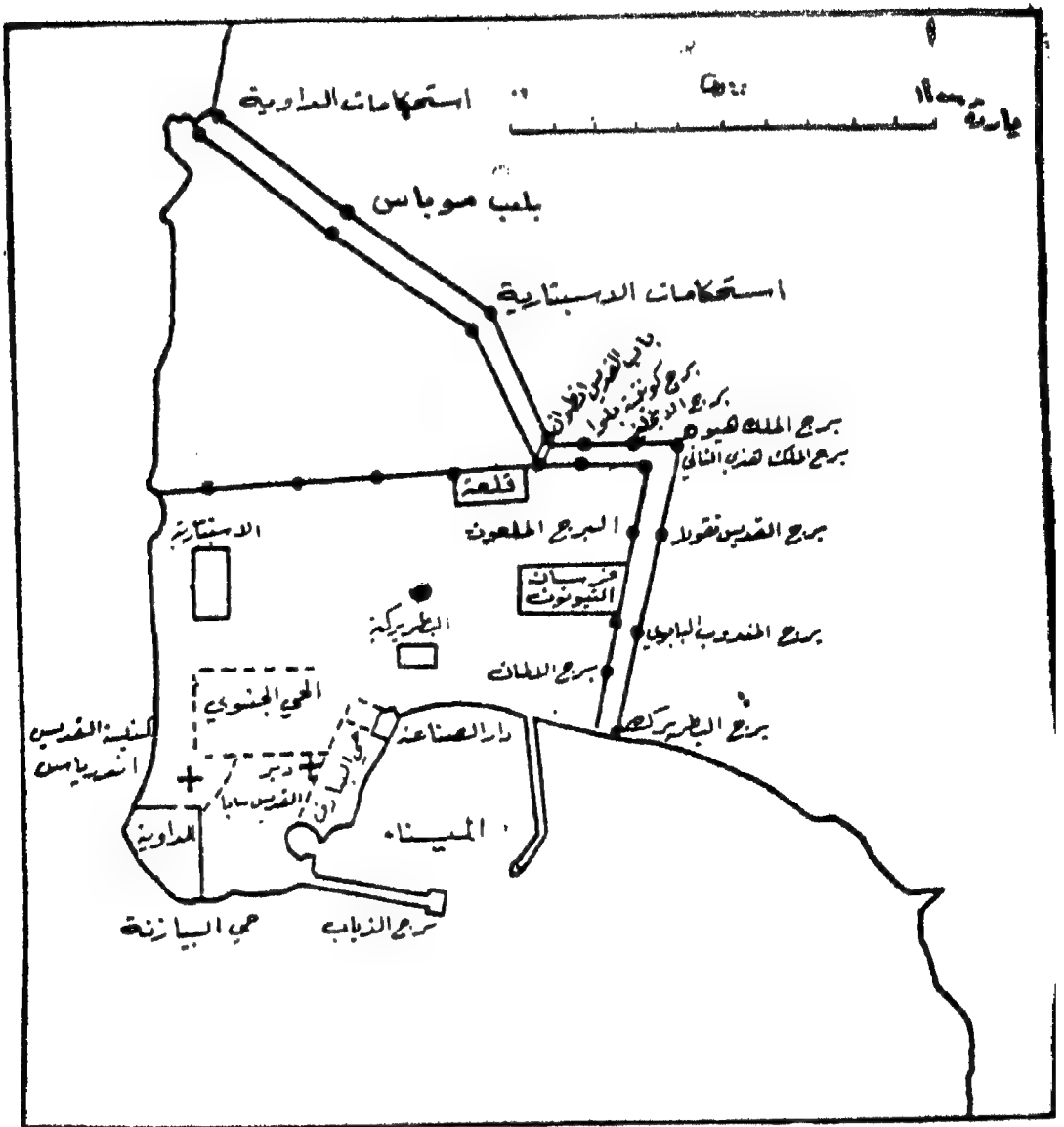
اشتهر وليم الصورى (من فلسطين) بالانزان والاعتدال فى كتابته
التاريخية ، وكان يعرف اليونانية والعربية ، وقد ألف هذا الكتاب
عن الحروب الصليبية بتكليف من امريك (عمورى) وقد دون كتابه
على فترات زمنية امتدت من ١١٧٠ الى ١١٨٣م حيث توفى فجأة .

* Wustefeld, F. :

58. Vergleichung's Tabellen der Moham,edanischen und christlichen
Zeitrechnung.



٢٠ دلتا النيل ومن الحملة الصليبية الخامسة وحملة الاسطوخوسيون





فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---------|
| الاهداء | ٣ |
| المقدمة | ٥ - ١٤ |
| الفصل الأول | |
| أحوال الشرق الأدنى السياسية قبل | |
| الحملات الصليبية | ١٥ - ٥٦ |
| أولا : القوى الإسلامية | ١٥ - ٤٤ |
| (أ) الخلافة العباسية في بغداد | ١٥ - ٢٤ |
| ظهور دويلات الشرق الإسلامي - تدخل المرأة في شئون | |
| الحكم - ظهور البويهيين - ثورة أهل البصرة - ثورة أهل | |
| الموصل - الفتن في بغداد - تسلط بني بويه على الخلافة - | |
| محاولة تبرئة البويهيين . | |
| (ب) ظهور الأتراك السلاجقة | ٢٥ - ٢٨ |
| موطنهم ونسبهم - توسعات السلاجقة - القضاء على | |
| البويهيين . | |
| (ج) الدولة البيزنطية والأتراك السلاجقة | ٢٨ - ٣٣ |
| موقعة مانزيكرت - النتائج التي ترتبت عليها . | |
| (د) ظهور دولة الأتابكة | ٣٤ - ٣٦ |
| معنى أتابك - أسباب ظهورهم - أهم الأتابكيات . | |
| (هـ) الخلافة الفاطمية في مصر | ٣٧ - ٤٤ |
| ضعف الخلفاء - الفتن والحروب - الحمدانيون - | |
| المستعلية والنزارية - الحافظية والطيبية - أسباب ضعف | |
| الخلافتين الفاطمية والعباسية . | |

- ٥٤ - ٤٥ ثانيا : القوى المسيحية فى الشرق
الامبراطورية البيزنطية - مهاجمة الثغور الاسلامية -
الاغارة على صقلية - حصار المصيصة - سقوط انطاكية -
بداية ضعف الدولة - ثورة نبلد الاقطاع - انتزاع بعض
املاكها فى الخارج - النزاع المذهبى - اتساع نفوذ السلاجقة -
طلب المساعدة من البابا جريجورى السابع .

- ٥٦ - ٥٥ ثالثا : الحملات الصليبية واسبابها

الفصل الثانى

- ٧٤ - ٥٧ مصر بين نور الدين محمود والصليبيين

نور الدين وفكرة ضم مصر - جودفرى دى يوايون
واتفاقه مع الخليفة الفاطمى - بلدوين الاول وتنفيذ خطة
جودفرى - تكرار المحاولة - موته - عمورى الاول .

- ٦٢ - ٦٠ الحملة النورية الاولى
٦٧ - ٦٣ الحملة النورية الثانية
٧٤ - ٦٨ الحملة النورية الثالثة

الفصل الثالث

- ١٠٤ - ٧٥ صلاح الدين الايوبى

نشأته وحياته وصفاته - صلاح الدين وزيرا فى مصر -
العقبات التى واجهته الصليبيون وتجديد الحلف مع بيزنطة
- وصول الجيوش الى دمياط - انسحاب عمورى - صلاح
الدين يهاجم بعض مدن الصليبيين - نهاية الخلافة الفاطمية .
غزو بلاد النوبة - فتح بلاد اليمن - المؤامرة الكبرى -
ثورة الكنز بالصعيد - الوحشة بين الرجلين - موت نور الدين
محمود .

الفصل الرابع

١١٨ - ١٠٥ صلاح الدين والجيبة الاسلامية

العلاقات بين أمراء الدول الاسلامية - الصالح اسماعيل
في دمشق - سيف الدين غازي يضم بعض البلدان - انتقال
الصالح اسماعيل الى حلب - الاستيلاء على دمشق - صلاح
الدين يحاصر حلب ثم يستولى على حمص - وقعة قرون
حماة - حصار حلب والصلح .

الصليبيون يحاصرون حماة ثم حارم - هزيمة صلاح
الدين عند تل الصافية - ضعف البيت الاتابكي - اغارة صلاح
الدين على الشوبك والكرك - ذهابه الى دمشق - دخوله الرها
- الاستيلاء على حلب - اكتمال تكوين الجبهة الاسلامية
المتحدة .

الفصل الخامس

١٤٥ - ١١٩ جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين

الحالة التي كانت عليها الامارات الصليبية - الاسباب
التي ساعدت المسلمين على استنقاذ بيت المقدس - موقعة
حطين - فتح طبريه - أسرى الصليبيين - الاستيلاء على مدن
الساحل - فتح بيت المقدس - شروط التسليم ودخول صلاح
الدين القدس - حصار صور - مناقشة النقد الموجه الى
صلاح الدين .

الفصل السادس

١٦٠ - ١٤٧ الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا ثانية

حملة فردريك - وفاته - ريتشارد قلب الأسد ، وفيليب
أوجست - الصليبيون وسقوط عكا وشروط الصلح - صلاح
الدين يطلب المساعدة من المغرب - موقعة أرسوف وهزيمة
المسلمين - صلح الرملة .

(م ١٨ - صلاح الدين)



- الفصل السابع
- ١٨٠ - ١٦١ الأيوبيون بعد صلاح الدين
- انقسام الدولة بين خلفائه - الخلاف بين الأفضل والعزیز
عثمان - الملك العادل في دمشق - الملك العادل والصليبيون -
دخوله يافا عنوة - الصليبيون يحتلون بيروت - الهدنة بين
العادل والصليبيين - وفاة العزيز عثمان - الأفضل يحاول
الاستيلاء على دمشق - الملك العادل وتوحيد البيت الأيوبي -
سوء الأحوال في مصر .

- الفصل الثامن
- ٢٠٤ - ١٨١ السلطان الملك العادل وجهاده ضد الصليبيين
- حشود الصليبيين في عكا - سياسة العادل اللينة - الحملة
الصليبية الرابعة - الحملة تبحر نحو القسطنطينية - سقوط
القسطنطينية وإقامة امبراطورية لاتينية - أهم نتائج الحملة .
حملة الأطفال - مهاجمة العادل للصليبيين - أهم أعمال
العادل الداخلية - الدعوة الى حملة صليبية جديدة ضد
مصر .

- الفصل التاسع
- ٢١٧ - ٢٠٥ الحملة الصليبية الخامسة
- مصر هدف الصليبيين - وصول الحملة الى دمياط -
حصارها - سقوطها - استردادها - أحوال البيت الأيوبي بعد
الحملة الخامسة .
- ٢٢٤ - ٢١٨ الحملة الصليبية السادسة
- مجيء فردريك الثاني الى الشرق - تسليم القدس اليه
- عودته الى بلاده .
- ٢٣٢ - ٢٢٥ الملك الكامل وتوحيد الدولة الأيوبية

فترة الهدوء - هزيمة الخوارزميين - محاولة الصالح
نجم الدين أيوب نزع أبيه الملك الكامل من حكم مصر -
ظهور الخطر المغولى - الوحشة بين الكامل والأشرف -
استيلاء الكامل على دمشق ووفاته .

الفصل العاشر

ضعف الدولة الأيوبية وسقوطها ٢٣٣ - ٢٥٥

الملك العادل الثانى سلطانا على مصر - استرداد بيت
المقدس من الصليبيين - الملك الصالح نجم الدين أيوب فى
مصر - الملك الصالح يستعين بالخوارزمية - الصالح أيوب
وتوحيد الدولة الأيوبية .

الحملة الصليبية السابعة على مصر ٢٤٢ - ٢٥٥
وصولها الى دمياط - معركة المنصورة (فارسكور) -
توران شاه ونهاية الدولة .

فهرس المصادر والمراجع ٢٥٧ - ٢٦٦

الخرائط ٢٦٧ - ٢٦٩

فهرس الموضوعات ٢٧١ - ٢٧٥

تصويب الأخطاء ٢٧٦

تصويب الأخطاء

| الصفحة | السطر | الخطا | الصواب |
|--------|---------|--------------|------------|
| ٣٣ | ١ | بوزان | بوران |
| ٣٤ | ١ هـ | Dictionaries | Dictionary |
| ٤٩ | ٤ | يثوفانو | ثيوثانو |
| ٦٨ | ٢ هـ | ويعنى | اليمنى |
| ١٠٠ | ١٤ | سنذكره | ذكرناه |
| ١٢٠ | ١٦ | السليمة | السلمية |
| ١٢٠ | ١٧ | لدوجة | لدرجة |
| ١٢٢ | ٥ | الغرب | العرب |
| ١٢٣ | آخر سطر | البحو | البحر |
| ١٢٥ | ٤ | البد | البدء |
| ١٢٦ | ٥ | وصنجيلي | الصنجيلي |
| ١٣٠ | ١٢ | رينالد | ريجنال |
| ١٣٧ | ١٦ | تزيدت | تزايدت |
| ١٤٨ | ١ هـ | ان | ابن |

رقم الايداع ٨٦٩١ لسنة ١٩٩٠

مطابع سجل العرب

كتب للمؤلف

- ١ - في تاريخ العرب والاسلام - الانجلو المصرية - القاهرة
ط. ٠ الثالثة ١٩٨٥
- ٢ - الدولة الاسلامية في العصر العباسي - الانجلو المصرية -
القاهرة - ط. ٠ ثانية ١٩٨٥
- ٣ - الدولة العربية (الخلفاء الراشدون) - النهضة العربية -
القاهرة - ط. ٠ الثالثة ١٩٨٦
- ٤ - تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب - النهضة العربية -
القاهرة - ط. ٠ ثانية ١٩٨٥
- ٥ - العلاقات بين دول الخليج ومدن الشرق الأقصى - مكتبة
النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٦
- ٦ - تاريخ الحضارة الاسلامية - مطبعة جلال - الزقازيق -
ط. ٠ ثامنة ١٩٨٩
- ٧ - تاريخ دولة المماليك البحرية (في مصر والشام) -
ط. ٠ ثامنة / مزيدة ومنقحة ١٩٩٠
- ٨ - كتاب التاريخ والحضارة الاسلامية (مع آخرين) - بتكليف
من وزارة التربية والتعليم ١٩٨٥-١٩٨٦
- ٩ - دراسة في مخطوط تاريخ الدول والملوك (المعروف بتاريخ
ابن الفرات) - الانجلو المصرية - ١٩٨٣
- ١٠ - دراسة في أوراق البردي العربية - مطابع سجل العرب ١٩٨٢
- ١١ - التطور التاريخي لعقود الزواج في الاسلام - النهضة
العربية ١٩٨٢